

أُنْجَانٌ

عِلْمُ مُحَمَّدِ الْعَفَادِ



العنوان: أنا .

المؤلف: عباس محمود العقاد .

إشراف عام: داليا محمد إبراهيم .

تاريخ النشر: الطبعة الثالثة أغسطس 2005م .

رقم الإيداع: 2003 / 19807

الترقيم الدولي: ISBN 977-14-2514-5

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابي - الممهندسين - الجبيرة
ت: 3466434 - 3472864 (02) فاكس: 3462576 (02) ص.ب: 21 إباهية
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: publishing@nahdetmistr.com

المطبع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287 - 8330289 (02) - فاكس: 8330296 (02)
البريد الإلكتروني للمطبع: press@nahdetmistr.com

مركز التوزيع الرئيسي: 18 ش كمال صدقى - الفجالة -
القاهرة - ص . ب : 96 الفجالة - القاهرة.
ت : 5909827 - 5908895 (02) - فاكس: 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجاني: 08002226222
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: sales @nahdetmistr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدى)
ت: 5462090 (03)

مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف
ت: 2259675 (050)

موقع الشركة على الانترنت:
www.nahdetmistr.com

موقع البيع على الانترنت:
www.enahda.com



احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / CD)
وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع
www.enahda.com

جميع الحقوق محفوظة © لشركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

الكتاب والكاتب

بِقَلْمِ طَاهِرِ الطَّنَاحِي

لما أصدر الفقيد الكبير عباس محمود العقاد ديوانه : « وحى الأربعين » - وكان وقتئذ فى الرابعة والأربعين من عمره - اقترحت عليه « مجلة الهلال » أن يكتب فصلاً نثرياً فى هذا الموضوع ، فكتب لها فصلاً بعنوان « بعد الأربعين ». وصف فيه حياته النفسية ، وحالته الفكرية فى هذا السن ، وتحدث عن فلسفته بين الشباب والكهولة ، وعن تجاربه الشخصية بين العشرين والأربعين وقد نشرته « الهلال » فى أول يونيو سنة ١٩٣٣ م .

وكان هذا المقال هو أول مقال كتبه عن نفسه بأسلوبه العلمي التحليلي . وبعد عشر سنوات - وقد توليت تحرير هذه المجلة - اقترحت عليه أن يكتب مقالاً بعنوان « وحى الخمسين » .. فكتب هذا المقال ، ونشرته « الهلال » فى أول مايو سنة ١٩٤٣ م . وقد جعله موضوعياً كما جعله شخصياً . فتناول حياته وحياة أمثاله «من بلغوا هذه السن ، وما يعتور أصحابها من حالات نفسية ، ونظارات جديدة إلى الحياة تختلف عن نظارات أبناء العشرين أو الثلاثين أو الأربعين ..

وقد وصفها بأنها سن اغتناء لا سن افتقار ، ثم قال :

« إذا جاز لي أن أقيس على نفسي ، فهي لا تقل غنى عن الأربعين . وقد تفوقها غنى من وجوده .. ومن أمثلة كثيرة بين أصحاب الوحى - وأصحاب الوحى هنا هم المنتجون فى عالم الذوق والتفكير - نرى أن ثمرات الخمسين بين الفلاسفة والشعراء ، وأرباب الفنون ، تضارع خير الثمرات فى سائر الأعمار » .

وقد رأيت فى هذين المقالين أن كتاباته عن نفسه ، وترجمته لحياته تختلف عما كتبه الكثيرون من رجال الفكر والأدب والمجتمع عن حياتهم .. فبعض هؤلاء العلماء والأدباء والساسة ترجم لحياته فى أسلوب تأريخي ، وبعضهم فى صيغة مذكرات أو ذكريات ، وأخرون صوروا حياتهم فيما يشبه الاعترافات مع الاكتفاء بالأهم والمهم من الأحداث وأدوارهم فيها ..

أما كتابة العقاد عن نفسه ، فهى كتابة لها طابع جديد فى كتابة التراجم .
كتابة ليست شخصية بحثة ، ولا سرداً لأحداث مرت به ، أو عاش فيها وكان له دور من أدوارها فحسب ، بل هى كتابة باحث عالم ، وفنان ناينج تعود النظر فى مسائل العلم ، وقضايا الفن والفكر ، وجال فى شئون الفلسفة وعلم النفس والأدب والتربية والمجتمع ، وتمرس بتجارب الحياة ، ومارس حلوها ومرها وخرج منها بخبرة العالم ، وعبرة المفكر ، وحكمة الفيلسوف ، فإذا كتب عن نفسه تناول ألواناً من المعرفة ، وعالج أنواعاً من التفكير ، وتعقب كل حادث أو شأن من الشئون بالتعليق العلمى ، أو التعليق النفسي ، أو التأمل الفلسفى !

كتاب «عنى»:

وفي نحو السابعة والخمسين من عمره - وكان ذلك فى سنة ١٩٤٦م - اقترحت عليه أن يكتب كتاباً عن حياته ..

فأجابنى: «سأكتب هذه الكتاب ، وسيكون عنوانه «عنى» وسيتناول حياتى من جانبين :
الأول: حياتى الشخصية بما فيها من صفاتي وخصائصى ، ونشأتى وتربتى
البيتية وال الفكرية ، وأمالى وأهدافى ، وما تأثرت به من بيته وأساتذة وأصدقاء ، وما
طبع أو انطبع فى نفسى من إيمان وعقيدة ومبادئ ، أو بعبارة أخرى «عباس العقاد
الإنسان» الذى أعرفه أنا وحدى ، لا «عباس العقاد» كما يعرفه الناس ، ولا
«عباس العقاد» كما خلقه الله !

والجانب الثانى: حياتى الأدبية والسياسية والاجتماعية المتصلة بمن حولى من الناس ، أو بالأحداث التى مرت بي وعشت فيها أو عشت معها ، وخضت بسببها عدة معارك قلمية ، وكانت صناعة القلم أبرز ما فيها ، أو بعبارة أخرى «حياة قلمى»
الذى عاش معى وعشت معه منذ بدأت أكتب فى الصحف السياسية والأدبية ،
وأنا فى السادسة عشرة حتى الآن ..

«وهذا الكتاب يحتاج منى إلى التفرغ مدة طويلة ، وبخاصة الجانب الثانى ،
لأنه يحتاج إلى دراسة تاريخية ومراجعة للأحداث ، وتحقيق دقيق للأسباب
والمسببات وجمع للوثائق السياسية والأدبية» .

«ولعلى أبدأ بالجانب الأول الذى هو (أنا) لأنه أقرب إلى الكتابة وبخاصة وأنا
في نهاية الحلقة السادسة من عمري ، فسواء عشت إلى السبعين أم الثمانين أم
المائة ، فإن عدد الشهور والأعوام لا يغير منه شيئاً .. !» .

كتاب «أنا»:

كان هذا الحديث في أواخر سنة ١٩٤٦ .. وقد كتب بمجلة «الهلال» قبل ذلك المقالين السالفين : «بعد الأربعين» و «وحي الخمسين» . فرأيت أن هذين الفصلين هما من فصول الجانب الأول ، فاعتمدت أن أستكتبه في «الهلال» سائر فصول هذا الجانب إلى نهايته ، ثم أجمعه له في كتاب منفرد كما فعلت في كتاب «رجال عرفتهم» الذي نشرته سلسلة «كتاب الهلال» .

وعرضت عليه الكرا ، فوافق عليها ، وكان أول ما كتبه بعد هذا الاتفاق مقال : «إيماني» الذي نشرته «الهلال» في يناير سنة ١٩٤٧م . ثم مقال «أبي» إلى آخر ما كتبه من الفصول التي أربت على الثلاثين فصلاً في «الهلال» .

وقبل وفاته بشهر كان يزورني بمكتبتي ، فحادثته في جمع هذه الفصول وما نشر في موضوعها في بعض المجلات الأخرى ليتألف منها كتاب نختار له عنواناً مناسباً ، فأجاب : «لا بأس وسنجعل عنوان الجانب الثاني بعد تأليفه «حياة قلم» ..

فأخذت في جمع هذه الفصول ، وضمت إليها خمسة فصول نشرتها مجلات «المصور» و «الإثنين» و «كل شيء» ، و «القافلة»^(١) وما كدت أنتهي من جمعها حتى مرض وعاجله المنية . فرأيت من الوفاة لنا بفتنا الكبير ، ولتاريخ الأدب أن أنشر هذا الكتاب . واخترت له عنوان «أنا» .

وأني أرى ويرى القراء معى أن هذا العنوان أصدق عنوان على فصول هذا الكتاب التي تتناول الجانب الشخصي والنفسي من حياته . ولو كان العقاد حياً لما رفض هذا العنوان فقد كان رحمة الله يترك لى عنوان بعض مقالاته التي ينشرها في مجلة «الهلال» وأسماء بعض كتبه التي نشرتها سلسلة كتاب الهلال ثقة منه بأني اختار الاسم المناسب ..

وحياة العقاد حياة ضخمة لا يجمعها كتاب واحد . فإذا كنت أقدم للقراء في كتاب «أنا» حياته النفسية والشخصية ، أو «العقاد الإنسان» فسيبقى بعد ذلك أمم المؤلفين والباحثين : «العقاد الكاتب» و «العقاد الشاعر» و «العقاد السياسي» و «العقاد اللغوي» و «العقاد الصحفي» و «العقاد الفنان» و «العقاد المؤلف» و «العقاد العالم» و «العقاد الفيلسوف» ، فقد كان بحراً في اطلاعه وانتاجه ، وكان فذاً في مواهيه وعبقريته .

(١) قافلة الزيت مجلة علمية أدبية تصدر عن شركة أرامكو للزيت بمدينة الظهران بالسعودية .

حب العقاد للحياة

وقد كان الفقيد العزيز يحب الحياة على الرغم من متابعتها وأذاتها ، وعلى الرغم مما عاناه فيها من أمراض وشدائد ، لأنه كان يحب المعرفة ويغرس بها ، ويحب أن يصل إليها ، وتصل إليه ، ولو تحت التراب .. !

كنا وكأن الناس يعرفون ذلك عنه فلما بلغ السبعين من عمره ، كنت أزوره ليكتب عن «وحي السبعين» فسألته :

هلا تزال تحب الحياة اليوم ، كما تحبها بالأمس ..
فقال :

لم يتغير حبى للحياة . ولم تنقص رغبتي فى طيباتها .. ولكننى اكتسبت صبراً على ترك ما لا بد من تركه ، وعلماً بما يفيد من السعى فى تحصيل المطالب وما لا يفيد وزادت حماستى الآن لما اعتقاد من الآراء ، ونقصت وحدتى فى المخاصمة عليها ، لقلة المبالاة باقناع من لا يذعن للرأى والدليل ..

وارتفع عندى مقىاس الجمال ، فما كان يعجبنى قبل عشر سنين ، لا يعجبنى الآن ، فلست أشتتها منه أكثر مما أطيق .. كنت أحب الحياة كعشيقه تخدعنى بزينتها الكاذبة وزينتها الصادقة . فأصبحت أحبها كزوجة أعرف عيوبها وتعرف عيوبى . لا أجهل ما تبديه من زينة وما تخفيه من قبح ودمامة . إنه حب مبني على تعرف وفهم .

والحياة بمعناها ولفظها حياة ، سواء رضينا أم لم نرض ، وهى خير من الموت
وقد نظمت أبياتاً في هذا المعنى فقلت :

قُلْنَا فَأَيْنَ الصِّمْمِ
قَالُوا شَقَاءَ فَقُلْنَا
نَعَمْ فَأَيْنَ النَّعِيمِ
إِنَّ الْحَيَاةَ حَيَاةٌ فَفَارَقُوا أَوْ أَقِيمُوا

ولم يكن «العقد» يتشاءم من شيء في الحياة مطلقاً ، فقد كان يتحدى التشاوم ، ولا يؤمن به ، حتى أنه كان يتحدى رقم ١٣ الذى يتشاءم منه الكثيرون ، فكان يسكن منزلًا بمصر الجديدة يحمل هذا الرقم ، وكان الرقمان الأولان من تليفونه هما ١٣ ، وقد بدأ بناء منزله بأسوان يوم ١٣ مارس ، وقسم كتبه ١٣ قسمًا ، واحتفظ بتمثال للبوème كان يضعه على مكتبه .. ومن الغريب أنه دفن فى أسوان يوم ١٣ مارس ..

لم يبلغ كل مآراد..!

وقد سأله مرة : هل ظفرت بما كنت تريده من الحياة؟ .. وهل كان ذلك هدف خاص حاولت أن تبلغه ، فبلغته؟ .. وهل تحب نفسك الآن أكثر مما كنت تحبها أيام الشباب؟ .. وهل تشعر بأن هناك صفات معينة تفتقر إليها؟ .. وهل تجد في نفسك صفات تكرهها ويكرهها الناس ولا تستطيع التخلص منها؟ وهل تحب أن تعيش حياتك الماضية مرة أخرى؟ .. ثم ما هي فلسفتك في الحياة؟

فكتب العقاد يقول :

- كل ما كنت أريده وأطلبه من الحياة لم أبلغه ، ولا أرى أن أحدًا بلغ كل ما طلب وأما هدفي في الحياة ، فكان في الصبا أن أتولى القيادة العسكرية ، ثم تحولت أو خيل إلى أنني أتحول إلى طلب العلوم الزراعية ، وأن أتحقق بمدرسة الزراعة في ذلك الحين ، ثم تبين لي من مراجعة نفسى مراجعة دقيقة أن وراء الطموح إلى القيادة العسكرية وإلى العلوم الزراعية باعثًا واحدًا هو «حب الأدب ...» «فقد كنت أنظم الشعر في الحماسة ، ثم جنحت نفسي إلى دراسة الأزهار والطيور فبداء ذلك كأنه طموح إلى التفرد في علوم الزراعة ، وما كان في حقيقته إلا صورة من صور الجمال ، أو حب الطبيعة ...

وقد استويت على هذه الحالة بعد هذه المراجعة ، فبلغت فيما أعتقد غاية ما يستطيع في بيئتنا العربية ، ولم أبلغ الغاية التي رسمتها أمامي في مقبل حياتي ، ولا قربًا من الغاية . وإذا قدرت ما صبوبت إليه مائة في المائة ، فالذى بلغته لا يتجاوز العشرين أو الثلاثين ... !

أما حبى لنفسى ، فإنى أصارحك أننى ما أحببت نفسى قط إلا لسبب عام أرى أننى أصلح له ، وأستحق الحياة من أجله . ولا تهمنى الحياة لحظة إن لم تقترن بهذا السبب .. !

وانى أشعر أن لى خصالاً كثيرة أستطيع أن أمنحها غيرى . ويكفى هذا عوضاً عما يعوزنى من الخصال .. !

ولم يكره الناس من صفاتى إلا تلك الصفات التى أعتز بها .. وأما ما أكرهه أنا فهو المحاسبة الشديدة لنفسى وللناس ، ولو لا هذه المحاسبة لرضيت عن نفسى ، ورضيت عن الكثيرين .

وإذا لم أجد من حياتي الماضية ، فأنا مضطرك أن أعيشها بخيراها وشرها ، وأنعم بما فيها . وأنا على كل حال راض عن الحياة كل الرضا .

* * *

« أما فلسفتي في الحياة ، فأهم جانب من جوانبها هو ما استفدت من الطبع الموروث وجاءته بعض الزيادة من التجارب والقراءة ، وأعني به قلة الاكتتراث للمقتنيات المادية ، فأعجب شيء عندي هو تهالك الناس على اقتناء الفساع والقصور وجمع الذخائر والأموال .

ولم أشعر قط بتعظيم إنسان لأنه صاحب مال ، ولم أشعر قط بصغرى إلى جانب كبير من كبراء الجاه والثراء . بل شعرت كثيراً بصغرهم ، ولو كانوا من أصحاب الفتوحات ! .

وأنا أعتقد أن نابليون مهرج إلى جانب العالم باستور ، والإسكندر المقدوني بهلوان إلى جانب أرشميدس ، وأن البطل الذي يخوض الحرب ذوداً عن الحق والعقيقة أكرم جداً من كل بطل يقتحم العروب ليقال أنه دوخ الأمم ، وفتح البلدان .

* * *

« وأما فلسفتي في الحياة مع الناس ، فأثر التجربة والدرس فيها أغلب من أثر الطبيعة الموروثة ، وقد اتخذت لنفسي شعاراً معهم ، وهو : ألا تنتظرون منهم كثيراً ، ولا تطمع منهم في كثير . . .

وهذه الفلسفة تتلخص في سطور :

غناك في نفسك ، وقيمتك في عملك ، وبواعثك أخرى بالعناية من غaiاتك ،
ولا تنتظر من الناس كثيراً تحمد عاقبته بعد كل انتظار » .

ميله إلى العزلة

وقد كان العقاد يميل إلى العزلة والانفراد ، بل كان يميل إلى الانطواء وربما ظن البعض أن هذا الانطواء يرجع إلى عقد نفسية ، ولذلك سأله يوماً عن هذه الحالة التي لازمته طول حياته . فكتب يقول :

أعترف لك أنتى مطبوع على الانطواء ، ولكنى مع هذا خال بحمد الله من العقد النفسية الشائعة بين الكثيرين من أندادى فى السن ، ونظراتى فى العمل وشركائى فى العصر الذى نعيش فيه . .

لقد ورثت طبيعة الانطواء عن أبي وأمي .. فلا أملَّ الوحدة ، وإن طالت . ولا أزال أقضى الأيام في بيتي على حدة حيث يتعدّر على الآخرين قضاء الساعات بل اللحظات . ولكننيأشغل وحدتني بالقراءة والكتابة ، وإذا كنت في عزلة وانطواء عن الجماعات والحفلات ، فإنني لست في عزلة عن أصدقائي وآخواني . وأنا أميل إلى الصداقة وأكره العداوة .. ولكنني لا أعرف التوسط في كلّيهما ، سواء في إبداء الرأي ، وال العلاقات الشخصية ، ولا يمكنني أن أفهم الأسلوب «المودرن» في السياسة .. فالمجرم في حق وطنه أقاطعه ، وعاطفتى تتشكّل نحوه حسب هذا الاعتقاد .

وأنا لا أحمل على إنسان إلا إذا اعتقدت أنه يستحق هذه الحملة . وإذا ما حملت على إنسان ، لا أتوسط في حملته عليه ، لأن الشخص الذي يسىء إلى وطنه أو إلى الإنسانية ، يجب أن نقاومه وأن نحمل عليه ، وإلا اعتبرناه أحسن من الإنسانية أو الوطن .

وأنا أعمل عن حب لما أعمله ، وأحب أن أعتّرف بمسؤوليتي ، ولا أحمل أحداً مسؤولية كتاباتي أو آرائي . وأميل إلى التنظيم والمثابرة . ولذلك استطعت أن أجتمع بين العمل في المجمع ومجلس الفنون والأداب وبين التأليف والكتابة والقراءة ، فأعطي لكل حقه .. ! » .

إيمان العقاد

والأستاذ العقاد كان مؤمناً بالله كل الإيمان ، لا عن وراثة فقط ، بل عن شعور وتأمل وتفكير طويل ، فقد نشأ بين أبوين شديدي التمسك بالدين ، لا يهملان فريضة من الفرائض اليومية وقد فتح عينيه على الدنيا فوجد أباً يستيقظ قبل الفجر ليؤدي الصلاة ، ويتهلل إلى الله بالدعاء ، ولا يزال في مصلاه إلى ما بعد طلوع الشمس ، فلا يتناول طعام الإفطار حتى يفرغ من أداء الفرض والنافلة وتلاوة الأوراد .

رأى والدته في عنفوان شبابها تؤدي الصلوات الخمس ، وتصوم وتطعم المساكين . وقلما ترى النساء مصليات أو صائمات قبل الأربعين !

وندر بين أقاربه من لا يسمى باسم من أسماء النبي وأله سواء منهم الرجال أو النساء . وكانت تقام في بيت أخيه ندوات لقراءة الكتب الدينية ، ومنها مختارات الأحاديث النبوية وكتب التفسير وإحياء علوم الدين للغزالى .

فكان للوراثة شأن فيما عنده من الإيمان والاعتقاد الديني .

أما الإيمان بالحس والشعور ، فذلك أن مزاج التدين ومزاج الأدب والفن يلتقيان في الحس والتصوير والشعور بالغيب وع神性 خالق الكون .

وهو كعالم مفكر يرى الإيمان بالتفكير ، والوصول بالعقل إلى معرفة الله هو أسمى درجات الإيمان ..

هذا في العقيدة أما إيمانه في مجال الأخلاق ، فهو الإيمان بالكمال فلا موجب عنده لعمل الخير غير طلب الكمال وفهم الكمال ، وأما إيمانه بالأدب فهو أنه رسالة عقل إلى عقول ، ووحي خاطر إلى خواطر .

وميزان ذلك كله هو ميزان المثل الأعلى وطلب الكمال ، لأن إيمان صادق لا كذب فيه ولا غرض ، وهو إيمان يعمّر النفس بلذة الروح ، ويغنى عن طلب الجزاء ، ويعزى عن فقد الحمد والثناء .

وكذلك كان إيمان العقاد بالحياة والدين والأدب والأخلاق لا غاية له إلا الكمال !

الكتب وسر الحياة

وقد اشتهر العقاد بسعة اطلاعه ، وكثرة قراءته لمختلف الكتب ، لا يترك نوعاً من أنواع الكتب إلا قرأه . ومع سرعة قراءته ودقته ، فقد كان يعلق كثيراً على ما يقرؤه بقلمه ، وربما لا يعرف الكثيرون أنه كان يفضل قراءة كتب فلسفة الدين ، وكتب التاريخ العام والتاريخ الطبيعي ، وترجم العظام ودواوين الشعر ، وقد قال : «إنني أقرأ هذه الكتب ، وأعتقد أن العلاقة بينها متينة ، وإن كانت تفترق في الظاهر ، إذ تؤدي جمیعاً إلى توسيع أفق الحياة أمام الإنسان . فكتب الفلسفة الدينية تبين إلى أي حد تمتد الحياة قبل الولادة وبعد الموت . وكتب التاريخ الطبيعي تبحث في أشكال الحياة المختلفة وأنواعه المتعددة . وترجم العظام معرض لأصناف عالية من الحياة القوية البارزة . والشعر هو ترجمان العواطف ، فأننا لا أقرأ من الكتب إلا ما له مساس بسر الحياة - ولكن ما هو سر الحياة ؟

إنني أعتقد أن الحياة أعم من الكون ، وأن ما يرى جامداً من هذه الأكون ، أو مجردًا من الحياة إن هو إلا أداة لإظهار الحياة في لون من الألوان أو قوة من القوى . والحياة دائمة أزلية لا بداية لها ولا نهاية !

فإذا كنت تستطيع أن تعرف سر الله ، عرفت الحياة ، ولكننا مطالبون بأن نحفظ لأنفسنا في هذا المحيط الذي لا نهاية له أوسع دائرة يمتد إليها شعورنا وإدراكنا . والكتب هي وسائل الوصول إلى هذه الغاية ، وهي النافذة التي تطل على حقائق الحياة ، ولا تغنى النافذة عن النظر .. !

ومن جهة أخرى ، فإن الكتب طعام الفكر . وتوجد أطعمة لكل فكر كما توجد أطعمة لكل بنية . ومن مزايا البنية القوية أنها تستخرج الغذاء لنفسها من كل طعام كذلك الإدراك القوي الذي يستطيع أن يجد غذاء فكريًا في كل موضوع .. !

العقد والحب

وحينما كنت رئيساً لتحرير مجلة «الدنيا» الأسبوعية التي أصدرتها دار الهلال اقترحت على فقيتنا العظيم أن يكتب عن الحب ، وكانت أعرف أنه في شبابه كانت له قصة حب عنيفة ، صدم فيها صدمة كبيرة . فكتب لهذه المجلة سلسلة مقالات بعنوان : «مواقف في الحب» . وهي التي جمعها فيما بعد في كتاب : «سارة» .

ولم يكن اسمها «سارة» . ولكن اسم مستعار لهذه الفتاة التي وصفها بأنها جميلة بلا مراء ، ومع أنها ليست أجمل من رأى في حياته ، ولا أجمل من رأى في أيام حبه لها وشغفه بها ، ولكنها جميلة جمالاً لا يحتفظ بغيره في ملامح النساء .. لونها كلون الشهد المصفي ، يأخذ من محاسن الألوان البيضاء والسمراء والحرماء والصفراء في مسحة واحدة .

وعينها نجلاوان تخفيان الأسرار ولا تخفيان النزعات ، فيهما خطفة الصقر ، ودعة الحمام .. وفمهما فم الطفل الرضيع مع ثنيات تخجل العقد النضيئ في تناسق وانتظام ، ولها ذقن كطرف الكمثرى الصغيرة ، واستدارة وجه وبشاشة جسم ، وبين وجهها النضيد وجسمها الفاتن جيد كأنه الحلية الفنية سبكت لتنسجم بينهما وفقاً لتمام الحسن .

وقد دام الحب بينهما عدة سنوات ثم صدم في حبه . وكانت الصدمة منها ، وكان الفراق بينهما . وكان بكاؤه الشديد ، وهو يرد إليها ذكرياتها عنده في إحدى حدائق مصر الجديدة ، بمشهد من صديق من أخلص أصدقائه ، ولم يكن بكاؤه عن أسف عليها ، ولكن العقاد كان شديد الحساسية سريع البكاء ، وقد أثبتت المراجع العلمية والنفسية أن أقوى الرجال أسرعهم إلى التأثر والبكاء .

ومن أمثلة التأثير والحساسية الشديدة عنده أنه أثناء سجنه بتهمة العيب في الذات الملكية ، وقع نظره يوما على جlad يهوى بسوطه على ظهر سجين ، ثم ينبثق الدم من ظهر الرجل المسكين .. فعاد إلى مكانه في السجن باكيا ، وقلبه يكاد ينفطر شفقة ورحمة ، ومكث مريضاً مدة أسبوع كامل ، ولم يستطع النوم ثلاث ليالٍ بأكملها ، وظلت صورة الدم على ظهر السجين تشاغل عينيه ، واستمرت آنات الرجل تدوى في أذنيه ، ولم يرحم خياله أن ذلك الرجل قد أتى ذنبًا استحق عليه العذاب !

هند - أو - مى

وقد كان أثناء حبه لهذه الفتاة يحب « الآنسة مى » فقييدة الأدب العربي . وقد اعترف لنا في حديث معه بحب هاتين الفتاتين وحدهما ، فقال : « لقد أحبت في حياتي امرأتين ، « سارة » و « مى » .. كانت الأولى مثالاً للأئنة الدافقة ، ناعمة رقيقة لا يشغل رأسها إلا الاهتمام بجمالها ، ولكنها كانت مثقفة أيضاً . والثانية - وهى مى - كانت مثقفة قوية الحجة تناقش وتهتم بتحرير المرأة وإعطائها حقوقها السياسية . كما كان فيها صفات الرجال من حيث إنها جلية علم وفن وأدب ، وزميلة في حياة الفكر . أى أن اهتمامها كان موزعاً بين العلم والأئنة » !

وقد أحبها العقاد حباً روحياً ، وتحدث عنها في آخر كتاب « سارة » . وسماها باسم « هند » وكان يزورها ويجالسها ويتناولان من الحب ما يتناوله العاشقان العذريان ، وكان يكتب إليها ، فيفيض ويسترسل ويذكر الوجد والشوق والأمل . وكانت « مى » تحبه حباً شديداً ، ولم تكن تعلم بحبه لسارة ، وإنما كانت تزعم بينها وبين نفسها أنه معزول عن عالم النساء غير أنها لم تحفل باتصاله بالنساء ، ومدام اسمهن « نساء » لا يلوح من بينهن اسم امرأة واحدة وشبح غرام واحد .. فلما شعرت بأنه يحب فتاة أخرى ، وكان هذا الحب قبل أن تقع هي في حبه ، زارته على حين غرة في مكتب عمله - وهي الزيارة الأولى والأخيرة - فرحب بها وأبدى لها استغرابه لزيارتها المفاجئة ، وابتهاجه بسؤالها عنه وأنصت لها ، فقالت بعد فترة وصوتها يتهدج :
- لست زائرة ، ولا سائلة ..

فقال : إذن .. ؟

فلم تتكلّم ، بل نظرت إليه ، كمن يستحلفه ألا يتكلّم . وانحدرت من عينيها دمعتان ، فما تمالك نفسه وتناول يدها ، ورفعها إلى فمه يقبلها ، ويعيد تقبيلها ، فمانعته ، ولم تكف عن النظر إليه . ثم استجمعت عزمها ونهضت منصّفة ، وهي تتمّم هامسة : « دع يدي ودعني .. » .

ويقول العقاد « لو جاءت هذه الزيارة في بداية علاقته بسارة لما كان بعيداً أن تقضي على تلك العلاقة ، وأن تصبح سارة عنده اسمًا مغمورًا في عامة النساء ». .

فلسفته في الحب

أحب العقاد - كما قلنا - مرتين ، صدم في الأولى ففارقها كارها لخداعها وخيانتها .. وفارقتها الثانية ، لأنانيتها وكرامتها ، عاتبة غير منصفة لأنّه لم يختلس منها شيئاً هو من حقها عليه . ومع ذلك فقد كان يمدح الحب ويقدسه ، ويقول عنه فيما يقول في أحد فصول هذا الكتاب :

- ما الحب؟ .. ما الحب إلا أنه بدل من الخلود ، فما أغلاه من بدل .

وكان يعرف الحب بأنه اندفاع روح إلى روح ، واندفاع جسد إلى جسد .. وخلاصة فلسفته فيه أنه قضاء وقدر ، فهو يرى أننا لا نحب حين نختار ، ولا نختار حين نحب ، وأننا مع القضاء والقدر حين نولد وحين نحب وحين نموت .. لأن الحياة وفقد الحياة هي أطوار العمر التي تملك الإنسان ، ولا يملّكها الإنسان ..

كيف تنبأ بالموت؟!

أما الموت فقد كان « العقاد » يكرهه ولا يخشاه . ولم يكن يطمع أن تدوم حياته إلى سن المائة . فقد توفيت والدته في سن الثمانين ووالده دون هذا السن ، وقد تنبأ بالموت في حديث بيني وبينه فقال : « إن الابن يأخذ متوسط عمرى أبيه وأمه . وقد تنتهي حياتى قبل الثمانين » !

ثم ابتسم وقال :

« إذا فاجئني الموت في وقت من الأوقات ، فإنني أصافحه ولا أخافه ، بقدر ما أخاف المرض ، فالمرض ألم مذل لا يحتمل ، لكن الموت ينهي كل شيء ! ..

نعم ؛ إن الخوف من الموت غريزة حية لا عيب فيها ، وإنما العيب أن يتغلب هذا الخوف علينا ، ولا نتغلب عليه كلما وجب أن نغلبه في موقف الصراع بين الغريزة والضمير ، فإن الخضوع له في هذه الحالة ضعف ، والضعف شر من الموت » ثم تمثل بأبيات شعر يقول فيها :

سَتَغْرُبُ شَمْسُ هَذَا الْعُمْرِ يَوْمًا
فَهَلْ يَسْرِي إِلَى قَبْرِي خَيَالًا
خَلَقْتُ اسْمِي عَلَى الدِّينِي وَرَسْمِي
وَيَغْمُضُ ناظرِي لِلْحَمَامِ
مِنَ الدِّينِيَا بِأَبْنَاءِ الْأَنَامِ
فَمَا أَبْكَى رَحِيلِي أَوْ مَقَامِ

* * *

ولما قلت له يوماً :

إن بناء جسمك وما أراه من قوة صحتك ومثابرتك على العمل في الشيخوخة ، يبشر بأنك ستصل إلى سن المائة وتزيد ، فماذا يكون شعورك وقتئذ ، وما هو الكتاب الذي تؤلفه ؟

فأجاب :

« إنني لا أتمنى أن أصل إلى سن المائة كما يتمناه غيري ، وإنما أتمنى أن تنتهي حياتي عندما تنتهي قدرتي على الكتابة والقراءة ، ولو كان ذلك غداً » .

« أما شعوري لو بلغت « المائة » إذا كنت بصحة جيدة ، فهو نفس شعوري الآن . ولكن إذا ضعفت صحتي وأضحمحت قوتي ، فإذا شعوري يومئذ سيكون كشبور كل إنسان بالضعف والتعب ، وهو شعور مؤلم غير مرير ..

وإذا توافرت لي الصحة ولم تصمحل القوة ، وبلغت سن المائة ، فإني أؤلف كتاباً أسميه : « تجارب مائة عام » أو « قرن يتكلّم » .. وأعهد بنشره إليك ..

* * *

وقد كان من أماناته الكبرى أن يختتم حياته بتأليف كتاب عن « الإمام الغزالى وفلسفته » وعنه مكتبة خاصة عنه بالعربية والإنجليزية . وكان يقرأ له وعنده في الثلاثاء سنة الأخيرة قراءة دقيقة ليضع هذا الكتاب ، فقد كان يعده أول فيلسوف ومفكر إسلامى . ويرى أنه قدوة للفلاسفة ، ومثال من التفكير الرفيع ، تتعلم منه أن الفلسفة لا تتم بغير قسط من التصوف ، لأن التصوف قدرة على انتزاع النفس من المؤلف . وهذه قدرة لا يستغني عنها الفيلسوف المفكر ، ولا الفيلسوف الحكمى .. !

طاهر الطناحي

الفصل الأول

--- آن ---

الكاتب الأمريكي «وندل هولمز» يقول : «إن الإنسان - كل إنسان بلا استثناء - إنما هو ثلاثة أشخاص في صورة واحدة .

الإنسان كما خلقه الله .. الإنسان كما يراه الناس .. والإنسان كما يرى هو نفسه ..

فمن من هؤلاء الأشخاص الثلاثة هو المقصود بعباس العقاد ؟ ..

ومن قال إنني أعرف هؤلاء الأشخاص الثلاثة معرفة تحقيق أو معرفة تقريب؟ ..

من قال إنني أعرف عباس العقاد كما خلقه الله ؟

ومن قال إنني أعرف عباس العقاد كما يراه الناس ؟

ومن قال إنني أعرف عباس العقاد كما أراه ، وأنا لا أراه على حال واحدة كل يوم؟

هذه هي الصعوبة الأولى ، ولا أتحدث عن غيرها من الصعوبات .

ولكنني أضربها مثلاً واحداً من أمثلة كثيرة . ثم أختصر الطريق وأنقل إلى الموضوع من قريب .

إنني لن أتحدث بطبيعة الحال عن «عباس العقاد» كما خلقه الله .

فالله جل جلاله هو الأولى بأن يسأل عن ذلك ..

ولن أتحدث بطبيعة الحال عن «عباس العقاد» كما يراه الناس فالناس هم المسؤولون عن ذلك .

ولكن سأتحدث عن عباس العقاد كما أراه .

و Abbas العقاد كما أراه - بالاختصار - هو شيء آخر مختلف كل الاختلاف عن الشخص الذي يراه الكثيرون من الأصدقاء أو من الأعداء .. هو شخص استغرقه كل الاستغراب حين اسمعهم يصفونه أو يتحدثون عنه ، حتى ليخطر لى في أكثر الأحيان أنهم يتحدثون عن إنسان لم أعرفه قط ولم ألتقط به مرة في مكان .

فأوضحك بيني وبين نفسي وأقول : ويل التاريخ من المؤرخين ..

أقول ، ويل التاريخ من المؤرخين لأن الناس لا يعرفون من يعيش بينهم في قيد الحياة ومن يسمعهم ويسمعونه ويكتب لهم ويقرأونه ، فكيف يعرفون من تقدم به الزمن ألف سنة ، ولم ينظر إليهم قط ولم ينظروا إليه ؟ ..

فعباس العقاد هو في رأي بعض الناس مع اختلاف التعبير وحسن النية ، هو رجل مفرط الكبراء .. ورجل مفرط القسوة والجفاء ..

ورجل يعيش بين الكتب ، ولا يباشر الحياة كما يباشرها سائر الناس .

ورجل يملكه سلطان المنطق والتفكير ولا سلطان للقلب ولا للعاطفة عليه .

ورجل يصبح ويمسي في الجد الصارم لا تفتر شفتاه بضحكه واحدة إلا بعد استغفار واغتصاب .

هذا هو عباس العقاد في رأي بعض الناس .

وأقسم بكل ما يقسم به الرجل الشريف أن عباس العقاد هذا رجل لا أعرفه ، ولا رأيته ، ولا عشت معه لحظة واحدة ، ولا التقيت به في طريق .. ونقيس ذلك هو الأقرب إلى الصواب .

نقيس ذلك هو رجل مفرط في التواضع ورجل مفرط في الرحمة واللين ورجل لا يعيش بين الكتب إلا لأنه يباشر الحياة ؛ رجل لا يفلت لحظة واحدة في ليته ونهاره من سلطان القلب والعاطفة ورجل وسع شدقاوه من الضحك ما يملأ مسرحاً من مسارح الفكاهة في روايات شارلى شابلن جميما ..

هذا الرجل هو نقيس ذاك ..

ولا أقول إن هذا الرجل هو عباس العقاد بالضبط والتحقيق ، ولكنني أريد أن أقول إنهم لو وصفوه بهذه الصفة ، لكانوا أقرب جداً إلى الصواب ، ولأمكنتني أن أعرفه من وصفه إذا التقى به هنا أو هناك ، خلافاً لذلك الرجل المجهول الذي لا أعرفه بحال !

مكان التواضع واللين

إنني لا أزعم أنني مفرط في التواضع .

ولمكنتني أعلم علم اليقين أنني لم أعامل إنساناً قط معاملة صغير أو حقير ، إلا أن يكون ذلك جزاء له على سوء أدب .

وأعلم علم اليقين أننى أمقت الغطرسة على خلق الله ، ولهذا أحارب كل دكتاتور بما أستطيع ولو لم تكن بينى وبينه صلة مكان أو زمان كما حاربت هتلر ونابليون وأخرين .

وأنا لا أزعم أننى مفرط في الرقة واللين .

ولكننى أعلم علم اليقين أننى أجاذب بحياتى ، ولا أصبر على منظر مؤلم أو على شکایة ضعيف .

فعندي كنت في سجن مصر رجوت الطبيب أن يختار لي وقتاً للرياضة غير الوقت الذي تنصب فيه آلة الجلد لعقوبة المسجونين .

فدهش الطبيب ، ظن أنه يسمع نادرة من نوادر الأعاجيب ..

وقال لي في صراحة : ما كنت أتخيل أن أسمع مثل هذه الطلب من العقاد «الجبار» .

وأصبت في السجن بنزلة حنجرية حادة حرمتني النوم وسلبتني الراحة ، ولم تزل هذه النزلة الحنجرية عندي مقدمة لأخطر الأمراض كما حدث قبل نيف وعشرين سنة ونجوت منها يومئذ بمعجزة من معجزات العلاج والعناية وتبدل الهواء ، ومن أجل هذه النزلة الحنجرية أليس في الشتاء تلك الكوفية التي علقتها الصحف الفكاهية في رقبتي لا تحل عنها في صيف أو شتاء ، ولا في صبح أو مساء ، حتى أوشكت أن تكون من علامات تحقيق الشخصية قبل الملامح والأعضاء .

وكانت زنزانة السجن التي اعتقلت بها على مقربة من أحواض الماء شديدة الرطوبة والبرودة ، يحيط بها الأسفلت من أسفلها إلى أعلىها ، ولا تدخلها الشمس إلا بإشارة من بعيد .

فعرض المحامون أمرى على المحكمة وحوّلته المحكمة إلى النيابة ، ودرسته النيابة مع وزارة الداخلية ومصلحة السجون ، وتقرر بعد البحث الطويل نقله إلى المستشفى وإقامته هناك في غرفة عالية تشرف على ميدان واسع وحديقة فسيحة ، وتتصل بالداخلين والخارجين أثناء النهار ، ويتردد عليها الأطباء والموكلون بالخدمة الطبية من الصباح إلى الصباح .

فريج من الله ، وأمنية عسيرة التحقيق تمهدت بعد جهد جهيد !

فصعدت إلى المستشفى وأنا أعتقد أن الخطر الأكبر قد زال أو هان ، ولكن لم ألبث هناك ساعة حتى شعرت أن الزنزانة المغلقة أهون ألف مرة من هذا المكان الذي

أصغى فيه إلى أنين المرضى وشكاية المصابين والموجعين ، ثم غالبت نفسي ساعة فساعة ، حتى بلغت الطاقة مداها ولما يطلع الفجر من الليلة الأولى ، وإذا بي أنهض من سريري وأنادي حارس الليل ليوقظ ضابط السجن ويعود بي إلى الزنزانة من حيث أتيت ، ولتفعل النزلة الحنجرية وعواقبها الوخيمة ما بدا لها أن تفعل .

أنا أعلم من نفسي هذا ، وأعلم أن الرحمة المفرطة باب من أبواب العذاب في حياتي منذ النشأة الأولى ، وأعلم ما أعلم عن تلك العواطف التي يتحدث بها بعض الفضوليين ولا يعرفون منها غير التصنع والتمثيل وتدميغاً لعيون وتبليل المناديل ، ثم أسمع جيلاً من هذه الجبال البشرية يذكر الرحمة وما إليها ، كأنها حيلة لا يزين الله بها إلا أمثاله ، ولا يغسل الله منها إلا أمثال عباس العقاد ... فماذا يكون حكمي بعد هذا على آراء الناس في الناس؟ ..

لن يكون إلا قلة اعتداد برأي من الآراء يحسبونها الكبriاء وليس هى الكبriاء ، ولكنها موقف من لا يبالى أن يعتقد من يشاء ما يشاء .

كرامة الأدب والأدباء

إلا أن الناس معذورون بعض العذر في شبهة الكبriاء هذه ، وإن كانوا لا يطالبون أنفسهم بأقل مجهد في تصحيح هذه الشبهات .

فقد أراد الله - وله الحمد - أن يخلقني على الرغم مني متحدياً «تحدياً خصوصياً» لكل تقليد من التقاليد السخيفة التي كانت ولا تزال شائعة في البلاد المصرية والبلاد الشرقية على العموم .

أنا أطلب الكرامة من طريق الأدب والثقافة ، وأعتبر الأدب والثقافة رسالة مقدسة يحق لصاحبيها أن يصان شرفه بين أعلى الطبقات الاجتماعية ، بل بين أرفع المقامات الإنسانية بغير استثناء .

أفى ذلك عار؟ أفى ذلك موجب للحقد والضغينة؟ ..

كلا! .. بل فيه مأثرة وفيه فضل جديد على عالم الأدب في الشرق المسكين الذي كان أدباءه لا يرتفعون عن منزلة المضحكيين والنندماء المهرجين على موائد الأغنياء والرؤساء ، فإذا ارتفعوا عن هذه المنزلة قليلاً أو كثيراً ، فهم لا يرتفعون بفضل الأدب والفن ، بل بفضل وظيفة يعتصمون بها أو شهادة علمية ينتحرون

سمعتها ، أو ثروة يحسبون من أهلها ، ثم يحترمون لأجلها على الرغم من كونهم كتاباً وشعراء !

وها هو ذا إنسان يعرف حقه في الكرامة ولا يعرف حقاً لتلك الأصنام الاجتماعية تفرضه عليه .

صنم المال ، وصنم العناوين العلمية والشارات الرسمية ، وصنم المناصب وصنم الألقاب ، كيف تتجاهلها يا هذا وكيف تطلب الكرامة لنفسك من غير طريقها ؟

إن الأصنام لا تقنع بما دون العبادة ، فكيف بالإعراض وقلة المبالاة ؟ وكيف بالتحطيم والكفران ؟

جهنم الأرباب جميعاً قليلة - قليلة جداً - في جانب هذا الذنب العظيم ..
وإذا بهذه الأصنام جميعاً تدعوني إلى دفع الجزية المفروضة عن يد ونحن صاغرون ، وإذا بها جميعاً تعود خالية الوفاض غير محفول بما تعمل وما تقول .

قالت : أتريد لك حقاً وكرامة ؟

قلت : نعم ...

قلت : كلا .. سأكون غنياً عن الغنى ، ولـي الكرامة التي أريدها ..

قالت : إذن كن صاحب لقب وعنوان

قلت : كلا .. سيعرفني العالم والأديب ، وسأصعد في هذه السماء صعوداً حيث تزحف الألقاب والعناوين .

قالت : إذن كن صاحب منصب ، كن صاحب أحساب وأنساب ، كن شيئاً في طريقى ولـك المساعدة مني بعد ذلك في كل طريق .

قلت : سأمضي في كل طريق أريد المضى فيه ، ولا حاجة بي إليك .

ثم دارت الأيام ، والتقيت بالأصنام .

قالت في شماتة وهي تتساءل : كيف الحال ؟ ..

قلت : عال .. أنت تعلمين على الأقل أنـى لم أدفع الجزية المفروضة ، وأنت تعلمين على الأقل أنـى لم أخسر شيئاً يعنيـنى .

قالت : نعم .. ولكنـك تعـبت كثيراً وخرجـت آخرـ المطاف بـسمـعةـ الكـبرـيـاءـ والـجـفـاءـ ! ..

قلت : يغفر الله لك أيتها الأصنام ! .. أتعنن السمعة على الألسنة والإشاعة في المجالس وسوء القالة بين الفارغين ؟ .. هذه أيضاً صنم من الأصنام التي لا أعرف لها جزية تؤدي ، فاكتبى جزيتها وجزيتك في حساب واحد ، وانتظرى بالأجل إلى يوم الدين !

ولا عجب أن تغضب الأصنام غضبتها التي تضيق بها اللحوم والدماء ، ولكن العجب أن يغضب عبادها المساكين الذين لا يظفرون منها بطائل ، وأعجب منه أن يغضب عبادها الحانقون عليها المتلهفون على الخلاص منها ، لأنهم نسوا هذا وأصبحوا يذكرون أن واحداً أفلح حيث يفشلون ، فلماذا تمرد فاستطاع ، وهم يتمردون فلا يستطيعون ؟

ذلك هو الثأر الذي لا يغفر !

وذلك وأمثاله هو الأصل الأصيل في شبهة الكبراء ، أسوقه على هذا النحو الذي لا يشبه الاعتذار ، وأفسره بهذا التفسير الذي لا يتضمنه طلب البراءة .. لأنني أكره الاعتذار عن الحسنات حينما يتفاخر الناس بالسيئات والوصمات ، وبحسبي أنني نازل عن حقى في الثناء ، لما صنعت من جميل لكرامة الأدب والأدباء .

العزلة والانطواء

وعذر آخر للناس - وإن كان لا ذنب لي فيه - أن يذهب بعضهم من النقىض إلى النقىض فيفهم رجل يعيش بينهم على قيد الحياة .

عذر هؤلاء أنني مطبوع على العزلة والانطواء على النفس في أحسن الأحوال وأسوئها على السواء .

ولا حيلة لي في ذلك لأن أسبابه عميقه يرجع بعضها إلى الوراثة وبعضها إلى الطفولة الباكرة ، وبعضها إلى تجارب الدنيا التي لا تنسى .

ورثت حب العزلة من كلا الآبوين .

وعرض لي حادث دون السابعة من عمري أتمثله الآن كأنني حضرته منذ يومين وهو حادث الوباء الذي كان معروفاً باسم الهيبة أو الهواء الأصفر في أسوان . أقفرت المدينة شيئاً فشيئاً من سكانها .

مات كثيرون منهم ورحل آخرون ، وخلال الشارع الذى أقيم فيه فأغلقت الحكومة أبوابه ولطختها بالعلامة الحمراء التى معناها أن هذا البيت قد زاره الوباء .

ومن لحظة إلى لحظة يتراءى فى الشارع نعش عار يمشى من ورائه رجلان أو ثلاثة ، وقد يكون بينهم وبين حمل هذا النعش مسافة الطريق ، وتوصيلة أخرى من توصيلاته التى لا تقطع طول النهار .

وبيتنا وحده فيه إصابتان ..

وليس فى الشارع ، إذا خرجت إليه ، طفل واحد يحوم بين تلك البيوت المغلقة بالعلامة الحمراء .

وإذا نزلت إلى شارع النيل حيث كان يطيب لى التجوال على غير هدى ، وجدته مقفراً من الناس ، ومن حين إلى حين تعبّر في النيل سفينة شاردة لا تجترئ على ملامسة الشاطئ خوفاً من العدوى . ويصبح منها صائع كلما لمع على المورد زميلاً يسأل عن الخبر :

- كم المحصول اليوم ؟

فيجيبه : مصرى كامل .. أو مجيري .. أو بنتو .. أو نصف جنيه فقط فى أسلم الأيام .

ما هذا المحصول ؟ .. وما هذه العملة التى يحسبونه بها ؟ ..

إنها تهكم المصائب الوجيع !

إنه عدد الموتى فى ذلك اليوم : جنيه مصرى كامل أى مائة ميت ، ونصف جنيه أى خمسون ، ولم أسمع قط ذكر الريال إلا فى ختام الموسم الشنيد : موسم الحصاد !

صورة لا أنساها ، ولا ألتفت إليها إلا تمثلت وحشتها وبلوها ، وإليها ولا شك يرجع شيء من هذه الوحشة التى تحب إلى الخلوة والانفراد ..

وتزيد عليها تجارب الدنيا التى لا تنسى وخلاصتها أن العواطف المزيفة أرُوج فى هذه الدنيا من العواطف الصحيحة . فلا أسف إذن على رأى الناس فى الناس ، ولا اعتداد إذن بما يقال ومن يقول ...

الصداقة والعداوة

ما أسلفته لا أذكره على أنه فضائل محمودة ، ولا على أنه رذائل مذمومة ..
ولكنه صفات حقيقة وكفى .

ومن هذه الصفات الحقيقة التي أعهدها في نفسي أنني لا أميل إلى التوسط
في الصداقة ولا في العداوة . فلا أعرف إنساناً نصفه صديق ونصفه عدو ، وإنما
أعرفه صديقاً مائة في المائة أو عدواً مائة في المائة ، ولا تهمني مع ذلك عداوته
إذا حفظها لنفسه .. ولكنني إذا تعقبت بها وأبى إلا أن يكشف عنها فهي الحرب
التي لا توسط فيها كذلك : إما كاسر وإما مكسور إلا أن يريحني احتقاره من عناء
هذا وذاك ..

ومن هذه الصفات ، إنني أمام الألفة أو العادة ضعيف لا أقدم على التبديل إلا
بعد عناء طويل .

ومثل من أمثلة ذلك أن البيت الذي أسكنه قد تغير له أربعة من الملاك ، وأنا
الساكن فيه لا أتغير .

وإنني في مصر الجديدة ، ودكان حلاق في شارع محمد على إلى الآن ، لأنني
منذ عشرين سنة كنت أسكن هناك .

وإنني كنت أشكو مرض الكلية قبل نيف وعشرين سنة ، فأشار على الطبيب
باتباع نظام مخصوص في الطعام يناسب الحالة التي أشكوها ، وقد زالت تلك
الحالة بعد سنة واحدة ، ولكنني لا أزال إلى الساعة أجري على النظام الذي أفتته
من جرائها ، ولا أستطيع أن أعود إلى كل طعام !

ومن هذه الصفات أن الغلبون عندي قوية السلطان ، وعلة ذلك عندي معالجة
التفكير المنطقي في كل شيء ، فليس أسهل في المنطق من فتح أبواب
الاحتمالات . أما إغلاقها - أو الجزم بنفيها - فلا يكون إلا ببرهان قاطع ،
والبراهين القاطعة قليل .

ومن هذه الصفات أن التجديد والمحافظة عندي يلتقيان في معظم الأمور ، وعلة
ذلك على ما أعتقد أنني نشأت بأسوان ، وهي أعرق مدينة بين مدن مصر القديمة
بموروثاتها التي لا تبلى ، وهي في الوقت نفسه مدينة أوروبية في الشتاء ، أو
كانت كذلك يوم نشأت بها نشأت الأولى فأوروبا كلها كانت تتراءى هناك كل
شتاء بملاهيها وأزيائها وعاداتها ومؤلفاتها وفنونها واختلاف أقوامها .

وأنا أحب الأطفال جداً ، وكان في منزلي جماعة من الأطفال أكبرهم في السادسة من عمره ، وهم جميعاً أصدقائي ، وكثيراً ما يصعدون إلى مسكنى يسألونني ويتحدثون معى ما شاء لهم الحديث .

أنا يأسنني الفن الجميل ، حتى أنتي أبكي في مشهد عاطفى أو درامي متقن الأداء ، وأذكر أنتي بكى في أول فيلم أجنبى ناطق ، وكان يمثله الممثل القديم «آل جولسون» وكان مع «آل جولسون» طفل صغير يمثل دور الطفل الذى حرم من أمه وظل هدفاً للإهمال حتى مات .. وتأثرت من الفيلم وبكى ، ولم أستطع النوم في تلك الليلة ، إلا بعد أن غسلت رأسي بالماء الساخن ثلاث مرات متتالية .. وأنا أستعين بغسيل الرأس بالماء الساخن على إبعاد الأفكار السوداء عنى عندما تتملکنى .

ومن صفاتي التي لا يعرفها الناس ، أنتي إذا عممت بالتسامح لا أبدأ بالعدوان أبداً ، وإذا هاجمنى أحد فلا أرحمه ، وقد قالت سارة عنى ذات مرة «إن من يظهر طرف السلاح للعقاد يا قاتل يا مقتول !» .

ولدى صفة عجيبة أعتز بها أيما اعتزاز ، وهى أن لدى حاسة سادسة لا تخطئ ، ففى أحد الأيام - كنت بأسوان - سألت أخي فجأة عن صديق لى لم أكن قد رأيته منذ مدة ، وفي المساء جاءتني برقية تتعى ذلك الصديق ، وقد تبيّنت بعد ذلك أنه توفي في اللحظة نفسها التي تذكرة فيها ، وقد تكررت مثل تلك الحوادث كثيراً حتى عرفت عنى أصدقائي هذه الصفة ..

وأنا وفي جداً لأصدقائي من الأحياء والأموات ، كما أنتي وفي لذكرياتى ، وأعتز بها كل الاعتزاز ، وقد كنت شديد التعلق بوالدى ، وعندما كنت أزور أسوان كان أول ما أفعله هو أن أنزل من القطار وأهرع إلى غرفة والدى ، وألتقص بها .. فلما توفيت إلى رحمة الله لم أدخل غرفتها حتى الآن ، كيلا أراها فارغة منها ، حتى الشوارع التي كنت أغشاها مع صديقى المازنى - رحمة الله - لم أستطع أن أغشاها بعد مماته ، وصرت أتجنب ما يذكرنى بفجيعتى فيهما حتى لا أحزن من جديد .

ولدت في أسوان

ولدت في أسوان يوم ٢٨ يونيو سنة ١٨٨٩ ، ولـى إخوة أشقاء وغير أشقاء فقد كان والدى متزوجاً قبل والدتها ، ثم ماتت زوجته وبعد مماتها تزوج أمي . . . وكبير أشقاءى أحمد ، وكان يعمل سكرتيراً لمحكمة أسوان ، وهو الآن على المعاش ، وعبد اللطيف وهو تاجر ، ولـى شقيقة واحدة تحبها جميعاً وهـى متزوجة تعـيش فى القاهرة إلى جوارى ، أما إخواتي غير الأشقاء ، فـهم جميعاً أكبر منى سناً ، وبعـضـهم يـعيشـ فىـ القـاهـرةـ ،ـ والـبعـضـ الآـخـرـ بـأـسـوانـ .

بدأت حياتى الأدبـيةـ وأـنـاـ فـىـ التـاسـعـةـ مـنـ عـمـرـىـ ،ـ وـكـانـتـ أـوـلـ قـصـيـدةـ نـظـمـتـهـاـ فـىـ حـيـاتـىـ هـىـ قـصـيـدةـ مدـحـ العـلـومـ وـقـلـتـ فـيـهـاـ .

عِلْمُ الْحَسَابِ لِهِ مَزَايَا جَمَّةٌ
وَالنَّحُوُّ قَنْطَرَةُ الْعُلُومِ جَمِيعُهَا
وَكَذَلِكَ الْجُغْرَافِيَا هَادِيَةُ الْفَتَنِ
إِذَا عَرَفْتَ لِسَانَ قَوْمٍ يَا فَتَنِ

وَبِهِ يَزِيدُ الْمَرءُ فِي الْعِرْفَانِ
وَمُبَيِّنُ غَامِضَهَا وَخَيْرُ لِسَانِ
لِمَسَالِكِ الْبَلْدَانِ وَالْوَدَيَانِ
نَلْتَ الْأَمَانَ بِهِ وَأَيَّ بَيَانِ

وتدرجت في المدارس ، ثم جئت إلى القاهرة للكتشف العلمي عندما التحقت بإحدى وظائف الحكومة عام ١٩٠٤ ، وكان عمري إذ ذاك ١٥ سنة ، وكانت وظيفتي في مديرية قنا ، ولم تكن اللوائح تسمح بتشبيتي ، لأننى لم أكن قد بلغت بعد سن الرشد ثم نقلت إلى الزقازيق ، ثم كنت أول من كتب في الصحف يشكوا الظلم الواقع على الموظفين ، ثم سئمت وظائف الحكومة ، وجئت إلى القاهرة ، وعملت بالصحافة ، وأخيراً عينت عضواً بمجلس الفنون والأداب .. كما عينت بالمجمع اللغوى .

••• أَبْيَنْ •••

هل يعرف أحد من أين لى باسم « العقاد » ؟
لا أحد طبعاً .. وهناك غير هذا أشياء كثيرة لا يعرفها الناس عنى ، أشياء قد
تبدو غريبة ، لكننى أقولها فى هذا المقام .

أما اسم « العقاد » فاذكر أن جدى لأبى كان من أبناء دمياط ، وكان يستغل
بصناعة الحرير ، ثم اقتضت مطالب العمل أن ينتقل إلى المحللة الكبرى حتى
يتخذها مركزاً لنشاطه ، ومن هنا أطلق عليه الناس اسم « العقاد » أى الذى
« يعقد » الحرير .. والتصقت بنا ، وأصبحت علمًا علينا ..

* * *

قد تعجب إذ تعلم أن جدّنا الأكبر من دمياط ، مع أن الجميع يعرفون أننى من
أسوان ، وأن عدداً من أبناء أسرتنا لا يزال يعيش فى أسوان حتى اليوم .
وإنى أتمثل « أبى » الآن فى الصورة التى رأيتها ألفى مرة بل أكثر من ألفى مرة ،
لأننى كنت أراها كل يوم منذ فتحت عينى على الدنيا ، إلى أن فارقت بلدتى بعد
اشغالى بالوظائف الحكومية ..

وتلك هى صورته على مصلاه ، يؤدى صلاة الصبح ويجلس على سجادة
الصلاة ، من مطلع الفجر إلى ما قبل الإفطار ، ليتلو سوراً خاصة من القرآن الكريم
ويعقبها بتلاوة الدعوات .

وكان يؤدى الصلوات الخمس فى أوقاتها ، ولكن جلسته فى الصباح الباكر هى
التي انطبعت فى ذاكرتى إلى هذه الساعة ، لأنها كانت أول ما استقبله من الدنيا
كل صباح .

ومن أجل الصلاة حدث بيني وبينه خلاف يوصف بالعصيان .. فإنه - رحمة
الله - كان يدين بالجحد فى الواجب ، أو الشدة فى الجد ، وكان يرى للطفل ما يراه
للشيخ ، إذا كان الأمر فريضة أو عمل محمود أو عرف مأثور ..

من ذلك أنه كان يراني فيما دون الثامنة من عمرى أجلس فى المنزل بين
قريباتى وخالاتى وجارات المنزل ، فيصيغ بي مستغضاً :

- عباس .. ماذا تصنع هنا بين النساء ؟ .. تعال معى فاجلس بين أمثالك ..
ومن هم أمثالى ؟ .. شيوخ فيما بين الأربعين والسبعين ، كانوا يسمرون معه فى
«المندبة» ويقضون الوقت فى أحاديث الشيوخ عن السياسة تارة وعن قضايا
الأسر الكبيرة تارة أخرى ، وقلما يمزحون أو يتفكرون إلا ثابوا إلى وقارهم
كالمعتذرين .. وكانت السهرة تنقضى على أحسن حال إذا حضرها شيخ متخلق
معلوم فيه بعض الغفلة .. فيناوشونه بالأسئلة المحرجة والدعابات المتناقضة ..
ثم يعودون إلى ما كانوا فيه .

* * *

وقد أفادتني هذه الجلسات كل فائدة تأتى من التوقر قبل سن الوقار ، وقلما يخلو
من بعض الأضرار .

ولكن فائدتها الكبرى كانت ولا ريب معرفتى بالقاضى أحمد الجداوى رحمه
الله . فإنه كان من أدباء الفقهاء الذين عاصروا السيد جمال الدين ، وأخذوا عنه
دروس الحكمة والغيرة القومية ، وكان قوى الذاكرة واسع المحفوظ من المنظور
والمنتشر ، يستظهر مقامات الحريرى وبديع الزمان ودواوين الشعراء الفحول ،
ويطأح خمسة أو ستة من الأدباء فى وقت واحد فيسكنتهم دائمًا ولا يسكتونه مرة
واحدة . فكانت معرفتى به إحدى الدواعى التى حفزتني للمطالعة والإقبال على
الكتب والدواوين .

ومن أمثلة الجد الشديد فى السيد الوالد - رحمه الله - أنه كان ينظر إلى
«الصور» كأنها ألاعيب فارغة لا تليق بالعقلاء . فلم يتخذ له صورة قط ، ولم
يوافقنى على شراء صورة من صور الفصول الدراسية التى كانت ترسم للمدرسة كل
عام .

على هذه السنة من الجد الشديد أراد - رحمه الله - أن أواكب على الصلاة فى
أوقاتها قبل العاشرة من عمرى . فكان أثقل ما أعانيه فى ذلك يقظة الفجر فى
الشتاء ، وهو الوقت الذى يزین فيه النوم على الأطفال ، فلا يستيقظون إلا بعد
جهد عنيف .

وصبرت على هذا الجهد العنيف مرتين أو ثلاثة مرات أو أربع مرات ، ثم
تمردت دفعة واحدة ، وقلت لمن جاء يوقظنى : «اذهب عنى . فلست
بالمستيقظ .. ولست بالمصلى اليوم ! » .

وسمع أبي ما قلت فصاح بي : « ماذ تقول ؟ .. أتقول أنك لا تصلى ؟ » ووثب إلى عصاه ! ..

فذهب بي الإصرار مذهبة وقلت : « نعم ! » .

فصمت ولم يزد ، وأعرض عنى أيامًا لا يكلمنى حتى تناسينا هذا الخلاف ، وكنا مع ذلك نجلس إليه جمیعاً على الطعام في الصباح والمساء وأحياناً في طعام الغداء .

* * *

وموضع الشدة في هذه المسألة أننى لم أكن أنفر من الصلاة ولا من الفرائض الدينية ، بل كنت أخف إلى المسجد بعض الأوقات ، وأنشد على المئذنة أناشيد الجمعة الأولى ، وطللت أنسادها بعد ذلك وأنظمها ، ولا أذكر للمؤذن أننى نظمتها لثلا يستصغرها ويرفض إنشادها ، ولكن الشدة صدمتني لأنها كلفتني ما لا أطيق قبل الأوان ، وجاءتنى في معرض الإكراه والإلزام ، وهي عبرة تساق للاستفادة منها في هذا المقام .

ولأزال أذكر ملامح السرور التي رأيتها على وجه أبي حين أنسدته قصيدة من تلك القصائد التي كنت أنظمها في مدح النبي عليه السلام . فإنه تهلل واستبشر ، ولعله تهلل واستبشر لنزعته الدينية قبل براعته في نظم الشعر أو تجويد الكتابة ، ولم يلاحظ علىَّ أننى ختمت القصيدة بشطر أقول فيه على ما ذكر مشيراً إلى نفسي « عباس من هو في الأشعار مدراراً » ..

فقال : « إن الأباء يحترمون النبي قد ختم مدائحه معتذرًا عن التقصير . فافعل كما فعل ، أو فاسكت عن الاعتذار وعن الإطراء » .

* * *

وكان - رحمه الله - يحتقر المال أن يطلب به بما يسوء في القصمير ، أو يسعن إلى إنسان .

وقد كان في وسعه أن يجمع الثروة العريضة من وظيفته ، فلم يكسب منها غير مرتبه ، وما هو بالكثير .

* * *

كان أميناً « للمحفوظات » بإقليم أسوان ، وكانت أسوان خارجة من القلاقل الجسمان التي حاقت بها في حرب الدراويش . فمعظم أبنائهما الأغنياء كانوا يتجررون

في السودان فانقطعوا هناك بعد انقطاع المواصلات ، وذهبت الوثائق فلم يدر أحد ما ذهب منها وما بقى بدار المحفوظات ، وتداولت هذه المحفوظات أيد كثيرة على غير انتظام في التسليم والاستلام .. وكثير المدعون للأرض والعقارات ، اعتماداً على ضياع الوثائق ، وغياب المالكين ، وموت بعض الورثيين ، فلو شاء أبي في هذه الفترة أن يخفى ويظهر ، وأن يقبل المساومة والإغراء ، لقاسم الكثرين فيما يدعون أو فيما يملكون . ولكن أوصى هذا الباب فلم يطمع فيه طامع ، وسلم دار المحفوظات لمن بعده ، وهي مثل في الدقة والضبط وسهولة المراجعة والإحصاء .

* * *

ومن تقديراته أنه في احتقار المال الذي يكسب عن طريق الإساءة إلى الناس ، أنه زجر أخي الكبير زجراً شديداً ، حين علم أنه ينوى التبليغ عن بعض المتهمين في قضية جعلت للمبلغ فيها مكافأة قدرها خمسون جنيهًا - أو مائة جنيه - لا ذكر الآن على التحقيق .

وجلية القضية أن فتى من الشبان الورثيين بالقاهرة حضر إلى أسوان في الشتاء ومعه ألف جنيه .

وكانت أسوان مرتد السائحين والسائحات في موسم الشتاء ، وفيها من أسباب الإنفاق والمتعة مطعم لأمثال ذلك الوراث ومن يلوذون بالمبذرين والمسرفيين .

وسُرق الوراث قبل أن يستند من الألف مائة أو مائتين ، وانحصرت الشبهة في شاب موظف بالمحكمة ، كان يسكن مع أمه وأبيه في بيته لنا مجاور للبيت الذي نقيم فيه ، فراح أمه إلى جارة لها تستجهلها وتظن أنها لا تعرف ورق النقد الذي كان في الواقع غير معروف بين الناس فاستودعتها لفافة من الورق هي جملة المبلغ المسروق . ولكن المرأة أطلعت زوجها على الخبر وهو من كتاب العرائض المدربين . فعرف الورق وعرف سر القضية وأخفي كل ما وصل إليه .

* * *

مثل هذا الخبر لا يخفى بين سكان حىٌ من أحياط الريف . فعرفنا ما حدث ، وعرفنا أن الوراث سمح بالمكافأة التي ذكرناها لمن يرشد إلى السارقين ، ونظر أخي الكبير إلى القضية نظر الرجل العصرى الذي لا يبالى أن ينتفع بالمال للتبليل عن مجرمين ، ونظر أبي إليها نظرة الجيل القديم يستعيد من فضيحة الحرمات

من أجل ما يبذره وارث سفيه .. فدعا بأخي أمامنا جمیعاً وأقسم له أغلفظ الأيمان لأن أقدم على التبليغ لیبراً منه مدى الحياة ، ولا يأذن له أن يمشي في جنازته بعد الممات .

وكان يحاسب نفسه على كل حصة من المال تجتمع في حوزته وتفرض عليها الزكاة فيوزعها خفية . ويرسلني بها إلى بيوت القراء الذين لا يتعرضون للسؤال ولا يرد مسكييناً يطلب الطعام من المساكين الذين يتربدون على الأبواب .

وكان كثير العطف على ذوى قرباه ، يزورهم في المواسم والأعياد ، سواء منهم من كبر ومن صغر ، ومن استغنى ومن افتقر ، على ما كان في انتقاله إليهم من المشقة بعد أن جاوز الخمسين ، وإذا استخلص منهم واحداً لسداد رأيه وخلوص طويته ، شاوره في الجليل والدقيق من شئون الأسرة ، واعتمد على مشورته في كثير من الأحيان .

ولم يكن يغضب لشيء كما كان يغضب لكرامته وسمعة اسمه . ومن ذلك أنه كان له حمار ينتقل عليه من قرية إلى قرية ، حين كان معاوناً لإدارة . فلما استقر في المدينة باعه لبعض المكارين ^(١) . وكان الحمار مشهوراً بالسرعة وهدوء الحركة ، فكان المستأجرين يطلبونه يقولون للمكاري : «هات حمار العقاد» ثم اختصروا كعادتهم فأصبحوا يطلبونه فيقولون : «هات العقاد ! هات العقاد» فلما سمع بذلك عاد فاشتراه وقبل المغالة في ثمنه على غير حاجة إليه . واستبقاءه يعلمه ويتحمل ضجته حتى اشتراه من ينقله إلى قرية بعيدة لا يستخدمه فيها بالكراه !

* * *

ولم يكن مكثراً من القراءة في غير الكتب الدينية ، ولكنه كان يحدثنا دائمًا عن تجاربه ومصاعب حياته ، ويألى علينا أن نستمع إلى أقاوص العجائز وحكايات الأساطير .

على أنتى وجدت في دواليب «المندرة» ، بعد أن بلغت سن القراءة ، أعداداً كثيرة من مجلة «الأستاذ» لصاحبها عبد الله النديم . فاتصلت بالحركة الوطنية قبل أن تنشأ في القطر صحيفة من صحفها الحديثة .

وجملة ما أذكره لذلك الأب الكريم ، أنتى مدین له بالكثير ، وأنتى لم أرث منه مالاً يغنيني .. ولكنني استفدت منه ما لا أقدر به مال ..

(١) المكارين جمع مكاري وهو العربي .

أَنْسٌ

في سنة ١٩٣٠ ذهبنا إلى الصعيد في رحلة انتخابية ، وكان النقراشي رحمة الله قائداً « التجريدة » كما سميّناها يومذاك ، لأن النقراشي كان كعادته يسيراً في ترتيب أعمالها وتنظيم مواعيدها على خطة عسكرية لا تختل قيد شعرة ، وكان نظامها يستلزم في بعض الأيام أن نستيقظ قبل الفجر لإدراك موعد القطار ، فكان القائد اليقظ يسبقنا إلى البكور ولا تمضي دقائق معدودات حتى تصبح التجريدة كلها على استعداد .

ونزلنا سوهاج فاسترحنا بمنزل الأستاذ محمد حسن المحامى ، وجاءنى الأستاذ يقول : «هل يتسع الوقت للقاء خالك ؟ فالتفت إلى النقراشى أسأله ، فقال : «نعم .. وزيادة ». .

三

ثم عاد الأستاذ صاحب الدار يقول «إن الزوارق حاضرة» لأننا كنا نتمنى أن نعبر النيل إلى أخميم ونعود منها قبل إطباق الظلام ، فسألته النقراشي : «أولسنا منتظرين حتى يحضر حال العقاد؟» .

قال الأستاذ محمد حسن : «ها هو ذا قد حضر ، ولا يزال حاضرًا ، وإن شاء عبر النيل معنا » .

والتفت النقراشى إلى جانبي فرأى شيخاً أبيض الوجه ، أميل إلى الشقرة ، وتوليت التعارف بينهما فحياة النقراشى وهو يقول ضاحكاً : « عجبًا .. لقد كنت أقرأ في الكشكول والصحف الشتامة عن « بخيتة السودانية » أم عباس العقاد ، وكانت أحسي بهم يجدلون فيما يكتبون ، فخطر لى أننى أنتظر رجلاً أسود قريباً من السوداد حين جلسنا ننتظر خالك .. أما أن يكون رجلاً أشقر له بقايا شعر أصفر ، فهذا مالم يخطر ببال ». .

وسألني مازحاً : «لماذا لم تكذب الخبر» .

قلت : «إننى لم أكذب أخباراً أكذب من هذه ، فما بالى أكذب نسبتى إلى أم سودانية ؟ ليس فى الأمر ما يوجب البراءة منه والاهتمام بتكتذيبه .. فكم أنجبت السودانيات من رجال يفخرون بالأمهات » .

لقد كانت أسرة «أمى» من أبويها جمِيعاً كردية قريبه عهد بالقدوم من ديار بكر ، وقد رأيت أحدهم لا تميّزه من أمم الشمال في لونه وقامته ، وقد بقى بعضهم إلى أيام طفولتنا نعاكسه حين ندعوه إلى أكلة «ملوحة» أو «ملوخية» ، لأنهم لم يتعودوا أكلها ، فكنت أقرأ الأكذوبة عن «بخيطة السودانية» ، وقد وقر في نفسي أنها أبعد من أن تصدق ، واقترن هذه الأكذوبة بأكذوبة أخرى في ذلك الحين تروي عنى أننى أهمل زوجتى وأتركها تتسلّك في الطرق ، ولم تكن لي زوجة فقط حتى تتسلّك في طريق أو في بيت .. فلماذا أحفل بما يقال ، وكله من هذا اللغو المحال ؟ ..

ولكن هل كانت حكاية «السودانية» كذباً محضًا من الألف إلى الياء ؟ .. كلا .. وبالعجب ، فإن أجداد أمى جمِيعاً قد تزوجوا في السودان ، وكان جدتها لأبيها وجدها لأمها في الفرقة الكردية التي توجهت إلى السودان بعد حادثة إسماعيل بن محمد على الكبير ، وهناك عاش عمر أغاث الشريف قبل قدوته إلى أسوان ، وهو جد أمى لأبيها ، وأبوها هو محمد أغاث الشريف الذي اختار «أطيان» المعاش في قرية من قرى الإقليم ..

الذى يتذكرة كبراء السن الأسوانيون عن عمر أغاث الشريف أنه كان رجلاً شديداً التقوى ، شديد القوة البدنية ، يدرّب أبناءه على الرياضة العسكرية كأنهم على الدوام في خدمة الميدان ..

ولد له محمد وعثمان ومصطفى وحورية وفاطمة ، وخطبت حورية وفاطمة فأراد أن يحتفل بزواجهما معاً ، ثم علم أن خطيب فاطمة لا يصلى ، فأبطل الخطبة في اللحظة الأخيرة ، وقال للوسطاء الذين حاولوا أن يصلحوا الأمر : إنني لا أزوج ابنتي لتارك صلاة ولا لمحدث نعمة الله ...

وشاعت حوادث «العبد» قاطع الطريق في الصحراء وخافه الجنود وهابه تجار القوافل ، فقال عمر لأصغر أبنائه مصطفى : أتسمع هذا وتترك ذلك العبد يعيش في الأرض فساداً ؟ .. فما انقضى أسبوع حتى عاد مصطفى بالعبد مكتوف اليدين ..

وقد مات مصطفى هذا على أثر ضربة من ضرباته أغراه بها فرط قوته ، فإنه تصدى لثور هائج فقمعه وألقاه على الأرض ، فلم تنقض أيام حتى لقى نحبه ، وقيل إنها حسد .. ولعلها كانت مزقة في داخل الجسم من ذلك الجهد العنيف ..

أما محمد أغاثا جدى لأمى فقد كانت فيه تقوى أبيه وصلابته وكثير من أنفته واعتزازه بكرامته ، وقد كان يمزج هذه الأنفة بالعمليات ولا يقتصرها على القول أو السلوك .

ذهب إلى قرية الإقليم ليختار أطياب المعاش ، فكان كلما سأله عن زراعة أرض ف قالوا له إنها عدس أو فول .. قال : لا شأن لي بها ، حسبنا من العدس والفول ما استوفيناه في السنجر ، أى الفرق العسكرية ... حتى جاء إلى أرض قيل له أنها تزرع قمحًا أو شعيرًا ،

فقال : هذه أرضى : القمح لمحمد أغاثا والشعير لحصانه ! .. واختارها مع ما بينها وبين الأطياب الأخرى من فرق في الثمن يبلغ ثلاثة أضعاف ..

ورثت أمى تقوتها وسلامة بنيتها من أبيها وجدها ، ففتحت عيني أراها وهى تصلى وتؤدى الصلاة في مواقيتها ، ولم يكن من عادة المرأة أن تصلى في شبابها ، إنما كانت النساء لا يصلين إلا عند الأربعين ..

ومما ورثته عن أبيها حب الصمت والاعتكاف .. كان الناس يحسبون هذا الصمت والاعتكاف عن كبرىء في جدى رحمه الله ، وكانوا يقولون إنها «نفحة أتراك» !

بغير تكلف ، ولم أرفى حياتى امرأة أصبر على الصمت والاعتكاف من والدتي فربما مضت ساعة وهى تستمع من جاراتها وصديقاتها وتجيبهن بالتأمين أو بالتعليق اليسير ، وربما مضت أيام وهى عاكفة على بيتها أو على حجرتها ، ولا تضيق صدرًا بالعزلة وإن طالت ، ولا تنشط لزيارة إلا من باب المجاملة ورد التحية .

ومن المصادفة اتفاق والدى ووالدتي في هذه الخصلة ، ولست أنسى فزع أديب زارنى يوماً وعلم أننى لم أبرح الدار منذ أسبوع ، فهاله الأمر كأنه سمع بخارقة من خوارق الطبيعة .. إنها وراثة من أبوين يؤكدها الزمن الذى لا تحمد فيه معاشرة أحد .. إلا من رحم الله !

وقوة الإيمان فى والدتي هى التى بنت فيها العزيمة ليلة احتضارى ..

نعم أيها القارئ الكريم ولا تعجب .. فقد احتضرت قبل نيف وثلاثين سنة ، كما تخيل عوادى فى تلك الليلة ، فإذا بالوالدة هي الإنسان الوحيد الذى يتحامل على نفسه إلى جانب سريري ليقنعني أننى بخير .. وتنطوى على ذلك ساعات

وهي على عزيمتها ، حتى جاء الطبيب أخيراً وأنبأهم أنه عارض غير ذي بال ، فإذا بالمحضر قد نجا ، وإذا بالمؤاسية قد سقطت مغمى عليها .

وكانت الوالدة لا تنكر من شئونى إلا الورق .. نعم : ما هذا الورق ؟ .. الورق الذى لا ينتهى ! ..

هذا الورق الذى لا ينتهى هو الذى يمرضنى ، وهذا الورق الذى لا ينتهى هو الذى يصرفنى عن الزواج ، وهذا الورق الذى لا ينتهى هو سبب الشهرة ... ووالدى أيها القارئ من أعداء الشهرة تتطير بها ولا تغبط بها لحظة إلا تشاء مت لحظات .

هذه الشهرة هي التى «تشيل غارتك» .. أى يجعلهم يتحدثون عنك ، وما تحدث الناس عن أحد وسلم من السنة الناس !

وقلت لها ذات يوم : «لو وجدت لي زوجة مثلك تزوجت الساعة ..» ولم أكن مجاملًا والله ولا مراوغًا . فإننى لا أنسى كمال تدبيرها لبيتها منذ صباها ، وكنا بفضل تدبيرها هذا نتفق بالجورب حتى بعد أن يرث ويبلى .. فإن يصلح عندئذ كرة محبوبة ! .. ويعنينا عن شراء الكرات التى لا تحتمل أقدامنا مثل احتمالها . ولقد توفي والدى وهى فى عنفوان شبابها ، وكان لي أخ صغير ف توفرت على تربيته وتركت شاغل غير طفلها هذا وأبنائهما الكبار .

ولقد ورثت منها كثيراً إلاقصد فى النفقه ، وتدبير المال ، وحسبى بحمد الله ما ورثت منها .

* * *

صفاء فى جو المكان قلما تشوّبه غاشية ، وامتناع فى جو الزمان قلما تخلو منه زاوية .. تنتقل فيها من عصر إلى عصر كما تنتقل فيها من حارة إلى حارة ، وترجع فى تاريخ مصر إلى أقصى الماضي فتلقى لها تاريخاً مثله !

وهي بلدة خالدة ! بل هي بلدة مخلدة ! لأن معالم الخلود فى الهياكل والتماثيل مستعارة من محاجرها ، فهى كالزمن حين تهب الخالدين مادة الخلود .. تلك هي بلدتى أسوان . ولم تكن قط شيئاً هاماً فى عصر من العصور ..

كانت على أيام الفراعنة مفتاح الجنوب ، ومثابة التجارة بين جانبى الوادى القديم . وملتقى القوافل بين جوانب الوادى جميعاً وصحراء المغرب والمشرق من البحر الأحمر إلى بحر الظلمات ، صاحبت الأرباب منذ عرف الناس الأرباب .. فأقيمت فيها الصلوات لـ إله النيل ، وأقيمت لإيزيس وأوزوريس وأقيمت « ليهوا » رب الجنود ، وتلاحت في بها أديرة الرهبان من أتباع السيد المسيح وصوماع النساك من أتباع محمد عليه السلام ..

وفد إليها « هيرودوت » و« ستراوبون » من آباء التاريخ ، وكان أبو التاريخ يقول عن كهانها : إنهم كانوا يسخرون به كما يسخر الرجل الكبير في حديثه إلى الطفل الصغير ! .. وذكرها « حزقيال » في نبوءات التوراة ، وعرفها الشاعر الآبق دعبد ، كما عرفها الشاعر رهين المحبسين أبو العلاء ..

أَسْوَانُ أَنْتَ لِأَنَّ الرَّكْبَ وَجْهُهُمْ أَسْوَانُ أَيْ عَذَابٍ دُونَ عَيْذَابٍ
وبيـنـ أـسـوـانـ وـعـيـذـابـ ،ـ كـانـ طـرـيقـ حـجـاجـ الـمـسـلـمـينـ مـنـذـ اـضـطـرـبـتـ بـلـادـ أـبـىـ العـلـاءـ بـالـفـتـنـ وـالـشـورـاتـ ،ـ وـتـحـولـ قـصـادـ بـيـتـ اللـهـ إـلـىـ هـذـاـ الطـرـيقـ .

وفيـهاـ منـ ذـكـرىـ الـعـلـمـ ،ـ كـماـ فـيـهاـ منـ ذـكـرىـ الـحـرـبـ وـالـسـيـاسـةـ ،ـ فـعـرـفـتـ فـيـهاـ أـصـدـقـ الـأـرـصادـ عـنـ مـحـيـطـ الـأـرـضـ قـبـلـ مـيـلـادـ الـمـسـيـحـ بـأـكـثـرـ مـنـ مـائـةـ سـنـةـ ..ـ كـماـ عـرـفـتـ فـيـهاـ أـصـدـقـ الـأـرـصادـ عـنـ جـرـمـ الشـمـسـ بـعـدـ الـمـسـيـحـ بـقـرـبـةـ أـلـفـ سـنـةـ ..ـ وـلـاـ تـزالـ فـيـ جـزـيرـتهاـ بـئـرـ يـدـلـونـكـ عـلـيـهاـ ،ـ وـيـقـولـونـ لـكـ أـنـهـ الـبـئـرـ الـتـيـ نـظـرـ فـيـهاـ «ـ أـرـاتـوسـتـينـ »ـ عـلـامـةـ زـمـانـهـ فـيـ عـلـومـ السـمـاءـ حـينـ قـاسـ زـاوـيـةـ الـأـرـضـ مـنـ الإـسـكـنـدـرـيـةـ إـلـىـ أـسـوـانـ ..ـ وـاتـصلـتـ فـيـهاـ أـسـبـابـ الـعـلـمـ مـنـ عـهـدـ الـفـرـاعـنـةـ وـالـيـونـانـ إـلـىـ عـهـدـ الـإـسـلـامـ ..ـ فـقـالـ «ـ كـمـالـ الدـيـنـ جـعـفـرـ بـنـ ثـلـبـ »ـ فـيـ الـقـرـنـ الثـامـنـ الـهـجـرـيـ :ـ «ـ قـدـ خـرـجـ مـنـ أـسـوـانـ خـلـائـقـ كـثـيرـةـ لـاـ يـحـصـونـ مـنـ أـهـلـ الـعـلـمـ وـالـرـوـاـيـةـ وـالـأـدـبـ ..ـ قـيـلـ إـنـهـ حـضـرـ مـرـةـ قـاضـىـ قـوـصـ ،ـ فـخـرـجـ مـنـ أـسـوـانـ أـرـبـعـمـائـةـ رـاكـبـ بـغـلـةـ لـلـقـائـهـ ..ـ كـنـايـةـ عـنـ الـعـالـمـ لـأـنـ الـبـغـلـةـ كـانـتـ رـكـوبـةـ الـعـلـمـاءـ ..ـ

وكانت إلى ذلك العهد تسمى «الشغر» لأنها تزدحم ازدحاماً الشغور الحافلة بطلاب العلم وطلاب التجارة وطلاب اللهو والفراغ .. وفيها يقول كمال الدين :

أَسْوَانُ فِي الْأَرْضِ نَصْفُ دَائِرَةٍ
الْخَيْرُ فِيهَا وَالشَّرُّ قَدْ جُمِعَا
تَصْلِحُ لِلنَّاسِكَ التَّقِيَّ إِذَا
أَقَامَ وَالْفَاتِكَ الْخَلِيلَ مَعَا

وقد تغيرت تواريخ الدول وتعاقبت حكومة بعد حكومة ، ولا تزال أرضها هي أرضها ، وسماؤها هي سماؤها ، ومناظرها هي ما كانت عليه من نمط فريد بين مناظر الطبيعة المصرية ، لا تشاهد في بلد من بلاد مصر ما تشاهد فيها من جزر وجنادر وتيارات وصخور في الماء والصحراء ، تجمع من الألوان ما تجمعه المعادن والجواهر ، وتحكى الذهب والفضة والشهب كما تحكى الزمرد والمرجان والياقوت ، وذهب من جنادرها ما ذهب فقال في مكانها الخزان وتلفت مصر ترقب من لدنها مطامع الضياء كما كانت من قبل تترقب منابع الماء .

ولدت فيها بمشيئة القدر ، ولو أتنى ملكت الأمر لولدت فيها بمشيئة لأنها الموطن الذي يستفاد منه خير ما أثرته لنفسى من النظر إلى الحياة .. فليس مما أحبه لنفسى أن يحصرنى الحاضر فى نطاقه ولا أن يحوينى الخير الأرضى فى حدوده ..

أدعوا إلى الإنسانية فى الأدب ، وأنظر إلى «العالمية» فى المستقبل ، وأحب مصر والشرق ولكنى لا أحب ضيق الأفق فى عصبية وطنية أو شرقية ..

وفى أسوان رأيت التقى التاريخ الماضى بالحاضر الذى نعيش فيه ، فالمحتف فيها والبيت يتقابلان ، والتاريخ فيها حتى يرزق ويتنفس الهواء ، لأنه مائل شاخص فى الأحياء ، والحياة فيها تتسرى بقداسة التاريخ العريق لأنها صورة منه تتجدد مع الأجيال . وفي أسوان رأيت التقى المشرق والمغرب ، ودرجت وأنا أشهد الحضارة الأوروبية فى كل جنس من أجناسها وكل ناحية من أنحائها .

وفي أسوان من أهل أسوان فضلاً عن الغرباء عنها ، عصبية أمم صغيرة يتจำกوا فيها من ينتمى إلى الفراعنة ، ومن ينتمى إلى العرب ، ومن ينتمى إلى البحاجة ، وتسأل عن نسب الأسرة فيذلك عنوانها على أصل من الفرس ، أو من الترك ، أو من المجر ، أو من البوشناق ، أو من العباسيين أو من العبيديين لأنهم جميعاً وفدوا إليها مع قوافل التجارة ، أو مع سرايا الجيوش أو مع الأئذين الناجين بأنفسهم من تقلب الدول وتنازع الحكومات ..

إذا ذكرت أسوان بلدتى جازلى أن أذكرها فأقول مدرستى ، لأننى كما أسلفت أدين بالإنسانية فى الأدب . وبالعالمية فى السياسة ، وبالوطن الذى تتسع له آفاق الفكر وأفاق الشعور .. ولعلى قد تنفست هذه الدروس من هواء الوطن قبل أن أقبسها من صفحات كتاب ..

٠٠٠ طهورٌ

يقال إن الذاكرة ملكرة مستبدة . ويراد بنسبة الاستبداد إلى هذه الملكة العقلية أنها تحفظ وتنسى على غير قانون ثابت . فتذكرة الأمور على هواها ولا تذكرها بقدر جسامتها واقتراب زمانها . وقد تحفظ بأثر صغير مضى عليه خمسون سنة . وتهمل الأثر الضخم وإن عرض عليها قبل شهور أو أسابيع .

هذه الدعوى التي يدعونها على الذاكرة الإنسانية غير مكذوبة من أساسها وفيها ولا ريب ما يوجب الشبهة . إن لم نرد أن نقول : ما يوجب الثبوت واليقين .

كل ما أرجعه من معاهد الطفولة بأسوان يصلح أن يكون شاهداً لاتهام الذاكرة بهذه المجابة . إلى أن يثبت أنها محابة استبداد وهوس على أسلوب ابن عباد :

لَاتَمْدَحْنَ ابْنَ عَبَادَ وَإِنْ هَطَّلَتْ
يَدَاهُ بِالْجُودِ حَتَّى شَابَهَ الدَّيْمَا
فَإِنَّهَا خَطَرَاتٌ مِنْ وَسَاوِسِهِ يُعْطَى وَيُمْنَعُ لَا بَخْلًا . وَلَا كَرَمًا

فمن هذه المحاباة أن بعض معاهد الطفولة يذكرني بأشياء رأيتها في الثالثة من العمر . وأشياء رأيتها في السابعة وغيرها رأيتها في التاسعة والعشرة . ولا يحتاج في استعادتها وإحيائها بتفصيلاتها إلى جهد عسير . بل أراها أمامي تتمثل بألوانها وأشكالها ومناسباتها كأنها من مشاهدات العيان منذ ساعات .

وإنى - مع هذا - لا أجتهد بما وسعنى من الجهد أن أغالب النسيان المطبق في أمور لم يمض عليها غير سنين ، ثم أذكرها - بعد إعنات الفكر - فتظهر لي كأنها ملتفة بغواشى الضباب ، بين الكثيف منه والرقيق ! ..

لكننى أعود إلى أسباب هذه المفارقات فلا أكاد أعتقد أنها محاابة على أي معنى من معانى المحاباة . ودعنا من قول القائلين أنها وساوس ابن عباد . فى الهوس والاستبداد .

فك كل ماتذكرته قبل العاشرة فهو من ذكريات «الانتباه الأول» ... ومن نوع الحوادث التي تأتى وخذها متميزة بين غيرها ، ولا تأتى مع حوادث «الوتيرة» والسايق المتكرر المملول ..

في الثالثة من عمري

كنت في الثالثة يوم جربت رحلتي النيلية للمرة الأولى ، وكانت السفينة تضطرب بين الشاطئين ويضطرب معها الشراع الذي يحاول أن يستقبل مهب الريح على غير جدو ، وكان بينما وبين ضريح ولى الله الذي نقصده لوفاء نذر الفدية والزيارة أكثر من عشرة أميال ، فوقفت السفينة على الشاطئ الشرقي وخرج النواتية يطبخون طعامهم تحت نخلات هناك ، وكانت لى في تلك الطبخة حصة القهوة التي تعودت أن أشربها ملونة بلون البن . مشبعة بالسكر ، كأنها تعلة من تعلات الطعام .

ليس من استبداد الذاكرة - إذن - أن يثبت هذا المنظر في الثالثة وأن تزول بعده عشرات المناظر من الرحلات النيلية أو البرية : التي تمر على وثيرتها مع تيار الحوادث والأخبار . . .

وكنت في السابعة يوم عصف وباء الهيفية (الكوليرا) بأسوان ، وكاد الحمى الذي نقيم فيه أن يخلو من سكانه بين مصاب وميت ومهاجر ومعتكف يحاذر زبانية الحجر الصحي محاذرة السائر آجام السباع . .

ويرن في أذني إلى الساعة صياح النواتية إذ يعبرون النيل ويسألون : كم أسعار اليوم ؟ فيجيبهم زميل من المرسى المهجور يفهم معنى السؤال ويعلم أنهم يسألون بهذه الكناية وماشابها عن عدد المصابين من أول النهار :

جنيه مصرى : أى مائة . .

بنتو . . . أى ثمانين . . .

بندقى . . . أى خمسين . .

وهكذا حتى هبط السعر إلى ريال «الشنكو» والريال المجيدى . «وأم خمسة» أى القطعة ذات الخمسة قروش !

منظر آخر لا تظن أن الذاكرة تحابيه ، ولا تظن محاباتها إيه - إن صحت الشبهة - ضرباً من الاستبداد .

منظر فتاة

وأجمل المناظر التي تحتفظ بها الذاكرة من ذخائر العاشرة - وما دونها - منظر فتاة أوروبية هيفاء لفت نظرى أنها تسير في وسط المدينة - على غير عادات السائحين والسائحات - وتدير على خصرها حزاماً «أو مشداً» لا يزيد قطره على بضعة قواريط .. وتخطر في الطريق الوعر كأنها تلمس أغصان الشجر بقدمي قطة .

ولم أكن أفهم يومئذ أن نحافة الخصر جمال محبوب ، ولكننى فهمت أنه أujeوبة نادرة ، وتبعـت الفتـاة الهـيفـاء . حول منعطفـات الطـريق ولا أعلم لماـذا أتبعـها ، ولا يدورـفي خـلـدى خـاطـرـغـيرـالـاستـزاـدةـ منـهـذاـ المنـظـرـالـعـجـيبـ ،ـ الرـشـيقـ .

لو أتنـىـ مـصـورـ لـاستـطـعـتـ اليـومـ أـصـورـهـذهـ الفتـاةـ ،ـ منـ الـذـاكـرـةـ ،ـ فلاـ أـخـطـعـ منهاـ لـمـحةـ يـثـبـتهاـ المـصـورـ عـلـىـ قـرـطاـسـهـ .ـ ولـسـتـ أـذـكـرـ اليـومـ نـقـوشـ كـسوـتـهاـ وـلـكـنـىـ إـذـاـ أـثـبـتهاـ بـجـمـلـتـهاـ لـمـ تـخـالـفـ ماـ يـثـبـتهاـ المـصـورـ مـنـ نـقـوشـ الـكـسـاءـ عـلـىـ الـبـعـدـ ،ـ ويـقـنـعـ بـهـ النـاظـرونـ .

ولمن أراد من علماء «السيكولوجيا والبداجوجيا» أن ينعت هذه المحاباة بما يحلوه من أوصاف الاستبداد . ولكننى - بعد هذه السنين الطويلة - أستغفر لهم ذنبـهـمـ إـلـىـ الـذـاكـرـةـ وـأـقـولـ إنـهاـ مـلـكـةـ مـظـلـوـمـةـ عـلـىـ الغـاـيـةـ مـنـ الـعـدـلـ وـالـدـيمـقـراـطـيـةـ ،ـ إنـ كـانـتـ مـحـابـاتـهاـ كـلـهاـ عـلـىـ هـذـهـ الـمحـابـةـ ..

الإنشاء في المدرسة

بدأت الكتابة بموضوعات الإنشاء في المدرسة ، وقد يكون في الإشارة إليها شيء يهم الناشئ المتطلع إلى التأليف لأنه يعلم منه مبلغ فعل التشجيع حين يتلقاه الناشئون من ذوى مكانة ملحوظة في العلم والحياة العامة .

كانت المفاضلة بين شيئين هي المحور الغائب على موضوعات الإنشاء في أيامى بمدرسة أسوان ، أيهما أفضل المال أو العلم ؟ الذهب أو الحديد ؟ الصيف أو الشتاء ؟ الرأى أو الشجاعة ؟ السيف أو القلم ؟ الحرب أو السلام ؟ إلى أشيه هذه المفاضلات .

وكان من عادتى أن اختار أضعف الجانبين حتى اخترت الجهل مرة فى مفاضلة بينه وبين العلم ! .. وكان لنا أستاذ فاضل «هو الشيخ فخر الدين محمد» يحمد هذا الاختيار على أن يكون من قبيل مرانه القلم ، ويعرض كراستى على كبار

الزوار بين ما كان يعرضه من كراسات التلاميذ ، فلما زارنا الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ذات شتاء أراه الكراسة فتصفحها باسمًا وناقشنى فى بعض مفاضلاتها ، ثم التفت إلى الأستاذ وقال ما أذكره بحروفه : «ما أجدر هذ أن يكون كاتبًا بعد»

ونطق «بعد» بضم الدال غير واقف على السكون ، ولم أزل أذكر ذلك حتى عللت به وقوف زعيمنا «سعد زغلول» على أواخر الكلمات محركة غير ساكنة ، وقلت إنها «مدرسة واحدة» تحرص على تحريك أواخر الكلمات ، آنفة من الهرب على حد قول القائلين : «سكنٌ تسلّم» . . . فهم لا يهربون من الحقيقة ولا يحرضون على السلامة .

وأبالغ إذا قلت إن كلمة الأستاذ الإمام هي دون غيرها التي حفزتني إلى الكتابة ، ولكنها كانت ولا ريب حافزاً قوياً بين الحواجز الكبرى ، وجاءت بعد عزيمة سابقة فأعانتها ، ودفعت عنها عوارض التردد والإحجام .

أما ظروف المادية «عندما كنت صغيراً أتعطش إلى قراءة الأدب» فلم تكن ظروف ثراء مهما نقتصر في حدود الشراء ، ولكنها كذلك لم تكن ظروف ضنك وفاقة ولا ظروف شعور بالحاجة إلى الضروريات .

كان أبي وأخي الأكبر موظفين يعيشان في بيت واحد ، وكان مرتبهما معًا بضعة عشر جنيهًا وهو مقدار لم يكن بالقليل في ذلك الحين ، وكانت الطفل الوحيد بالمنزل إلى أن ولدت أختي فلم تكن في تربيتها كلفة ، لأن تعليم البنت في أسوان لم يكن معروفاً قبل نموها إلى سن التلمذة . . .

فنشأت أحسب أنتي غير محتاج وأنني أجد راحة المعيشة مالا يجده الكثيرون من زملائي .

مكتبة بخمسين قرشا

على أن الرزق الذي يتيسر للضروريات لا يتيسر لشراء الكتب عن سعة ، وأحمد الله أن شراء الكتب عن سعة لم يكن لازماً في أيام صبائ للاطلاع على أوائل المعرفة الأدبية ، بل على المعرفة الأدبية في مراحلها المتقدمة .

فلا أحسب أن المكتبة التي اشتريتها بنقودي في صبائ زاد ثمنها على خمسين قرشاً أو نحو الخمسين .

كان الكتاب من الطبعة الأزهرية يباع بقرشين أو ثلاثة قروش ويشتمل أحياناً على ثلاثة كتب بين المتن والhashia والتذليل ..

وكانت هذه الكتب تباع في دكان إلى جانب المدرسة مع أصناف العطارة والحبوب ولوازم أهل الريف ، ومنها ما كان يرتفع إلى خمسة قروش أو إلى عشرة قروش كالمقامات والدواوين .

ولم يكن «مصروفى» يزيد على خمسة مليمات في اليوم إلا ليدرك خمسة قروش في الأسبوع ، أتسلمه كل يومخميس فلا أشتري بها ماكولا أو فاكهة ولا ذهب بها إلى ملعب البهلوان إن كان بالمدينة ملعب منها ، وهي لا تقيم فيها بل تزورها غبًا كل بضعة أشهر ..

فإذا كان معى ثمن الكتاب اشتريته ل ساعته ، وإلا أعطيت العطار قرشين بعد قرشين حتى يتم الثمن المطلوب .

وبهذه الطريقة قرأت العقد الفريد ، وثمرات الأوراق ، والمستطرف ، والكسكول ، والمخلاة ، ومقامات الحريرى ، وبعض الدواوين .

ولم تكلفكني المكتبة التي اشتريتها - كما قلت - إلا أقل من جنيه واحد ، وقد يزيد ثمنها على نصف جنيه بقليل ..

بعض من كل

لكن هذه الكتب مقتنياتي التي اشتريتها بنقودى في أسوان ، ولم تكن هي كل ما قرأته في فترة التلمذة وما بعدها ، بل كانت لي وسائل إلى كتب أخرى من غير طريق الشراء .

فقد كان أبي يقرأ كتب الفرائض والعبادات وبعض كتب التاريخ ولا سيما تاريخ السيرة النبوية وترجم الأولياء الصالحين . ومع هذه الكتب كنت أجده عنده مجموعة كبيرة من أعداد صحيفة «الأستاذ» وصحيفة «الطائف» لعبد الله نديم وصحيفة «العروة الوثقى» لجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ..

وكان أخواه يقرأون كتب التصوف والأدب الديني ولا سيما كتب الغزالى ومحى الدين بن عربى وطائفة من المتصوفة المتأخرین .

ولم تكن مكتبة المدرسة مفتوحة يومئذ للتلاميد ولا كان فيها من كتب الأساتذة ما يملأ رفين أو ثلاثة رفوف من دولاب ، وكانت مجلة المقتطف إحدى

المجلات التي تصل إليها من وزارة المعارف العمومية ، فأذن لى الناظر في التردد عليها والاستعارة منها والاعتماد عليها في تحضير المنازرات والمطارحات ..

وساعدني ، من المصادرات التي لا تيسر في كل حين ، أن أسوان كانت يومئذ مرتاداً لمئات السائحين كل شتاء ، وكان فيها فندقان كبيران وفنادق أخرى دونهما في العظم والوجهة تزدحم بالسائحين من أقطار العالم ، فتعودنا أن نرى فيها كل شتاء مكتبات عامة بالمراجع التاريخية والقصص والصحف والمجلات الأدبية والفكاهية ولم يكن من العسير علينا أن نحصل على بعضها بالشمن المستطاع ، بل كان يتفق أحياناً أن يزور مدرستنا أناس من علية السائحين ومعهم أبناؤهم وبناتهم يطلبون عنواناتنا لتبادل الرسائل ، ويعثون إلينا بالهدايا من الكتب التي تعجبهم ويقدرون أنها تعجبنا ، ولا أنسى أحد السائحين - وكان إنجلزيًا مسلماً يسمى «ماجور ديكسون» - يوم جاءنى منه بعد عودته إلى بلاده كتاباً : أحدهما ترجمة القرآن والأخر كتاب كارليل عن الثورة الفرنسية .. وهو الوحيد الذي اختار لي هذا الاختيار ولا أزال أذكره كلما توسيت في القراءة فلعلت أنها تقوم في الأغلب الأعم على هذين القطبين من المطالعة : أصول العقائد وفلسفة الثورات الاجتماعية من وجهاً البطولة والأبطال .

هذه الندرة من الكتب التي تيسر لي أيام التلمذة وما بعدها علمتني دستوراً للمطالعة أدين به إلى الآن وخلاصته أن كتاباً تقرؤه ثلاث مرات أفعى من ثلاثة كتب تقرأ كلها مرة واحدة .

٠٠٠ ذكريات العيد ..

من العيد تعلمنا أن الطفل الصغير «شيء مهم» في البيت ، أو أننا نحن بذواتنا «أشياء مهمة» .. لأنناأطفال ..

تبتدئ تهنئات العيد في مدن الريف بعد مغرب الشمس من يوم الوقفة ، وتكون مقصورة في ذلك اليوم على الجارات القرىيات من المنزل ، لأن الغالب عليهم أن يذهبن صباح العيد مبكرات إلى «القرافة» لتفريق الصدقة على أرواح الأموات .
وتدخل الجارات واحدة بعد الأخرى يرددن صيغة لا تتغير ، تنتهي بهذا الدعاء : «... يعود عليك كل سنة بخير .. أنت وصغيرينك وصاحب بيتك والحاضرين والغائبين في حفظ الله» .

وقبيل المغرب ، تكون عملية التغيير وتوزيع الملابس الجديدة على صغار البيت قد ابتدأت على يد الوالدة في نشاط وسرعة ، ولكن .. وهذا هو العجب ، في غضب وشدة ، وأحياناً في سخط وصياح :

- تعالى يا ولد .. اذهب يا مسخوط .. الحق ادخل الحمام .. مع تسبحة أو اثنين من قبيل : إن شاء الله ما لبست .. إن شاء الله ما استحممت .. !

ولقد تعودنا هذا الموضع كل عيد على قدر ما تعية الذاكرة في سن الطفولة ، وأكثر ما يكون ذلك حين تزدحم الجارات ، وحين تكون أقربهن إلى الدار على استعداد للشفاعة وتردد الجواب المألف في هذه الأحوال : «بعد الشر .. بعيد عن السامعين !» .

وقد خطر لي يوماً أن هذا كثير على عملية التغيير ، فرفضت الكسوة الجديدة وذهبت صباح العيد إلى منزل جدتي بثوبى القديم .

وكان من تقاليد العيد أن ترسل رءوس الذبائح إلى الجدات : أم الأب أو أم الأم من كنها على قيد الحياة ، وأم الأب مفضلة إذا كانت الجدتان تعيشان ..

فلما دخلت منزل جدتي «أم أمي» وهي ضريرة : سمعت الأطفال يعجبون لأنى لم ألبس جديداً في العيد ، فقربتني الجدة العطوف إليها وسألت في شديد من اللهفة :

- ما الخبر يا ولدى؟ لماذا لم تلبس ثوبك الجديد؟ ألم يحضروالكم ثياباً جديدة؟

- بلى .. إنهم قد أحضروها ، ولكننى أبيت أن أخذها من يد بنتك .. لأنها تستمننا وتزعق فىنا ..

فابتسمت وهى تعرف بنتها حق المعرفة ، وصاحت :

- بنتى؟! وكيف كانت القصة؟

فأعدت عليها القصة مردداً كلمات السخط التى أغضبتنى ، فسألت :

- أكان أحد من الجيران عندكم فى تلك الساعة؟

فحسبت أنها تطلب شهوداً على الواقعه ، وقلت لها :

- كثيرات .. فلانة .. وفلانة و ..

فلم تمهلنى أن أتم أسماء جاراتنا اللاتى تعرفهن ، وجعلت تربت على كتفى وتقول : «وأنت العاقل يا عباس تقول هذا؟ .. إن أمك لا تبغضك ولا تدعوك عليك ، ولكنها تصرف النظرة .. !» .

وفهمت معنى «تصرف النظرة» بعد شرح قليل ، وخلاصتها أن رؤية الأم فى مساء العيد بين أطفالها الفرحين المتلهلين بالعيد تفتح أعين الحاسدات اللاتى حرمن الأطفال ولا يحتفلن «بتغيرات» العيد هذا الاحتفال ، فإذا شهدن أمارات السخط بدلاً من الفرح والرضا بطل الحسد ، وسلم الصغار وأمهاتهم من عيون الحاسدات .

* * *

لأول مرة أشعر بأن الطفل فى البيت «قنية نفيسة» يحسد عليها الأمهات والأباء وما كنت أفهم قبل ذلك إلا أنه من «غلب الحياة أو هموم المعيشة» وأنه هو - فى شعوره بنفسه - شيء صغير يتطلع إلى اليوم الذى يساوى فيه هؤلاء الكبار ، ويُحسب فى ذمرة الناس المعدودين ! ..

وكان ذلك «درسًا» فى تفسير القرآن وتفسير الكتب المدرسية ..

فقد كنت أذهب مع أبي إلى المسجد القريب يوم الجمعة فأسمع الفقيه يقرأ فى سورة الكهف : (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) فلا أدرى كيف تكون زينة ، ونحن نتطلع إلى أيسر سلعة من سلع الزينة الغالية؟

وكان من قطع المحفوظات التي كتبناها في المدرسة قصة نسميتها .. «قصة المرأة البائحة» هذه خلاصتها :

«امرأة زارت إحدى صديقاتها ، فراحت صاحبة الدار تفاخرها بجواهرها وترجحها عليها ، ثم ذهبت صاحبة الدار ترد الزيارة لصاحبتها وتسأليها : أين جواهرك لأتفرج عليها .. واستمهلتها هذه ساعة إلى أن حضر ولداتها من المدرسة فاستدعتهما إلى حجرة الاستقبال وقالت للضيافة المدللة بجواهرها .. ها هما جوهرتاي .. وليس لها ثمن تحتويه خزائن الأموال » .

وكان جواباً مخيباً للأمال ، ومسقطاً للقصة كلها في موازين النقد عندنا نحن الأطفال أو نحن الجوادر التي لا تقدر بالمال .. !

ونخرج من ذكريات الطفولة إلى تجارب الحياة ، فنعلم الآن فلسفياً واجتماعياً ونفسياً ، أن الطفولة هي قوام العيد كله فلولا الأطفال لما استطاع المجتمع أن يوقت الفرح مقدماً بميقات معلوم في يوم من الأيام ، ولكن هات للمجتمع أطفالاً يفرحون بالكساء الجديد واللعب المباح ، وأنت الكفيل بفرح المجتمع كله على الرغم منه .. إذا صبح الفرح بالإرغام وهو صحيح في شريعة «الديكتاتوريين» الصغار ، فليس في استطاعة كبير أن يعصي سلطان الفرح وهو ينظر إلى صغار فرحين .

ومن العيد تعلمنا مفارقات النفوس في الأسرة الواحدة ، علماً يسبق كل ما عرفناه بعد ذلك من قوانين الوراثة في ذمة السيكولوجيين والبيولوجيين .

تعودنا أن نزن الأقدار في بيئتنا «العائلية» بمقدار العيدية التي كانت تتفاوت من خمسة قروش على الأكثر إلى خمس مليمات على الأقل .

وكان لنا من الأقارب ، والمعارف غير الأقارب ، وذخيرة وافية للرقابة النفسية من الإخوة الأشقاء .

أخوان شقيقان يتشاربهان أقرب الشبه في الملائم والأزياء ، هذا يمنع القرؤش الخمسة وذاك لا يزيد على الخمسة المليمات ، وهذا بشوش مازح ، وذاك عبوس صارم ، وهذا ثرثار لا يفرغ من الحديث ، وذاك صمومت نزد الكلام ..

ولكننا - مع الإيمان بصحة الميزان الذي يفرق بين خمسة قروش وخمسة مليمات - قد تعلمنا مبكرين أن النقود ليست هي الميزان الوحيد لأقدار المعiedين ..

إذ كان من أولائك المعيدين صديق للأسرة لا يبذل مليئاً ولا يسكت مع هذا عن مسألة العيدية بحذافيرها مداراة لإفلاسه .. بل يلقانا مبادراً بطلب العيدية منا ونفهم منه - بدهاهة - أنه يمزح ، ولا ينتظر منا أن نعطيه ولا ننتظر منه أن يعطينا . إلا أنها فاتحة للمعايدة لابد منها ، ثم تبعها أدوار متلاحقة من الفوازير والألغاز الحسابية أو اللغوية ، وأدوار أخرى منمحاكاة القحط والكلاب والخرفان والحمير . ولم نكن نحن نطلب «عيدية» من أحد يبذلها أو لا يبذلها ، ولكن أباانا رحمة الله كان حريصاً على أن يحضرنا من طلب العيدية خاصة من الصديق ، لأنه «على قد حاله» كما كان يقول ، فكان هذا الصديق «الذى على قد حاله» على رأس القائمة بين المنتظرین من المعيدین ، وكنا نميّزه بالحصة الوفية من ضيافة الأعياد : قرفة ، وركع ، وبقايا المكسرات من رمضان ..

وقد كان في ذهني درس من دروس العيد يوم قرأت مذهب «أبي العلاء» في ظلم الضعفاء والأقواء فرحت به ولم أستغربه ، وهو غريب لا تقدر على هضمـه معدة الطفولة كقوله :

**ظُلْمُ الْحَمَامَةِ فِي الدُّنْيَا وَإِنْ حَسِبْتَ فِي الصَّالِحَاتِ كَظُلْمٍ الصَّقْرِ وَالْبَازِ
فَفِي إِحْدَى زِيَارَاتِ الْعِيدِ ، عَلِمْتَ أَنْ «سَعَادَةَ الْمَأْمُورِ» بِجَلَالَةِ قَدْرِهِ مَظْلُومٌ ،
يُظْلِمُهُ بَهْلَوَانٌ أَوْ شَبِيهٌ بِالْبَهْلَوَانِ ، مِنْ أَصْحَابِ الْأَرْاجِيْحِ .**

وكانت لعبة الأراجيح أحـب ألاعيب العـيد إلى الأطفـال ، وقد أقيمت على ساحة قريبة من المنزل قبل الـوقفـة بأيـام ، ثم فوجئـنا بـحلـها وـرفعـها من مـكانـها ، وـقـيلـ أنها حلـت وـرفـعت بـأمرـ سـعادـة الـبكـ المـأـمورـ .

وشاعت التعليقات من قبيل قولـهم :

رجل مستبد يظن أن الإـدارـة هي التـحـكم في خـلـق الله ..

رجل فقط ينـكـد على الأـطـفال الصـغار في موـسـم اللـعـب والـفـرـح ..

رجل غـليـظ القـلـب يـقطـع أـرـزـاق المـساـكـين الـذـين عـلـى بـاب الله ..

ويـأتـى هـذا الرـجـل المـوصـوف بـكـل هـذه الصـفـات للـتعـيـيد عـلـى الوـالـد الـذـي كـانـت تـربـيـته بـه رـابـطة الـعـمل فـي دـيـوان وـاحـد ، إذـ كـانـت دـارـ المـحـفـوظـات يـومـئـذ تـشـغلـ المـكـاتـب الـتـي تـجاـورـ مـكـتبـ المـأـمورـ .

فلم نخف إلى استقبال الرجل «المستبد الفظ الغليظ» إلا حين علمنا بعد هنئيه أنه في الواقع هو الرجل المظلوم .

وكانه سيق إلى التحدث عن قصة الأراجح فقال :

- إنها حلت ورفعت لأنها قد ظهر بعد فحصها أنها مفككة اللوالب و«الصماويل» وأن حادثاً حدث فيها وتهشم من جرائه ثلاثة أو أربعة أطفال من أبناء البلدة التي كانت فيها قبل وصولها إلى أسوان ، ووجدت الورقة التي يحملها صاحبها وعليها تعهد منه بأن يصلح خللها قبل إدارتها ، ولكنه لم يصلح هذا الخلل ولم يكن من المأمون على حياة الأطفال أن تدار وهي بتلك الحال ..

كما من حاكم ملوم ، وكم من محكوم ظالم !

وكم من حجة للقاتلين :

**لَوْ أَنْصَفَ النَّاسُ اسْتَرَاحَ الْقَاضِي
وَيَا تَمَّا كُلُّ عَنْ أَخِيهِ رَاضِي**

وإن لم يخل من الحجة قول القاتلين : لو أنصف القاضي استراح الناس ..
نعم .. وكم للعديد من دروس تمر بالصغرى والكبار ، ولا ندرى متى تصلح للعظة والاعتبار ! ..

الفصل الثاني

••• أسئلةٌ •••

كان زعيم مصر الكبير سعد زغلول رحمة الله يعد من مزايا نظام التعليم في الجامع الأزهر على عهده ، أنه كان نظاماً يسمح للطالب أن يختار أستاذته ويجلس في الحلقة التي يروقه أن يجلس فيها ..

وهي مزية لا شك في نفعها للمعلمين والمتعلمين ، لأنها تتواءم مكانة الأستاذ بعمله واجتهاده ولا تقيد التلميذ بفرصة واحدة في درس من دروسه ، وليس في هذا النظام ضرر على الأخلاق ما دام طلب العلم هو الغرض الخالص للأساتذة والتلاميذ .

ومما أحمد الله عليه أن أستاذتي جمیعاً قد اخترتهما بنفسي ، ولم يفرضهما عليَّ أحد يملك سلطة التعيين والفصل دون غيره ، لأنهم كانوا جمیعاً مؤلفین مشهوداً لهم برسوخ القدم في صناعة التأليف ، أقرأ منهم ما أشاء في المرحلة الأولى من مراحل التعليم الدراسي أفت منهم غير قليل ، ولكنني كنت في استفادتني منهم على اختيار يرجع إلىَّ ، ولا يرجع إلى البرنامج المقرر أو النظام المفروض ..

في المرحلة الأولى

استفدت من مرحلة التعليم الابتدائي من أستاذتين اثنين على اختلاف بينهما في طريقة الإفادة ، فإن أحدهما قد أفادني وهو قاصد ، والأخر قد أفادني على غير قصد منه ، فحمدت العاقبة في الحالتين ..

كان أحدهما الأستاذ الفاضل مدرس اللغة العربية والتاريخ الشيخ محمد فخر الدين ، وكان «الإنشاء» صيغًا محفوظة في ذلك الحين كخطب المنابر وكتب الدواوين ، ولكنه كان يبغض الصيغ المحفوظة وينحي بالسخرية والتقرير على التلميذ الذي يعتمد عليها ، ويمنع أحسن الدرجات لصاحب الموضوع المبتكر وأقل الدرجات لصاحب الموضوع المقتبس من نماذج الكتب ، وإن كان هذا أبلغ من ذاك وأفضل منه في لفظه ومعناه .

وكان درسه في التاريخ درساً في الوطنية .. فعرفنا تاريخ مصر ، ونحن أحوج ما نكون إلى شعور الغيرة على الوطن والاعتزاز بتاريخه ، لأن سلطان الاحتلال الأجنبي كان قد بلغ يومئذ غاية مده ..

أما الأستاذ الآخر ، فقد كان أستاذ حساب وهندسة ورياضة . ولا داعي لذكر اسمه في هذا المقام .

كان يؤمن بالخرافات وشفاعات الأولياء ، وكان محدود الفهم في دروسه ولا سيما المسائل العقلية في درس الحساب ، وقد كانت هذه المسائل شائعة في ذلك الحين ثم أبطلوها بعد ذلك لأنهم زعموا أن القدرة على الحساب شيء والقدرة على فض المغلقات العقلية شيء آخر ، وقد أصابوا من ناحية وأخطأوا من ناحية ، لأن القدرة على فض المغلقات ألزم اللوازم لإتقان العلوم الرياضية خاصة وإنقان العلوم الأخرى على العموم .. !

وكان يتتردد على مسجد يعتكف في زاويته رجل من المشهورين بالولاية وصنع الكرامات فدعانا جميعاً - نحن تلاميذ السنة النهاية إلى صلاة المغرب معه في ذلك المسجد ، للتبrik بالرجل الصالح وتلقى النصائح منه فيما نحن مقبلون عليه من امتحان قريب .

وجاء دورى في تلقى النصيحة ، فقال لى الرجل : « أما أنت فعليك باللغة الإنجليزية » ..

وعجبت وعجب زملائي من هذه النصيحة ، لأننى كنت من المتقدمين في هذه المادة على الخصوص ، وكانت أقرأ فيها بعض الكتب الأدبية وأنا في السنة الرابعة الابتدائية ، ولكن زملائي فسروا هذه النصيحة بسر الولاية .. فلعل الرجل يعلم من سر الامتحان في تلك السنة ما لا يعلمون .

فلما اجتمعنا بالمدرسة في أول حصة للحساب ، قال الأستاذ الرياضى :

« تذكر نصيحة الشيخ يا فلان؟ » ..

قلت : « إن الشيخ لم يقل شيئاً » ..

قال هو يحوقل وزملائي يأخذهم الوجل ، ومنهم كثيرون بقيid الحياة : « كيف لم يقول شيئاً؟ .. ألم ينصحك بالاجتهاد في اللغة الإنجليزية؟ .. »

قلت : « نعم فعل .. ولكنه سيظفر بالسمعة في علم الغيب أيا كانت النتيجة ، فإن نجحت قيل إنها بركة لتصحه ، وإن أخفقت قيل إنه قد عرف هذا فحضرني منه» .

فما زاد الأستاذ على أن قال : «دع هذا الفضلال هداك الله» ..

ولكن الدرس الأكبر - الدرس الذي أحس به أكبر ما استفاده من جميع الدروس في صباه - كان بقصد مسألة حسابية من تلك المسائل العقلية .. كنت شديد الوعي بهذه المسائل لا أدع مسألة منها بغير حل مهما بلغ إعصارها .. وكان الأستاذ يحفظ منها عدداً كبيراً محلولاً في دفتر يعيده على التلاميذ كل سنة ، وقلما يزيد عليه شيئاً من عنده ..

وعرضت في بعض الحصص مسألة ليست في الدفتر ، فعالجنا حلها في الحصة على غير جدوى ، ووجب في هذه الحالة أن يحلها الأستاذ لتلاميذه فلم يفعل ، وقال على سبيل التخلص : «إنما عرضتها عليكم امتحانا لكم ، لتعرفوا الفرق بين مسائل الحساب ومسائل الجبر ، وهذه من مسائل الجبر لأنها تشتمل على مجهولين» .

لم أصدق صاحبنا ولم أكف عن المحاولة في بيته ، وقضيت ليلة ليلاً حتى الفجر وأنا أقوم وأقعد عند اللوحة السوداء حتى امتلأت من الجانبين بالأرقام .. وجاء الفرج قبل مطلع النهار ، فإذا بالمسألة محلولة وإذا بالمراجعة ثبتت لي صحة الحل ، فأحفظ سلسلة النتائج وأعيدها لأستطيع بيانها في المدرسة دون ارتباك أو نسيان .

قلت : «لقد حللت المسألة» .

قال الأستاذ : «أية مسألة؟» .

قلت : «المأساة التي عجزنا عن حلها في الحصة الماضية» .

قال : «أو صحيح؟ .. تفضل أرنا همتك يا «شاطر» ..

وحاول أن يقاطعني مرة بعد مرة ، ولكن سلسلة النتائج كانت قد انطاعت في ذهني لشدة ما شغلتني وطول ما راجعتها وكررت مراجعتها .

وانتظرت ما يقال ..

إذا بالأستاذ ينظر إلى شزرًا وهو يقول : «أضيعت وقتك على غير طائل ، لأنها مسألة لن تعرض لكم في امتحان» .

وإذا بالزملاء يعقبون على نغمة الأستاذ قائلين : «ضيّعت وقتنا .. ما الفائدة من كل هذا العناء؟» .

كانت هذه صدمة خلية أن تكسرني كسرًا ، لو أن اجتهادى كان محل شك عندي أو عند الأستاذ أو عند الزملاء ، أما وهو حقيقة لا شك فيها ، فإن الصدمة لم تكسرنى بل نفعتنى أكبر نفع حمدته فى حياتى ، وصح فيها قول نيتشه : «إن الفضل قيمته فيه لا فيما يقال عنه ، أيا كان القائلون» ولم أحفل بعدها بإنكار زميل أو رئيس .

* * *

كان أساتذتى جمیعاً ممن اخترتهم بنفسى ..

نعم ! .. ولكننى أحب أن أستثنى أستاذًا واحدًا كان حضورى عليه من اختيار أبي لا من اختيارى ، وذاك هو الشيخ أحمد الجداوى رحمه الله .. كان الشيخ أحمد من أبناء أسوان ، وحضر العلم فى الأزهر وزامل الأستاذ الإمام «محمد عبده» على أيام السيد جمال الدين .

وتولى القضاء فى قنا ، ثم تولى إدارة التعليم فى السودان ثم نشبت الفتنة المهدية فهجا «محمد أحمد» بقصيدة نونية نشرتها الحكومة فى جميع الأقطار السودانية ، ومنها على ما ذكر قوله :

يَا ذَا الَّذِي حَسِبَ الضَّلَالَ هَدَايَةً مَا أَنْتَ إِلَّا مُبْتَلٍ بِجَنُونٍ
فَجَعَلَ الْمَهْدِيَ جَائِزَةً لِمَنْ يَأْتِيهِ بِرَأْسِ «الْكَوِيفِرِ» الْجَدَاوِيَ حَيَا أَوْ مَيِّتَا ، وَبَادَرَتِ
الْحُكُومَةُ بِإِبْعَادِهِ إِلَى أَسْوَانَ عَنْدَ اسْتِفْحَالِ الشُّوَّرَةِ مُخَافَةً عَلَيْهِ ، فَأَقَامَ فِي بَلْدَهُ وَفَتَحَ
بَيْتَهُ الْوَاسِعَ لِإِلْقَاءِ الدُّرُوسِ الْأَدْبُرِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ ، وَكَانَ الرَّجُلُ فِي عَمَلِهِ عَلَى النَّهَجِ
الْقَدِيمِ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ عَلَى دَأْبِ تَلَمِيذِ الْأَفْغَانِيِّ جَمِيعًا نَهَمًا بِالْمَعْرِفَةِ ، يَطْلَبُ مِنْهَا
كُلَّ مَا اسْتَطَاعَ طَلَبَهُ ، وَلَوْلَمْ يَكُنْ مِنْ سَلْكَهُ وَلَا اتِّجَاهَهُ .

من ذاك أنه تعلم اللغة الإنجليزية في شيخوخته على المرحوم نعوم شقير باشا ، وكان يومئذ شاباً ناشطاً يعمل في قلم الترجمة بمعسكر الجيش ، وقد ذكره نعوم باشا في كتابه عن السودان ..

ومن ذاك أنه تعلم الشعوذة وألعاب السينما وحيل الحواة حتى برع فيها ..

ولم يكن أتعجب من مفاجأته حين يتكلم إلى أحد الضباط الإنجليز باللغة الإنجليزية ، أو حين يجتمع بالموظفين والأعيان لمشاهدة «حاو» ماهر يبهرونهم بألعابه ، وكان «الحواة» يكتشرون يومئذ في أسوان لازدحامها بالطارئين عليها .

فيقف الأستاذ ويشمر عن أكمامه العريضة ، ويفحـم «الحاوى» المـسـكـين في
صـمـيمـ فـنه ، أو يـضـربـهـ بـعـصـاهـ !

* * *

كان هذا النابغة الألـمعـى أـوـسـعـ منـ لـقـيـتـ مـحـفـظـاـ فيـ الشـعـرـ والـنـشـرـ .

كان يـطـارـحـ وـحـدـهـ خـمـسـةـ أـوـسـتـةـ منـ القـضـاـةـ وـالـمـدـرـسـيـنـ وـالـأـدـبـاءـ .

وـالـمـطـارـحةـ هـىـ أـنـ تـأـتـىـ بـبـيـتـ مـطـارـحـكـ بـبـيـتـ يـبـدـأـ بـحـرـفـ
الـقـافـيـةـ فـىـ الـبـيـتـ الـأـوـلـ .. إـذـاـ اـجـتـمـعـ خـمـسـةـ أـوـسـتـةـ مـنـ الـأـدـبـاءـ كـانـ لـكـلـ مـنـهـمـ
أـنـ يـقـتـرـحـ بـيـتـاـ ، وـكـانـ الشـيـخـ الجـداـوىـ هوـ الـذـىـ يـرـدـ عـلـيـهـمـ جـمـيـعـاـ .. فـيـسـكـتـونـ فـىـ
الـنـهـاـيـةـ وـهـوـ لـاـ يـسـكـتـ وـلـاـ يـنـضـبـ مـعـيـنـهـ وـكـانـ كـثـيرـاـ مـاـ يـتـعـمـدـ التـعـجـيزـ فـيـذـكـرـ فـىـ
رـدـهـ بـبـيـتـيـنـ أـوـ ثـلـاثـةـ أـبـيـاتـ أـوـ أـرـبـعـةـ .

وـكـانـ يـحـفـظـ مـقـامـاتـ الـحـرـيرـىـ وـالـهـمـذـانـىـ وـيـلـقـيـهاـ أـحـيـانـاـ مـوـقـعـةـ مـفـسـرـةـ ،
فـيـأـخـذـنـىـ وـالـدـىـ مـعـهـ إـلـىـ بـيـتـ الشـيـخـ لـأـنـهـ كـانـ مـنـ أـصـدـقـائـهـ وـمـحـبـيهـ ، أـوـ يـدـعـونـىـ
إـلـىـ حـضـورـ الـمـجـلـسـ إـذـاـ زـارـنـاـ الشـيـخـ كـمـاـ كـانـ يـفـعـلـ أـحـيـانـاـ .

وـمـنـ خـصـائـصـهـ إـنـهـ عـلـىـ قـدـرـةـ فـائـقـةـ فـىـ نـظـمـ الشـعـرـ الـمـؤـرـخـ أـوـ الشـعـرـ الـذـىـ يـجـتـمـعـ
مـنـ حـرـوفـ كـلـ شـطـرـةـ فـيـهـ تـارـيـخـ سـنـتـهـ . وـقـدـ نـظـمـ فـىـ اـسـتـقـبـالـ الـخـديـوـ عـبـاسـ - عـنـدـ
مـرـورـهـ بـأـسـوانـ فـىـ طـرـيقـهـ إـلـىـ السـوـدـانـ - قـصـيـلـةـ كـبـيرـةـ فـىـ كـلـ بـيـتـ مـنـهـاـ تـارـيـخـانـ .

وـلـمـ يـكـنـ مـجـلسـهـ كـلـ مـقـامـاتـ وـدـرـوـسـاـ وـمـطـارـحـاتـ ، بلـ كـانـ مـنـ طـرـائـفـهـ أـنـهـ
يـعـرـفـ أـلـعـابـ الـحـواـةـ وـيـتـدـعـ الـمـلـحـ وـالـفـكـاهـاتـ ، وـكـانـ مـوـلـعاـ بـشـيـخـ مـعـمـرـ جـاـوزـ
الـثـمـانـيـنـ اـسـمـهـ «ـعـلـوبـ» لـاـ يـفـتـأـ يـنـاـوـشـهـ وـيـسـتـشـيرـهـ وـيـحـرـكـ غـيـظـهـ لـيـسـتـمـعـ إـلـىـ رـدـوـدـهـ
الـسـاذـجـةـ الـتـىـ لـاـ يـبـالـىـ فـيـهاـ بـكـبـيرـ وـلـاـ صـغـيرـ .

وـمـنـ دـعـابـاتـهـ مـعـهـ أـنـهـ كـانـ يـقـسـمـ لـهـ لـثـنـ وـصـلـ مـنـ مـكـانـهـ إـلـيـهـ قـبـلـ أـنـ يـفـرـغـ مـنـ عـدـ
«ـخـمـسـةـ» لـيـعـطـيـنـهـ قـطـعـةـ بـخـمـسـةـ ! ..

وـقطـعـةـ بـخـمـسـةـ فـىـ ذـلـكـ الـعـصـرـ شـىـءـ مـهـولـ عـنـدـ «ـعـلـوبـ» .

ثـمـ يـأـخـذـ القـاضـىـ الـجـداـوىـ فـىـ العـدـ فـيـطـيلـ نـفـسـهـ «ـبـالـواـحـدـ» حـتـىـ تـسـتـغـرقـ ثـوـانـىـ
كـثـيرـةـ وـالـسـلـحـفـاةـ تـطـمـعـ فـىـ الـوصـولـ مـنـ أـوـلـ الـمـجـلـسـ إـلـىـ آخـرـهـ إـذـاـ اـسـتـمـرـ العـدـ عـلـىـ
هـذـهـ النـغـمةـ ، فـيـتـحـرـكـ الـطـمـعـ فـىـ صـدـرـ «ـعـلـوبـ» .

وـيـدـسـ قـدـمـيـهـ خـفـيـةـ فـىـ النـعـالـ لـيـفـاجـعـ القـاضـىـ بـالـجـرـىـ إـلـيـهـ قـبـلـ أـنـ يـفـرـغـ مـنـ
عـدـهـ .

فما هو إلا أن يخطو خطوتين أو ثلاثة وينطلق في جلاله ووقاره عادياً مهرولا حتى يسرع القاضى فيأتى على بقية الخمسة عدا فى نفس واحد .
القاضى فيأتى على بقية الخمسة عدا فى نفس واحد .

فيحوقل الشيخ ويصبح به : «والله ما أحسبك تعلمت الفتاوى الشرعية إلا لتأكل على «علوب» هذه الخمسة قروش» .

وربما تمادى القاضى فى إطماعه عمدًا فيستمر فى عده على النغمة الأولى حتى يصل إليه «علوب» ويكسب الرهان ويعترف له القاضى بالهزيمة ويأتى دور التسليم بعد البحث فى الجيوب من اليمين والشمال . و«علوب» واقف بالانتظار ..

ويطول البحث فى الجيوب و«علوب» ضاحك متهلل ضحك الشماتة والانتصار ثم يصبح به القاضى وقد أطال لهفته وأثار طمعه : «خذ ياشيخ . بارك الله لك فيما عطاك» .

ويدس فى يده شيئاً فيرتاع «علوب» لأنه يحس فى يده خمسة مليمات لا خمسة قروش .

ويأتى دور القاضى فى الشماتة والنكاية ، ويعود إلى الفتاوى الشرعية التى يكرهها «علوب» فيقول له : قطعة بخمسة يا «شيخ علوب»؟ .. إن حلفت فلك خمسة القروش التى تريدها . ولكن - يا «شيخ علوب» - حاسب قبل اليمين .. كم مؤخر صداق «الولية» يا أبا العلاليب ! ..

وهكذا تنقضى مجالسه فى سرور وفائدة وإيناس . ولا أدرى على التحقيق كيف تعلم ألعاب الحواة وأشباهها من الحيل الحسابية والسينية ، ولكنى لاحظت عليه أنه لا يرى أمامه باباً للمعرفة إلا تطرق إليه ، ومن ذلك أنه تعلم اللغة الإنجليزية لأن مجลسه كان يجمع بعض الأدباء المحيطين بها ومنها المرحوم نعوم شقير الذى كان يومئذ مترجمًا بمعسكر أسوان . فانتهز هذه الفرصة ليتعلم عليه الإنجليزية ويعملمه درساً في الأدب العربية ..

وليس الشغف بالمعرفة على هذا النحو بالخلق المستغرب من تلاميذ جمال الدين ، فلولا حبهم للمعرفة ومخاطرتهم فى سبيلها لما عرفوه .

وقد حبّبت مدرسة الجداوى الأدب إلى نفسي لأول مرة ورغبت أن أتخذه فناً أضرب فيه بسهم ، كما ضرب فيه الأستاذ ، وصرت من ذلك العhin مهتماً بحفظ الشعر ، ومطالعة كتب الأدب .

ومما يلذ ذكره أننى لما أغرمت بالأدب أخذت أتمرن على نظم الشعر ، وساعدنى فى ذلك مباراتنا المدرسية التى كان الناشر يعقدها لنا فى إلقاء الشعر العربى ، حتى كنت أستعipض عن محفوظاتى الشعرية بأبيات أنظمها من تلقاء نفسي ، وكانت أول أبيات نظمتها وأنا لم أتجاوز الحادية عشرة هذه الأبيات التى أذكرها هنا على سبيل الفكاهة :

وَبِهِ يَزِيدُ الْمَرءُ فِي الْعَرْفَانِ
وَمُبِينٌ غَامِضُهَا وَزَيْنٌ لِسَانِ
لِمَسَالِكِ الْبَلْدَانِ وَالْوَدَيَانِ
نِلتَ الْأَمَانَ بِهِ وَأَيَّ أَمَانَ !

عِلْمُ الْحِسَابِ لَهُ مَزَائِيَا جَمَّةُ
النَّحُو قَنْطَرَةُ الْعُلُومِ جَمِيعُهَا
وَكَذَلِكَ الْجَغْرَافِيَا هَادِيَةُ الْفَتَىِ
إِذَا عَلِمْتَ لِسَانَ قَوْمٍ يَا فَتَىِ

الشيخ محمد عبده

والشيخ محمد عبده فى اعتقادى أعظم رجل ظهر فى مصر وماجاورها منذ خمسة قرون أثره فى نفسي من أقوى الآثار ..
وقد أعجبت فى نفسي من أقوى الآثار ..

وقد أعجبت به لأننى سمعت بذكره فى مجلس الأستاذ الجداوى مرات ، وكان محبوبياً فى بلدتى أسوان على الرغم من الضجة التى شنها عليه حсадه والجاهلون بفضلـه .

وذلك لأنه توسط فى قضية متشعبـة الأطراف شغلـت المدينة والإقليم كلـه أكثر من عشر سنوات ، حتى سماها ظراءـةـ المـديـنةـ قضـيـةـ درـيفـوسـ .. وـكانـ أحدـ الطـرفـينـ فيـهاـ رـجـلاـ سـرـياـ مـفـرـطـ الذـكـاءـ شـدـيدـ العـنـادـ خـبـيرـاـ بـحـيلـ المـقـاضـاةـ وـأـسـالـيبـ المـراـوـغـةـ وـالتـأـجـيلـ وـإـعادـةـ النـظـرـ وـإـهمـالـ التـنـفيـذـ ، وـكـانـ الـطـرفـ الـآخـرـ رـجـلاـ مـنـ الـمـهـاجـرـينـ إـلـىـ السـوـدـانـ الـذـيـنـ عـادـواـ إـلـىـ وـطـنـهـ مـفـتـقـرـينـ بـعـدـ الثـوـرـةـ الـمـهـدـيـةـ ، فـلـمـ بـحـثـ عـنـ بـيـوـتـهـ وـأـمـوـالـهـ وـجـدـهـ فـيـ يـدـيـ ذـكـرـىـ السـرـىـ الـذـكـىـ العـنـيدـ وـلـمـ يـجـدـ مـعـهـ دـلـيـلاـ حـاضـرـاـ يـعـيـنـهـ عـلـىـ الـمـقـاضـاةـ ، وـلـوـلاـ العـدـاوـةـ بـيـنـ ذـكـرـىـ السـرـىـ الـذـكـىـ العـنـيدـ وـبـيـنـ أـسـرـةـ أـخـرـىـ فـيـ الـمـدـيـنـةـ لـمـ اـسـتـطـعـ إـنـفـاقـ عـلـىـ الـقـضـيـةـ سـنـةـ وـاحـدةـ .

ومع هذا عـزـ علىـ الـأـسـرـةـ الـقـوـيـةـ إـثـبـاتـ حـقـهـ وـأـوـشـكـتـ الـقـضـيـةـ أـنـ تـنـقـلـ عـلـيـهـ ، لـوـلـاـ أـنـ هـدـاهـ نـائـبـ أـسـوانـ فـيـ مـجـلـسـ الشـورـىـ إـلـىـ الشـيـخـ مـحـمـدـ عـبـدـهـ فـقـصـ عـلـيـهـ

قصته واستفز نخوته فتولى القضية بنفسه وخطاب فيها زعيمنا الكبير سعد زغلول رحمة الله بعد أن تحولت إليه فحكم فيها حكماً فاضلاً هز الإقليم بأسره وتحدث به الكبار والصغار في كل مجلس وفي كل قرية ، وغابت هذه السمعة الحسنة التي تكلل بها اسم الشيخ محمد عبده في أسوان على كل تهمة باطلة من تهم الحساد الذين افتروا عليه الزندقة والإلحاد .

ومن حظى الحسن أنني سمعت به في تلك الأيام فراقني أن أقتدي به في غيرته على الحق ونجدته للضعف وقلة اكتراثه للقليل والقال ، واطلعت على معظم ما كتب في شئون الدين والدنيا ، ولكنني أتعجب بخلقه فوق إعجابي بعلمه ، فإن الاقتداء بخلقه نافع لكل إنسان كائناً ما كان مذهبه في الدراسة والتفكير ولكن العلوم والمعارف تتعدد بين فريق وفريق من الناس ، فلا ينتفع المرء إلا بمن يماثله في معارفه وعلومه .

وأنا مدین بخطتي في السياسة الوطنية لإعجابي بالشيخ محمد عبده ومربيديه .. فإعجابي به هو الذي أعظم في نفسي الثقة بسعد زغلول يوم كان الفتياً من عمري كلهم أنصاراً لمصطفى كامل وعبد العزيز جاويش وأتباعاً لهما في الحملة على سعد زغلول .

ولما اشتدت هذه الحملة ذهب إلى سعد في ديوان المعارف لاستطلع رأيه وأسمع حجته على حضور ، وقلت في خطابي أنتي أثق به لأنني أثق بأستاذه ، ودخلت المكتب فاستقبلني واقفاً وأشار إلى كرسى أماته فجلس وجلس ، وسألني : «أعرفت الشيخ محمد عبده؟» قلت : «نعم ! .. قرأت رسائله وتفسيراته وترجمة حياته» وقال : «أين ؟ .. أفي الأزهر؟» قلت : «لا .. بل في أسوان ، قدمني إليه أستاذى فناقشتني في علومي المدرسية وبعض الآراء العامة ثم سمعت منه بشري طيبة» .. قال : «ماذا سمعت منه؟» .

قلت : «التفت إلى الأستاذ وقال وهو يربت على كتفى : ما أجدر هذا أن يكون كاتباً بعد» .

فتسمى الباشا وقال : «أرى أن نبوة الإمام تتحقق» . واستطرد إلى كلام عن الشيخ يثنى عليه .

وهكذا ترسم لنا في بواكيير الصبا السياسة التي نقاد بها ونقد بها غيرنا مدى الحياة .

شيطنة التلميذ

ولا أحسب أن أحداً يتكلم عن أساتذته إلا انتظر منه القارئ شيئاً عن «شيطنة» التلميذ مع الأساتذة . وللقارئ حق ..

فما خلت قط علاقة تلميذ بأستاذ من تلك «الشيطنة» ، ولم أكن أنا من أبطال «الشيطنة» المدرسية .. ولكنني كنت أستطيعها وأشجع عليها حين تقع في موقعها ، ولا أطيل في سرد التوادر فهى كثيرة تكفى هنا واحدة منها على سبيل المثال ..

كان معلم الخط في مدرستنا من أربع الخطاطين في البلاد العربية ، ولكنه كان رجلاً غريب الأطوار يهتاج لأقل خطأ فيشتتم التلميذ المغضوب عليه شتماً يناله هو قبل أن ينال التلميذ ، لأنه يبدأ كل شتيمة بقوله يا ابني .. ثم يكيل الشتائم كيلاً فإذا هي كلها مردودة إليه ..

وكان التلميذ يهجونه لشتمهم وشتم نفسه على هذا النمط الغريب ، ومنهم تلميذ خبيث أعيى أساتذته وأهله خبئاً في جميع سنوات الدراسة ، يملك أهله مطاحن بخارية توشك أن تحتكر طحن الغلال في المدينة ..

ولم يكن من الميسور طحن مقطف من القمع في اليوم الذي يرسل فيه إلى المطحنة لأنها كانت تكتظ بالمقاطف وأصحابها فيبيتون إلى جوارها في بعض الأيام ..

واغتنم معلم الخطوط فرصة وجود هذا التلميذ في فصله ، فجعل يستدعيه إلى المنزل ظهر كل خميس ليحمل الطحين إلى مطحنة أهله ويعود به في اليوم نفسه .. وما أدرك ما يوم الخميس؟ .. إنه هو اليوم الذي ينتظره التلميذ بنافذ الصبر ليسرح ويمرح ، لا ليخزن نفسه في مطحنة تعج بأصوات الآلات وأصوات الطاحنين ..

وصبر التلميذ الخبيث أسبوعاً وأسبوعين وثلاثة أسابيع ، ثم نفذ صبره ، وعول على استنجاد خبشه .. وهو لا يخذلك حيث يتخابث في غير طائل ، فكيف بالخبث الذي ينقذه من هذا البلاء !

وجملة القول أنه باع المقطفين بأبخس ثمن ، ولم يذهب في يومها إلى المطحنة ولا رجع إلى بيت الأستاذ .

و قبل حصة الخط جمعنا وهو لا يملك نفسه ضحكاً ، فحدثنا بما حدث ..
فدخلنا الفصل ونحن نتلهف شوقاً إلى ما يكون !

وكان التلميذ يتعلمون الخط يومئذ في كراسة مذهبة تسمى «المشق» ، وعلى رأس كل صفحة منها نموذج مطبوع ، تحته نموذج مفرغ بالنقط ، تحته فراغ لكتابة التلميذ ..

ولا أذكر ما هو النموذج الذي كان مكتوباً في رأس الصفحة في ذلك اليوم ..
ولكنني أذكر أنه كان مبدواً بحرف «ميم» .

وجاء دور التصحيح فذهب التلميذ واحداً بعد واحد إلى منصة الأستاذ فجعل لا يلتفت إليهم إلا قليلاً ، ولا يشتمهم على عادته في كل تصحيح ، لأنه على ما يظهر كان يدخر «الشتيمة» كلها لتلميذ واحد ، هو ذلك التلميذ الخبيث .

- بهذه «ميم» تكتب يا ابني يا ابن الـ

قالها قبل أن يضع التلميذ كراسته أمامه .. فنظر التلميذ الخبيث إلى أستاده متباهاً وهو يسأل : «أى ميم يا أفندي ؟ .. إننى لم أكتب ميمماً» .

وكانت الكراسة قد استوت أمام الشيخ فنظر فيها ، فرأى أن الخبيث قد تخطى الصفحة إلى التي بعدها عن عمد أو سهو ..

فلم يسكت الشيخ بل راح ينطلق في شتمه لهذا السبب الجديد ، وقال له :
«تخطي الصفحة أيضاً يا ابني يا ابن الـ» .

ثم ضحك على الرغم منه ..

فنجا بهذه الفصحكة من العقاب ومن سخرة الطحرين في كل خميس ..

رحمهم الله جميعاً ، وأطال بقاء الأحياء منهم ..

إنهم كانوا أساتذة نافعين : نافعين بما علمونا من دروس ، ونافعين بما علمونا من أطوار بنى آدم ، ونافعين بما قصدواه وما لم يقصدوا ..

٠٠٠ أشياء جعلتني كاتباً

إننى أؤمن بكلمات التشجيع التى يتلقاها الناشئ فى مطلع حياته ممن يثق بهم ويعتز برأيهم فيما يمضى إلى وجهته على يقين من النجاح .

وأؤمن بالظروف وفعلها فى تمهيد أسباب النجاح وتيسير البدء فى طريقه ، ثم المثابرة عليه إلى غایاته القريبة والبعيدة .

وأؤمن بالرغبة فى الوجهة التى يتوجه إليها الناشئ والعمل الذى يختاره ويحس من نفسه القدرة عليه والاستعداد له مع الاجتهد والتذرع بالوسيلة الناجعة .

أؤمن بها مجتمعات ولا أؤمن بها متفرقات .

أؤمن بالتشجيع والظروف والرغبة تتلاقى معًا وتوافق فى الخطوات الأولى .. ولا أؤمن بها متفرقة يتيسر بعضها ويتعدى سائرها فى مستهل الطريق .

فكلمات التشجيع إذا امتنعت الظروف المواتية قلما تفيـد ، وكلمات التشجيع مع مؤاتاة الظروف تصـبـع كلها عـبـشـاـ إذا امـتنـعـتـ الرـغـبـةـ فىـ نـفـسـ النـاـشـئـ وـدـلـىـ اـمـتـنـاعـهـ عـلـىـ نـقـصـ الـاسـتـعـدـادـ أوـ عـلـىـ الرـغـبـةـ فـىـ عـلـمـ أـخـرـ يـضـلـ عـنـهـ حـتـىـ يـهـتـدىـ إـلـيـهـ ، وـفـىـ ظـرـفـ مـنـ الـظـرـوفـ .

واتجاهى إلى الصحافة - أو إلى الكتابة على الأصح - قد تلاقت فيه كلمات التشجيع مع مؤاتاة الظروف والرغبة الكامنة فى الطوبية من أيام الطفولة ، ولا أقول من أيام الصبا أو الشباب ، لأننى قد عرفت أننى أحب الكتابة وأرغب فيها قبل العاشرة ، ولم أنقطع عن هذا الشعور بعد ذلك إلى أن علمت بها واتخذتها عملا دائمًا مدى الحياة .

كان أستاذنا فى اللغة العربية والتاريخ الشيخ فخر الدين محمد الدشناوى يعرض كراساتى التى أكتب فيها موضوعات الإنشاء على كبار الزوار لمدرسة أسوان ، وكان كبار الزوار لهذه المدرسة أكثر عدداً وأعظم شأنـاـ من كبار الزوار لمدارس القطر كله ، لأن أسوان كانت قبلة العظماء والكبار من جميع الأرجاء فى موسم الشتاء .

واطلع الأستاذ الإمام «محمد عبده» على إحدى هذه الكراسات فقال : «ما أجدر هذا أن يكون كاتبًا بعد ! ..» .

فكانت هذه الكلمة أقوى ما سمعت من كلمات التشجيع ، ولكنها جاءت بعد سنوات فى القراءة ومحاولة الكتابة وإصدار الصحف التى تطبع على «البالوطة» .. ولا يقرأها أحد غيرى وغير تلميذين أو ثلاثة من الزملاء ..

كان والدى رحمة الله من أنصار الحركة العربية ، وتعلمت الأبجدية وكتابة الحروف الأولى وأنا أرى بين يدي أعداد مجلة «الأستاذ» وغيرها من مجلات عبدالله نديم ، ومعها أعداد قليلة من «أبو نصارة» والعروة الوثقى ونشرات الثورة التي كانت توزع في الخفاء .

وكنت أسمع على الدوام أخباراً في سير الكتاب الذي يصدرون هذه الصحف ولا سيما عبدالله نديم .

فأصدرت يوماً صحيفة باسم «التلميذ» محاكاة لصحيفة «الأستاذ» ، وافتتحتها بمقال عنوانه ؛ «لو كنا مثلكم لما فعلنا فعلكم» معارضة لمقال النديم المشهور : «لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا» يعني بها الأوريبيين .

واقترن بهذه الظروف رغبة ملحة في القراءة والكتابة ، بل في النظم والنشر المسجوع بعض الأحايين .

ولعل المرة الأولى التي عرفت فيها أنتني أكتب ما يستحق التنويه بين الأقران قد عرضت لي من قبيل المصادفة وأنا في السنة الثانية الابتدائية ، وكان مدرس الخط والكتابة عندنا الخطاط المشهور الشيخ مصطفى عاصم رحمة الله ، وهو والد زميلنا أحمد عاصم «بك» الذي أصبح بعد ذلك من رجال التربية المعوددين ..

طلب منا الشيخ مصطفى أن نكتب بالخط النسخ كلاماً من عندنا نصف به المدرسة التي نتعلم فيها ، ولم تكن دروس الإنشاء مقررة علينا في تلك السنة ، ولكنه أراد أن يجعلها درساً من دروس الخط بكتابته من عندنا غير كتابة «المشق» المرسوم .

ونسيت هذا الطلب لأنه «نافلة» لا يدخل في باب المقررات ، فلما التقيت قبل دق الجرس بزمائني سألني أحدهم : «هل كتبت ما طلبه مدرس الخط؟» فتذكرت ذلك الطلب «النافلة» وبذا لى أن كتابته خير من إهماله ، وأخرجت كراسة التجارب فكتبت صفحة من صفحاتها في هذا الموضوع .

وكان من المفاجآت لي وللزملاء الصغار - الذين علموا كيف كتبت ذلك الموضوع بعد تنبيههم إياي - أن المدرس لم يقرأ في الفصل غير ذلك الموضوع! وغار الزملاء فقال بعضهم :

- إنه يا أفندي كان ناسياً وذكرناه به في اللحظة الأخيرة ..

وظنوا أنهم يهبطون بدرجة الإنشاء في تقدير الشيخ ، فإذا هو يضاعف التقدير ويقول لهم :

- إن هذا أدل على الإجاده وحسن الاستعداد .

وبلغت السادسة عشرة وأنا أعمل في وظيفة حكومية ، وكان على أن أنتظر سنتين قبل التثبيت ، لأن الوظائف الدائمة لا تثبت قبل الثامنة عشرة !

فخطر لى ذات مرة أن أريح نفسي من الانتظار وأن أتوفر على إصدار صحيفة أسبوعية باسم «رجع الصدى» واتخذت مستشاري لهذا العمل «كتيباً» بحى الأزهر كنت أشتري منه الكتب الأدبية بأرخص الأثمان ، لأنها كانت مطبوعة - كلها - على الورق الأصفر ، وبعضها مرجوع يباع بنصف الثمن ، ولا يزيد ثمنه على بضعة قروش .

قال لى الكتبى الناصح :

إياك أن تفعلها وتترك خدمة «الميرى» من أجل الصناعة الملعونة !
ولم تمض ساعة حتى شهدت بعينى أنها فى الحق صناعة ملعونة كما قال ، أو
كانت على الأقل ملعونة إلى ذلك الحين !

على مقرية من المكتبة مطبعة صغيرة تطبع فيها صحيفة أو اثنان من الصحف الأسبوعية ، ويقف فيها «مدير الصحيفة» ينتظر الوكيل الذى أرسله إلى المشتركين للتحصيل وسداد حق المطبعة من محصول الاشتراكات .
وحضر الوكيل .

مخلوق أشعث أغبر ليس على بدنـه كسوة من قطعة واحدة ، ولحيته مرسلة بغـير قصد منه ، لأنها معلقة على قرش واحد يؤديه للحلاق ، ولا سـبيل إلـيه .. وبـادره المدير قائلا : - ماذا صنعت ؟ ..

فأخرج له إيصالاً معاداً من أحد المشتركين ، وقال له :

- إن صاحب هذا الإيصال قد أنبأنى أنه سدد الاشتراك لك قبل الأن ، وعندـه إيصال بالسداد .

قال المدير :

- وأين الإيصال الآخر ؟ ..

قال الوكيل :

- قطـعـهـ الرـجـلـ وـرـمـاهـ فـىـ خـلـقـتـىـ ! ..

فـانـتـهـرـهـ المـدـيرـ وـهـ يـضـرـبـهـ ،ـ وـقـالـ لـهـ :

- مـسـتـحـيـلـ ! .. إـنـ هـذـاـ الرـجـلـ مـمـنـ يـخـافـونـ مـنـ الـكـتـابـةـ عـنـهـمـ خـوفـ الـبـرـدـ ،ـ وـمـسـأـلـةـ بـنـتـهـ أـوـ أـخـتـهـ مـعـرـوـفـةـ يـخـشـىـ مـنـهـاـ الـفـضـيـحةـ ..ـ فـلاـ تـقـلـ لـىـ أـنـهـ قـطـعـ

الإيصال ورماه فى خلقتك الشريفة .. بل قل أنك قبضت الاشتراك وسكت به
كعادتك ..

وكانت بقية الفصل خنائق لا أدرى كيف انتهت ، لأننى لا أحب منظر
«الخناق» .. فتركتها وأنا أردد قول الكتبى الناصح :
ـ إنها صناعة ملعونة وأيم الله !

* * *

بعد هذا كانت علاقتى بالصحافة علاقة الكتاب من «منازلهم» ..
فكنت أكتب إلى «الجريدة» التى أشرف على تحريرها الأستاذ الجليل أحمد
لطفى السيد ، وكتبت قبلها إلى صحيفة «الظاهر» التى كان يصدرها «أبوشادى»
المحامى وإلى صحيفتى «المؤيد» و«اللواء» ونشر أول ما نشرتى من الشعر فى
إحداها ، وأذكر أنه فى صحيفة «اللواء» .

وإننى لأقرأ الصحف ذات يوم إذا بالأستاذ «محمد فريد وجدى» يعلن عن
صحيفة يومية ينوى أن يصدرها باسم الدستور ، ويطلب مخاطبته فى شئون
الصحيفة ، ومنها شأن التحرير .

فتناولت ورقة فى المقهى التى كنت أجلس بها بحى شبرا ، وكتبت إليه خطاباً
أرشح فيه نفسى للاشتغال بتحرير الدستور ، ولم يمض يومان حتى جاءنى الرد
منه بالقبول ، فذهبت إليه حيث اختار مكتب الصحيفة الأول بدار مطبعة
«الواعظ» لصاحبها الأستاذ محمود سلامه بدرب الجماميز ، وعدت لاستقبال من
وظيفتى الحكومية وأبدأ حياتى الصحفية المنتظمة ، ولم أزل أعمل فى تحرير
«الدستور» حتى اضطررت إلى التوقف عن الصدور .

وإننى لأحمد الله أن كانت بدايـة عملى المنتظم فى الصحافة مع رجل
كالأستاذ وجدى رحـمه الله قليل النظير فى نزاهـته وصـدقـه وغـيرـته عـلى المصلـحة
القومـية واستعدادـه للتضـحـية بـمالـه وراحتـه فى سـبيل المـبدأ الذى يـرعاـه ولا
يتـزـحزـحـ عـنه قـيدـ أـنـمـلة ، فـقد عـطلـ صـحـيفـتـه وـبـينـ يـديـه عـرضـ سـخـىـ من جـمـاعـة
«ـتـرـكـياـ الفتـاةـ» الـتـى أـرـادـتـ أـنـ تـتـخـذـ مـنـهـ لـسانـ حالـ لهاـ فـىـ مـصـرـ وـالـشـرقـ بـالـلـغـةـ
الـعـرـبـيـةـ ، وـهـذـا غـيـرـ العـرـوـضـ السـخـيـةـ الـتـى توـالـتـ عـلـيـهـ مـنـ جـانـبـ «ـالـمعـيـةـ
الـخـدـيـوـيـةـ» .. فـأـقـدـمـ عـلـىـ تعـطـيلـ الصـحـيفـةـ لـكـيـلاـ يـخـالـفـ عـقـيـدـةـ مـنـ عـقـائـدـهـ
الـسـيـاسـيـةـ مـرـضـاـةـ لـهـؤـلـاءـ أـوـ هـؤـلـاءـ وـبـاعـ كـتـبـهـ لـيـؤـدـىـ حـسـابـ العـمـالـ وـالـصـفـافـينـ
وـالـمـوـظـفـينـ مـلـيـمـاـ بـمـلـيمـ .

أـحـسـنـ اللـهـ ذـكـرـاهـ فـىـ مـثـواـهـ .

وـأـكـثـرـ اللـهـ بـيـنـ الصـحـفـيـنـ مـنـ يـنـحـوـ فـىـ هـذـهـ الصـنـاعـةـ «ـالـمـبـارـكـةـ» مـنـحـاـهـ .

٠٠٠ شجرت وظائف الحكومة

«الاستخدام رق القرن العشرين» .

كان هذا عنوانا كتبته في «الجريدة» حوالي سنة ١٩٠٧ وأنا في وظيفتي الحكومية ، وكانت يومئذ على أهبة «الاستفقاء» منها للاشتغال بالصحافة ..

ومن «السابق» التي أغبط بها وأحمد الله عليها أنتي كنت - فيما أرجح - أول موظف مصرى استقال من وظيفة حكومية بمحض اختياره ، يوم كانت الاستقالة من الوظيفة والانتحار في طبقة واحدة من الغرابة وخطل الرأى عند الأكثرين ، بل ربما كانت حوادث الاستقالة أnder من حوادث الانتحار .. ولو ظفرنا اليوم بإحصاء ثابت لحوادثهما معًا منذ بدأت عندنا الوظائف الحكومية إلى أوائل القرن العشرين لتحقق لنا أن الاستقالة من الوظيفة كانت أnder من الانتحار ، ولا يخرج هذا عن حيز المعقول ، لأن الوظيفة كانت معيشة وشرفاً ومزية اجتماعية ، ولأن عدد الموظفين الذين تسجل عنهم حوادث الاستقالة أقل من عدد الجمهرة الكبرى التي تسجل عنها حوادث الانتحار ، ولعلنا لو أخذنا في العدددين بالنسبة المئوية لما اختلفت دلالة الإحصاء .

كان الشرف كله يومئذ منوطاً بالوظيفة الحكومية ، وكانت كلمة القائلين أن خدمة «الميرى» شرف مثلاً سائراً في كل طبقة من طبقات الأمة ، ويضارعه في الشيوق قول القائلين : «إن فاتك الميرى اتمرغ في ترابه» وهو القول القاطع الذي شاع وظل شائعاً إلى عهد قريب .

وليس في الوظيفة الحكومية لذاتها معابة على أحد ، بل هي واجب يؤديه من يستطيع ، ولكنها إذا كانت باب المستقبل الوحيد أمام الشاب المتعلّم فهذه هي المعابة على المجتمع بأسره ، وتزداد هذه المعابة حين تكون الوظيفة - كما كانت يومئذ عملاً آلياً لا نصيب فيه للموظف الصغير والكبير غير الطاعة وقول التسخير ، وأما المسخر المطاع فهو الحاكم الأجنبي الذي يستولى على أدلة الحكم كلها ، ولا يدع فيها لأبناء البلاد عملاً إلا كعمل المسامير والآلات في تلك الأدلة .

* * *

وأعود فأقول مرة أخرى إن نفورى من الوظيفة الحكومية فى مثل ذلك العهد الذى يقدسها كان من السوابق التى أغتبط بها وأحمد الله عليها .. فلا أنسى حتى اليوم أننى تلقيت خبر قبلى فى الوظيفة الأولى التى أكرهتني الظروف على طلبها كأننى أتلقي خبر الحكم بالسجن أو الأسر والعبودية . إذ كنت أؤمن كل الإيمان بـأن الموظف رقيق القرن العشرين .

وقد اشتغلت بوظائف كثيرة فى المديريات ومصلحة التلغراف ومصلحة السكة الحديد وديوان الأوقاف ، ويلحق بها - أى بهذه الوظائف - عملى فى تعليمة الخزان ، لأنه كان بمثابة الوظيفة الحكومية فى ذلك الحين .

وأذكر أننى تقدمت لامتحان فى «ناظرة الحقانية» يوم كان الكاتب المشهور فى زمانه «أحمد سمير» رئيساً من الرؤساء الكتابيين فيها ، وكان موضوع الامتحان حساباً وترجمة وإنشاء عربياً ، سئلنا فيه أن نكتب تاريخ حياتنا فكتبت تاريخ حياتى فى الوظائف الحكومية قبلها ، ومهدت له بمقدمة عن الوظائف وما ينبغى لها من الإصلاح ، ونظر الأستاذ أحمد سمير فى ورق الإنشاء أمامنا فقال : «يظهر أن خوجة هذا الطالب كان من المجاورين الحناشيس فى اللغة العربية» .. ثم أتم القراءة فقال لي بعد أن دعيت باسمى : «ومن لنا بأنك تبقى عند غيرنا أكثر مما بقيت عند غيرنا .. أنت يا بنى تريد إصلاح الوظائف كلها ، ونحن مش قدك ، والله العظيم !» .

فقلت له : «والآن تستطيع أن تعتبر ورقة الطلب ورقة استعفاء ، مادامت هذه طريقتكم فى الامتحان » .

* * *

ولو أذرك أن أسجل تجاري فى تلك الوظائف جمیعاً لما وسعتى المقالات فإنها تستوفيه الكتب المطولات .

ولكننى أذكر هنا تجربة أو اثنتين من مهازلها ومائتها ويقاس عليها غيرها من هذا الباب ، وغير هذا الباب ..

كانت الرسائل تسمى يومئذ «بالإفادات» ..

وكانت «للإفادة» صيغة مقررة مكررة لا تختلف من الدبياجة إلى التقfileة كما كانوا يسمونها ، وكان من نماذجها ترتيب الألقاب من «حميتلو» إلى «رفعتلو» إلى «سعادتلو» إلى «عطوفتلو» بين ملاحظ البوليس وناظر الھالية الذى كنا تابعين له فى أقسامنا المالية بالمديريات ..

فإذا قلت «صاحب الحمية ، أو صاحب العطوفة» بدلًا من «حميتو» أو «عطوفتو» بطلت الإفادة ووجب إعادتها من جديد .

وكذلك تبطل الإفادة إذا ختمتها بعبارة غير عبارة التقفيلة المعهودة «وهذا ما لزم عرفناكم به أفنديم» .

وتخلل الإفادة قوالب تعبيرية «أو كليشيها» على هذا المثال لا يجوز فيها التبدل ولا التقديم ولا التأخير .

وأكتب عشرين أو ثلاثين إفادة دفعه واحدة فإذا هي تعاد إلى «التصحيحها وكتابتها مرة أخرى بالأسلوب المعهود» .

* * *

ويتكرر هذا مرة بعد مرة ولا متسع من الوقت لكتابة الإفادات جميًعا فضلاً عن كتابتها وتغييرها بلا سبب غير هذا الجمود على الأسلوب العتيق .

ويتفق يوماً أن أدخل على «الباشكاتب» بالإفادات المشطوبة فأجده منفرداً في المكتب ، وتزين لي «شقاوة» التلمذة أن أعبث بالرجل عبثاً لم يكن يخطر له على بال ، وبخاصة هذا الباشكاتب الذي اشتهر في مديرية القطر بالحزم والمهابة والدراءة بأصول الإدارة وأساليب المكاتب .

قلت له في كل بساطة : «يا أيها الحمار الأزرع .. أمثلك يصحح الكتابة العربية وأنت لا تعرف منها غير الهجاء وكتابة (العرضحالات)؟!» .

ولم يصدق الرجل أذنيه . وظن أنه أمام مجنون لا يؤمن أن يبطش به ويعتدى على حياته ، فقفز من كرسيه إلى خارج الحجرة ينادي الفراشين والموظفين المساعدين ، ثم ذهب إلى مكتب وكيل المديرية يشكوني إليه ، لأن المدير - محمد محب باشا - كان غائباً عن البلد ، وينوب عنه «محمد خليل نائل بك» الذي كان معروفاً في ذلك الوقت بأنه رجل «رياضي» بحبوح قبل أن تشيع كلمة الـ «سبورت» .

ويدعونى الوكيل فأقول له مقسمًا أنتي ما خاطبت الرجل إلا بما يستحقه من الاحترام . ويبيتسن الوكيل الظريف ، ثم يقول للبك الباشكاتب :
- دعه لي .. فإنتي سأنظر في أمره «بما يستحقه» .

وما كاد الباشكاتب يولي قفاه حتى ضمحك الوكيل وكاد أن يقهقه ، ثم اصطنع العbos وهو يقول :

- اسمع يا بني .. شغل الحواة في المدارس لا ينفع هنا في الوظائف ، ولو ثبتت عليك أنك تطاولت على حضرة الباشكاتب لكان جزاً لك الفصل العاجل ، فلا تعد إليهامرة ثانية .

وقد علمت بعد ذلك أن الباشكاتب قد استكبر على مهابته المشهورة أن يذاع عنه أن موظفاً صغيراً قال له : «يا حمار» .. فلم يذكر للوكيل إلا بعض ما قيل ! وتجربة أخرى في هذا الديوان نفسه أنها كنا نعمل بقسم المكلفات أى تدوين الملكيات الزراعية أيام فك الزمام ، وليس أكثر من هذه الأيام من العقود الواردة من المحاكم ومن الأقاليم فلا طاقة للموظف بإنجاز العمل مرة واحدة فضلاً عن إنجازه مرتين .

وأقر .. نعم أقر ، وأقولها الآن وأنا أضحك كما يضحك القارئ وهو يتصرفها .. أقر عددًا من العقود أنجزه كل يوم ولا أزيد عليه ولو تراكمت الأوراق على المكتب كالتلال .

ومن هذه العقود عقد أذكره تماماً .. أنه كان لأمين الشمسي باشا والد السيد على الشمسي الوزير السابق المعروف ، مضت عليه أشهر وهو بانتظار التنفيذ في الموعد الذي قررته لنفسه وجاء الباشا يسأل عنه فرأيته لأول مرة ، ورأيته لا يغضب ولا يلوم حين تبيّنت له الأعذار التي استوجبت ذلك القرار .

* * *

وإذا كان هذا قليلاً من كثير من تجاربى في وظائفى الحكومية فلا أحسب القارئ المعاصر يعجب لاستقالتى منها واحدة بعد واحدة .. غير أننى أقول اليوم كما أقول كلما ذكرت أمثال هذه التجارب ..

(وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم) (١).

وهكذا مرت بي تجارب الوظائف على خير لاشك فيه ، فلولا اشتغالى بالمدierيات بين قنا ، والزقازيق ، والفيوم ، ولو لا تنقلت فيها بين أعمال تتصل بالملكيات الزراعية ، وأخرى تتصل بمساوى الأوقاف وغيرها بالمواصلات ومشروعات الأبنية والمقاولات ، لفافتى كثير ، بل كثير جداً ، من العلم بحقائق بلدى ومواطن الإصلاح فيه .

ولو أطلعتم على ما في الغيب لا خترتم الواقع .

ولعلى لم أكن اختار هذه الوظائف بعينها ، ولكننى اختار أن أعرف ما عرفت من حقائق وطني بالثمن الذى « تستحقه » .. وهى تستحق الكثير .

(١) البقرة : (٢١٦)

الفصل الثالث

٠٠٠ قلمى

من ذكريات المدرسة التي أستعيدها الآن لمناسبتها ، حادث شجار عنيف بين تلميذين على قلمين من أقلام الكتابة العربية ، يدعى كلاهما أن أحد القلمين قلمه ، ويرد الآخر إلى صاحبه .

أكان النزاع على القلم المطلوب من أجل قيمته الغالية ؟ ..
كلا .. فإن قيمة القلمين معاً لم تكن تزيد عن ثلاثة مليمات أو أربعة ، لأنهما من أقلام البوص التي كانت توجد يومئذ في جميع الأسواق .

فلم يكن النزاع بين الزميين لغلو الثمن ، وإنما كان لنفاسة أخرى غير نفاسة المال ، وهي أن القلم الذي تنازعوا عليه كان من الأقلام التي براها الأستاذ وقطعها بيديه ، فهو صالح لتجويد الخط ، وضمان بعض الدرجات في الامتحان !

كان ذلك يوم كان القلم ثمرة من ثمرات الطبيعة ، وكان لكل قلم شخصية ممتازة بما يكتبه من نوع الخط ، ثُلثًا كان ، أو نسخًا ، أو رقعة ، أو حرفاً من الحروف الديوانية أو الفارسية .. ويوم كانت لكل قلم شخصية ممتازة يستمدها من براه ، وقطه ، وهياه للكتابة ، وقلما يحسن ذلك غير أستاذ خبير بالأقلام ، وبما تحظى الأقلام .

كان ذلك التقريب شأن كل قلم في المدرسة ، وفي غير المدرسة ، فكان قلم البوص هو القلم المعتمد بين التلاميذ ، وبين الموظفين ، وبين الكتبة في كل مكان .
أما اليوم فلا «شخصية» للأقلام ، لأنها جمیعاً من صنع «الفاپریکة» ، التي تخرج مصنوعاتها بالآلاف ، وعشرات الآلاف !

إنها «نمر» مرصوصة في صناديق ، وكل قلم فيها ككل بلا اختلاف في غير علامة «الفاپریکة» أو قدم القلم وجدته .. وفيما عدا ذلك فال أقلام جمیعاً سواء !

* * *

وكنت في المدرسة من المعدودين بين المتقدمين في الخط ، فلم تكن درجتي فيه تقل عن الدرجة العليا بأكثر من درجتين أو ثلاث .

ولكنني لم أكن من المتقدمين في صناعة البرى ، والقط ، وتنويعها على حسب الحروف والخطوط .. وكانت أعمول في هذه الصناعة على الأستاذ ،

وأحتفظ بأقلامه طوال العام ، فلما تركت المدرسة لبست برهة أنتفع بأقلامى المدرسية ، ثم عدلت عنها مضطراً إلى الريشة المعدنية ، ولم أز أكتب بها في الدواوين ، حتى اشتغلت بالصحافة ، ووُجِدَت الكلفة في الاستئلاء ، وحمل الدواة إلى كل جهة أذهب إليها وأحتاج إلى الكتابة فيها ..

ولم يكن من اليسير أن أحصل على قلم «مداد» ، أو قلم «أمريكانى» كما كان يسمى في تلك الأيام ، فلتجأت إلى استخدام القلم الرصاص .

واتبعنى القلم الرصاص لأنه ينتصف ، ويؤلم الأصابع بضغطه ، ويترك فيها مثل علامة السجدة في جباء المصليين ، ولكنها علامة لا تنفع أصحابها كما تنفع علامة السجدة من ينتفعون بها في سوق الرياء !

فما هو إلا أن تيسّر لي ثمن القلم المداد ، أو القلم «الأمريكانى» ، حتى استبدلته بأقلام الرصاص ، ومازالت أكتب به إلى اليوم .

وأتفق أنتى عملت في عدة صحف صباحية على التوالى ، فظهر لي أن المداد الأحمر «أريح» للنظر في ضياء الليل ، فهو المداد الذي استعملته إلى عهد قريب ..

هل احتفظت بقلم من أقلامى هذه أو غيرها لمناسبة خاصة تهمنى ذكرها؟ ..

نعم .. احتفظت بأقلام ثلاثة ، كان لاحتفاظى بكل منها سبب وتاريخ ، وكان كل منها باينًا لصاحبيه في سببه وتاريخه ..

قلم منها احتفظت به لأنه كان هدية من إنسان أعزه ، وكان قد كتب به قصيدة من شعرى في وصف ليلة على النيل ، ثم أهدى إلى القلم ، والصحفية المكتوبة بخطه .

وعلم ثالث كتبت به الفصول الأولى من كتابى عن «ابن الرومي» ، ثم أدركنى وأدركه شؤم الرجل ، وسوء طالعه ، فدخلت السجن ، ودخله معى حيث قضى فيه تسعه أشهر ، ولكن فى مخزن الأمانات !

وعلم آخر أخرجه لخصومى السياسيين ، وأقسمت له لتسقطن الوزارة النسيمية قبل أن ينبرى هذا القلم .. وقد كان من أجود الأقلام المعروفة «بالكونية» أهدىت بصندوق من نوعه ، فجعلت أراوح فى الكتابة العجلى بينه وبين القلم المداد .

أين هذه الأقلام الآن؟ هل هي محفوظة كما احتفظت بها في أوانها؟

كلا .. مع الأسف ، فليس عندي منها اليوم قلم واحد ، لأنها ضاعت بسبب وتاريخ ، كما كان لها في الاحتفاظ بها سبب وتاريخ .

العلم الذى أهدى إلى إنسان عزيز عاد بعد فترة من الوقت ، فأصبح فى حياتى غصة لاتطاق .

فحملته ذات ليلة ، وحملت معه الصحيفة التي كتبها بيد ذلك الإنسان العزيز ،
ووهبته للنيل في الموضع الذي وصفته بذلك القصيد !

والقلم الذي صاحبني في السجن ، أفرجت عنه ، وأصررت على أن أتم به
الكتاب الذي شرع معى في تأليفه .

ثم أدركه نحس «ابن الرومي» مرة أخرى ، فامتدت إليه يد سارق لا بد أنه حبس
بعد ذلك .. ! إذا جرى «ابن الرومي» على عاداته ،سامحه الله !

فإنتى على ما أظن قد عثرت بالقلم عينه ، وإن خطر لي في ذلك الحين - ولا
يزال يخطر لي ساعة - أنه شبيه به مشابهة الزميلين في صنعة واحدة ..

ولقد رثيت القلم المسروق بقصيدة أقول في مطلعها :

زاملنى في السُّجْنِ ذاك القَلْمَ
وَنَالَهُ مَا نَالَنِي مِنْ قَسْمٍ
ومنها أقول :

أَمَا وَقَدْ فَارْقَتْنَا يَا قَلْمَ
فَخَيْرٌ مَا أَرْجُوهُ أَلَا تُرَى
وَلَا تَخُطُّ الْجَهْلَ فِي صَفَحَةٍ
وَلَا تَكُنْ يَا قَلْمَنِي أَلَّهُ
بَدَأْتَ فِي الأَوْجِ فَلَا تَنْحَدِرِ

ثم عثر بقلم «مرجوع» من لونه ، ونقشه ، وعلامة فاشتريته وقلت فيه :

شَبَّيهُ الْقَلْمَ الْمَفْقُو
وَفِي الْبَيْاعِ وَالشَّا
سَتُغْنِيَنِي إِذَا اسْتَغْنَيْ
أَوْ اسْتَغْنَى بِتَمَثَالِ

ولكننى أعطيته لمن طلبه في الإسكندرية ، وذهب به إلى الشاطئ ، فقضاء ..
أما القلم الذي راحت به على الوزارة النسيمية ، فقد احتفظت به زماناً بعد
سقوط تلك الوزارة ، ثم التبس على بفضلات من أقلام أخرى تشبهه ، فلم أsha أن
أحتفظ بنسخ متعددة لا أدرى أيها الجدير بالاحتفاظ ، وتركته مع شببهات لما
يصيبه من صروف الأقدار .

وقيل لي كثيراً : «احتفظ بهذا القلم أو ذاك لأنك كتبت به هذا الكتاب أو
ذاك» .. فلم أجده معنى للاحتفاظ بقلم تغنى عنه في عملي ، وفي نظرى أقلام .

••• لِمَذَا اهْبَتِ الْفُرَائِدُ؟ •••

أول ما يخطر على البال - حين يوجه هذا السؤال إلى أحد مشتغل بالكتابة - أنه سيقول : إننى أهوى القراءة لأننى أهوى الكتابة ! .

ولكن الواقع أن الذى يقرأ ليكتب وكفى هو «موصل رسائل» ليس إلا .. أو هو كاتب «بالتبعة» وليس كاتباً بالأصالة . فلولم يسبقه كتاب آخرون لما كان كاتباً على الإطلاق ، ولو لم يكن أحد قبله قد قال شيئاً لما كان عنده شيء يقوله للقراء .

وأنا أعلم فيما أعهده من تجاربى أننى قد أقرأ كثيرة لا أقصد الكتابة فى موضوعاتها على الإطلاق ، وأذكر من ذلك أن أديباً زارنى فوجد على مكتبى بعض المجلدات فى غرائز الحشرات ، فقال مستغرباً ، ومالك أنت والحشرات؟ .. إنك تكتب فى الأدب وما إليه ، فأية علاقة للحشرات بالشعر والنقد والمجتمع؟

ولوشئت لأطلت فى جوابه .. ولكننى أردت أن أقتضب الكلام بفكاهة تبدو كأنها جواب وليس فيها جواب ..

فقلت : نسيت أننى أكتب أيضاً فى السياسة !

قال : نعم نسيت والحق معك ! .. فما يستغنى عن العلم بطبعات الحشرات رجل يكتب عن السياسة والسياسيين فى هذه الأيام !

والحقيقة كما قلت مراراً أن الأحياء الدنيا هى «مسودات» الخلق التى تراءى فيها نيات الخالق كما تراءى فى النسخة المنقحة ، وقد تظهر من «المسودة» أكثر مما تظهر بعد التنقیح . فإذا أطلع القارئ على كتاب فى الحشرات ، فليس من اللازم اللازم أن يطلع عليه ليكتب فى موضوعه ، ولكنه يطلع عليه لينفذ إلى بواطن الطبائع وأصولها الأولى ، ويعرف من ثم كيف نشأ هذا الإحساس أو ذاك الإحساس ، فيقترب بذلك من صدق الحس وصدق التعبير ، ولو فى غير هذا الموضوع .

كل ذلك لا أحب أن أجيب عن السؤال كما أجاب قارئ التاريخ فى البيت المشهور :
وَمَنْ وَعَى التَّارِيْخَ فِي صَدَرِهِ أَضَافَ أَعْمَارًا إِلَى عُمُرِهِ

فليست إضافة أعمار إلى العمر بالشيء المهم إلا على اعتبار واحد ، وهو أن يكون العمر المضاف مقداراً من الحياة لا مقداراً من السنين ، أو مقداراً من مادة الحس والفكر والخيال ، لا مقداراً من أخبار الواقع وعدد السنين التى وقعت

فيها . فإن ساعة من الحس والفكر والخيال تساوى مئة سنة أو مئات من السنين ،
ليس فيها إلا أنها شريط تسجيل لطائفة من الأخبار وطائفة من الأرقام .

كلا .. لست أهوى القراءة لأكتب ، ولا أهوى القراءة لأزداد عمراً في تقدير الحساب ..
 وإنما أهوى القراءة لأن عندي حياة واحدة في هذه الدنيا ، وحياة واحدة لا
تكفيني ، ولا تحرك كل ما في ضميري من بواعث الحركة .

والقراءة دون غيرها هي التي تعطيني أكثر من حياة واحدة في مدى عمر الإنسان الواحد ،
لأنها تزيد هذه الحياة من ناحية العمق ، وإن كانت لا تطيلها بمقادير الحساب ..

فكرتك أنت فكرة واحدة ..

شعورك أنت شعور واحد ..

خيالك أنت خيال فرد إذا قصرته عليك ..

ولكنك إذا لقيت بفكrtك فكرة أخرى ، أو لقيت بشعورك شعور آخر ، أو
لقيت بخيالك خيال غيرك .. فليس قصارى الأمر أن الفكرة تصبح فكريتين أو أن
الشعور يصبح شعورين ، أو أن الخيال يصبح خياليين ..

كلا .. وإنما تصبيع الفكرة بهذا التلاقى مئات من الفكر فى القوة والعمق والامتداد .
والمثل على ذلك ، محسوس فى عالم الحس والمشاهدة ، ومحسوس فى عالم
العاطف والشعور .

ففى عالم المشاهدة يجلس المرء بين مرأتين فلا يرى إنساناً واحداً أو إنسانين اثنين ،
ولكنه يرى عشرات متلاحقين فى نظره إلى غاية ما يبلغه النظر فى كل اتجاه .

وفى عالم العاطف والشعور نبحث عن أقوى عاطفة تحتويها نفس الإنسان فإذا
هي عاطفة الحب المتبادل بين قلبين .. لماذا ؟ لأنهما لا يحسان بالشىء الواحد
كما يحس به سائر الناس ..

لا يحسان به شيئاً ولا شيئاً ، وإنما يحسان به أضعافاً مضاعفة لا تزال
تتجاوب وتنمو مع التجاوب إلى غاية ما تتسع له نفوس الأحياء .

وهكذا يصنع التقاء مرأتين ، وهكذا يصنع التقاء قلبين .. فكيف بالتقاء
العشرات من المرائى النفسية فى نطاق واحد ؟
وكيف بالتقاء العشرات من الضمائر والأفكار ؟
إن الفكرة الواحدة جدول منفصل .

أما الأفكار المتلاقيّة فهي المحيط الذي تجتمع فيه الجداول جميعاً ، والفرق بينهما وبين الفكرة المنفصلة كالفرق بين الأفق الواسع والتيار الجارف ، وبين الشط الضيق والموج المحصور .

وقد تختلف الموضوعات ظاهراً أو على حسب العناوين المصطلح عليها ، ولكنك إذا ردتها إلى هذا الأصل كان أبعد الموضوعات كأقرب الموضوعات من وراء العناوين .

أين غرائز الحشرات مثلاً من فلسفة الأديان ؟

وأين فلسفة الأديان من قصيدة غزل وقصيدة هجاء ؟

وأين هذه القصيدة أو تلك من تاريخ نهضة أو ثورة ؟

وأين ترجمة فرد من تاريخ أمة ؟

ظاهر الأمر أنها موضوعات تفترق فيما بينها افتراق الشرق من الغرب والشمال من الجنوب وحقيقة الأمر أنها كلها مادة حياة ، وكلها جداول تنبثق من ينبع واحد وتعود إليه .
غرائز الحشرات بحث في أوائل الحياة .

وفلسفة الأديان بحث في الحياة الخالدة الأبدية .

وقصيدة الغزل أو قصيدة الهجاء قبسان من حياة إنسان في حالى الحب والنقاوة .
ونهضة الأمم أو ثورتها مما جَيَشَانَ الحياة في نفوس الملاليين ، وسيرة الفرد العظيم معرض لحياة إنسان ممتاز بين سائر الناس .

وكلها أمواج تتلاقى في بحر واحد ، وترجع بنا من الجداول إلى المحيط الكبير ..
ولم أكن أعرف حين هويت القراءة أتنى أبحث عن هذا كله ، أو أن هذه الهواية تصدر من هذه الرغبة .

ولكنني هويتها ونظرت في موضوعات ما أقرأ فلم أجده بينها من صلة غير هذه الصلة الجامعية ، وهي التي تتقارب بها القراءة عن فراشة ، والقراءة عن المعرى وشكسبير .
لا أحب الكتب لأنني زاهد في الحياة .

ولكنني أحب الكتب لأن حياة واحدة لا تكفينى .. ومهما يأكل الإنسان فإنه لن يأكل بأكثر من معدة واحدة ، ومهما يلبس فإنه لن يلبس على غير جسد واحد ، ومهما يتنقل في البلاد فإنه لا يستطيع أن يحل في مكانين ، ولكنه بزاد الفكر والشعور والخيال يستطيع أن يجمع الحيوانات في عمر واحد ، ويستطيع أن يضاعف فكره وشعوره وخياله كما يتضاعف الشعور بالحب المتبادل ، وتتضاعف الصورة بين مرأتين .

٠٠٠ الْكِتَبُ الْمُهْفَضُ إِلَيْهِ عَنِ الْمُجِي

هذا موضوع جليل ، ولكن هل تعرف إنى أفضل قراءة كتب فلسفة الدين ، وكتب التاريخ الطبيعي ، وترجم العظام ، وكتب الشعر ؟

إنى أقرأ هذه الكتب وأعتقد أن العلاقة بينها متينة ، وإن كانت تفترق فى الظاهر ، لأنها ترجع إلى توسيع أفق الحياة أمام الإنسان .. فكتب فلسفة الدين تبين إلى أى حد تمتد الحياة قبل الولادة وبعد الموت . وكتب التاريخ الطبيعي تبحث فى أشكال الحياة المختلفة وأنواعها المتعددة ، وترجم العظام ، معرض لأصناف عالية من الحياة القوية البارزة ، والشعر هو ترجمان العواطف ، فإننى أفضل من الكتب كل ما له مساس بسر الحياة .

* * *

وتسألنى ما هو سر الحياة ، فأقول على الإجمال إننى أعتقد أن الحياة أعم من الكون ، وأن ما يرى جامداً من هذه الأكون أو مجرد من الحياة إن هو في نظرى إلا أدلة لإظهار الحياة في لون من الألوان أو قوة من القوى .. والحياة شيء دائم أبدى أزلى ، لا بداية له ولا نهاية ..

فإذا كنت تستطيع أن تعرف سر الله عرفت سر الحياة ، ولكننا مطالبون بأن نحفظ لأنفسنا في هذا المحيط الذي لا نهاية له أوسع دائرة يمتد إليها شعورنا وإدراكنا . والكتب هي وسائل الوصول إلى هذه الغاية ، وهي النواخذة التي تطل على حقائق الحياة ، ولا تغنى النواخذ عن النظر .

ومن جهة أخرى فإن الكتب طعام الفكر ، وتوجد أطعمة لكل فكر كما توجد أطعمة لكل بنية ، ومن مزايا البنية القوية أنها تستخرج الغذاء لنفسها من كل طعام وكذلك الإدراك القوى يستطيع أن يجد غذاء فكريا في كل موضوع . وعندى أن التحديد في اختيار الكتب إنما هو كالتحديد في اختيار الطعام . وكلما لا يكون إلا لطفل في هذا الباب أو مريض ، فاقرأ ما شئت تستفيد إذا كان لك فكر قادر أو معدة عقلية تستطيع أن تهضم ما يلقى فيها من الموضوعات إلا فاجعل القابلية حكمًا لك فيما تختر لأن الجسم في الغالب يغذيه ما نشهيه .

ولا تغنى الكتب عن تجارب الحياة ، ولا تغنى التجارب عن الكتب ، لأننا نحتاج إلى قسط من التجربة لكي نفهم حق الفهم ، أما أن التجارب لا تغنى عن الكتب ، فذلك لأن الكتب هي تجارب آلاف من السنين في مختلف الأمم والعصور ولا يمكن أن تبلغ تجربة الفرد الواحد أكثر من عشرات السنين .

ولا أظن أن هناك كتاباً مكررة لأخرى ، لأنني أعتقد أن الفكرة الواحدة إذا تناولها ألف كتاب أصبحت ألف فكرة ، ولم تعد فكرة واحدة .. ولهذا أتعتمد أن أقرأ في الموضوع الواحد أقوال كتاب عديدين ، وأشعر أن هذا أمنع وأنفع من قراءة الموضوعات المتعددة . فمثلاً أقرأ في حياة نابليون أكثر من أقوال ثلاثين كاتباً وأنا واثق من أن كل نابليون من هؤلاء هو غير نابليون الذي وصف في كتب الآخرين .

أما تأثير كل من أنواع الكتب الثلاثة : العلمية ، والأدبية ، والفلسفية فهو أن الكتب العلمية تعلمنا الضبط والدقة ، وتفيدنا المعرف المحدودة التي يشترك فيها جميع الناس ، والكتب الأدبية توسيع دائرة العطف والشعور ، وتكشف لنا عن الحياة والجمال ، والكتب الفلسفية تنبه البصيرة وملكة الاستقصاء وتنعدى بالقارئ من المعلوم إلى المجهول ، وتنتقل به من الفروع إلى الأصول .

وكل من هذه الأنواع لازم لتشقيف الإنسان ، وتعريفه جوانب هذا العالم الذي يعيش فيه . وأنا أفضلها على هذا الترتيب : الأدبية ، فالفلسفية ، فالعلمية .

ولا يستطيع القارئ أن يحصر مقدار الفائدة التي يجنيها من كتاب ، فرب كتاب يجتهد في قراءته كل الاجتهد ، ثم لا يخرج منها بطايل ، ورب كتاب يتصرفه تصفحاً ، ثم يترك في نفسه أثراً عميقاً في كل رأي من آرائه ، وكل اتجاه من اتجاهات ذهنه ، فأنت لا تعرف حق المعرفة «الطريقة» التي تضمن الفائدة التامة من قراءة الكتاب ، ولكن لعل أفضل ما يشار به - على الإجمال - هو ألا تكره نفسك على القراءة ، وأن تدع الكتاب في اللحظة التي تشعر فيها بالفتور والاستقال .

أما مقياس الكتاب المفيد فإنك تتبينه من كل ما يزيد معرفتك وقوتك على الإدراك والعمل وتذوق الحياة ، فإذا وجدت ذلك في كتاب ما ، كان جديراً بالعناية والتقدير ، فإننا لا نعرف إلا لنعمل أو لننشر ، أما المعرفة التي لا عمل وراءها ولا شعور فيها فخير منها عدمها وعلى هذا المقياس تستطيع أن تفرق بين ما يصلح للثقافة والتهذيب وما لا يصلح .

٠٠٠ منهجي في كتابة المقالات

أكتب أكثر المقالات الصحفية للمجلات الأدبية باقتراح من الزملاء المشرفين على تحريرها ، وأحب بهذه الطريقة كل الترحيب لأنني عرفت بالتجربة الطويلة أن محرر المجلة أولى باقتراح موضوعاتها ، وأقدر على اختيارها واجتناب التكرار فيها ، إذ هو أعرف بمنهج صحفته وأذواق قرائه وبرنامج الأعداد التي تصدر منها مبوبة ، أو مرتبة على حسب مواعيدها .. فهو يعفى الكاتب من مؤنة البحث عن موضوع يوافق هذه المطالب ويجهله أكثر الأحيان أو لا يعلم بتفاصيله علم صاحب الدار .

فاقتراح موضوع المقال من قبل المجلة ييسر لمحررها أن يلاحظ مطالبتها ، ويعفى الكاتب من البحث عنها ، وليس فيها مشقة على الكاتب في استجابة الاقتراح كائناً ما كان .. لأنني ، من وجهة نظرى ، لا أرى عنواناً من العناوين غير صالح للكتابة فيه ، ولو على سبيل الاستطراد وإبداء وجهة النظر في قلة صلاحه أو قلة جدوى الكتابة فيه ، إن رأى الكاتب أنها لا تجدى في حالة من الحالات ، أو في جميع الحالات .

أما المقالات الصحفية التي كتبتها في صحف يومية توليت تحريرها فقد كانت الصعوبة الكبرى في تقديم موضوع منها على موضوع ، أو في تأجيل بعضها إلى ما بعد يومه ومناسبته ، لأننا تولينا العمل الصحفي في إبان الحركة الوطنية قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها ، فلم يخل يوم من أيام كتابتنا الصحفية من خبر خارجي أو داخلي ، يستدعي المبادرة بالتعليق عليه ، ولم تزل أعمال الإصلاح التي يشتغل بها ولاة الأمور ويدعوا إليها المصلحون الوطنيون سيلاً متدفقاً بالأراء والنصائح والمشروعات والبرامج على اختلاف المذاهب والنيات ، بين أنصار الدعوة من جانب وبين معارضيها من جانب واحد أو جوانب شتى ، وكثيراً ما كانت الصحف اليومية تصدر في وقت واحد من النهار وفيها ما يستلزم الرد عليه قبل فوات يومه ، وقد تصدر بعض الصحف صباحاً ويتبعه الرد على ما فيه مع طبعات المساء .. فقد كانت الصعوبة - كما تقدم - أن نؤجل موضوعاً منها أو نجمع ما بينها في وقت واحد . وقد يكون الجمع بين الموضوعين أيسر الأمرين ، فينشر أحدهما بتواقيع صريح وينشر المقالين معًا لسبب من الأسباب الفنية .

* * *

ولم تكن المقالات الأدبية أقل في موضوعاتها وازدحام مناسباتها من مقالات السياسة في الصحافة اليومية وملحقها الأسبوعية ، فقد كان الأسبوع لا ينقضى

على غير كتاب ينقد ، أو قصيد يتبع بالتعليق عليه ، أو خبر عن أديب مشهور في الثقافة الغربية يستحق الكتابة عن سيرته أو ذكره ، أو مناقشة مذهب أو مذهب مدربته في مسائل الفن والفكر وما إليها . وقد يتسع المجال كل وقت لكتابية المقالات المتتابعة عن موضوع من موضوعات الأدب التي تتجدد مناسباتها ولا تحتاج إلى مناسبة خاصة لإعادة البحث فيها . ومن هذا القبيل مقالات الشعر والقصص والمبادئ الفكرية ، وهي حاضرة في أذهان قرائها وعلى أقلام كتابها لا يستغرب ابتداؤها والعودة إليها في سنة من السنين ولا في موعد من مواعيد الصحف والمجلات ، مالم يكن هناك موضوع يشغل الأذهان لمناسبة عاجلة تميزه بالتقدير ، فهو في هذه الحالة يختار نفسه للكتابة فيه ولا يلقى على الكاتب مؤنة الاختيار .

* * *

هذا هو الغالب في أسباب اختياري لموضوعات المقالات والفصول ، ولكن اختيار موضوعات الكتب يجري على غير هذه الطريقة في أهم موضوعات التأليف عندي ، وهو موضوع الترجم والسير التاريخية أو الأدبية .

فالقاعدة في اختيار ترجمة ما للكتابة فيها أن تكون لازمة لإبراز حق ضائع أو حقيقة مجهولة ، وتستوى في ذلك سير العظام والنوابغ من كل طراز وفي كل طبقة من طبقات العظمة والنبوغ .

فالحافز الأكبر على تأليف كتابي عن «ابن الرومي» أنه مجهول القدر مبخوس الحق يصطلاح على بخسه والنزول به عن قدره جهل النقاد وظلم الأغراض والأهواء ، ورأى في أنه أعظم شعراء العالم بلا استثناء في ملكة الوصف التصويري والعاطفة الممثلة في قالب الحس والخيال ، ولكن نقادنا يذكرونهم ويحسبون أنهم يتعطفون عليه إذا ألحقوه بشاعر كالبحترى أو ابن المعتر على غير مساواة ، وهما بالقياس إليه كمن ينطق بحروف الهجاء في مجالس البلغا .

ولقد كان إنصافه - مما أصابته به خرافية الجهل وخرافة الشؤم - حافزاً يوشك أن يكون من حواجز الغيرة الدينية إلى جانب لذته الأدبية ، وفضلت البدء به على البدء في تأليف غيره في موضوع النقد وتاريخ الأدب ..

ولا يقال عن عظمة النبي عليه الصلاة والسلام أنه بحاجة إلى إنصاف أحد ، أو دفاع في وجه ناقد ناقم يفترى عليه ، لأنها عظمة القداسة التي تعلو على إنصاف المنصفين وافتراء المفترين . ولكنني كتبت «عقبالية محمد» للقارئ «الإنسان» الذي تضطرب مقاييس الإنسانية العليا إلى تعظيم نبي الإسلام ولو لم يكن على دين المسلمين ، وتوخيت في بيان خلائقه وأعماله أن تسقط عذر الخلاف في الدين

لمن يحجم عن تقدير تلك العظمة جهلاً منه بدين الإسلام أو بتاريخ النبوة الإسلامية ، ولم أشاً أن أجعل الاعتراف بها موقوفاً على صفة يدلين بها المسلم لأنه مسلم ويرفضها المخالف لأنه يرفضها بحكم العقيدة الدينية .

ومن اختارهم للترجمة عظماء الفرصة الذين بلغوا بالحيلة ما لم يبلغوه بالقدرة الخالصة ، وتسلوا إلى منافعهم في أزمنتهم بتلك الوسائل التي نسميها اليوم بالوسائل «الميكافيلية»^(١) .. فإن الغرض الأول من الترجمة التاريخية أن يعرف الناس الفارق بين حق الفرصة في زمن من الأزمان ، وحق القدرة في كل زمن ، ومع اختلاف الفرص وعوارض الظروف ، فلا ينبغي أن يأخذ عظيم الفرصة من التاريخ فوق ما أخذه من منافع عصره ، وبخاصة حين يكون حكم التاريخ الكاذب جوراً على خصومه وتطييه لنقائص عصره . وليست أجد في نفسي باعثاً قوياً للكتابة عن العظماء الذين اتفقت لهم الفرصة والعظمة معًا فاستحقوا المجد الذي نالوه ، ولكن بشيء من المبالغة العاطفية أو مبالغة الظروف ومناسبات الحوادث ، ولهذا أفضل الكتابة عن عبرية خالد على الكتابة عن عبرية صلاح الدين .. لأن إنصاف صلاح الدين لا يحتاج إلى مزيد .

* * *

ومن حظوظ التأليف التي لها حكم الحظ في كل شيء ، أتنى أوجل أحب الموضوعات عندي وقتاً بعد وقت على أمل في اقتراب الموافق لتأليفها ، فلا يقترب كما أريد مع توالي الأعمال واعتراض المطالب العاجلة التي لا تتحتمل التأجيل ، وأحب الموضوعات عندي تلقى مني هذا التأجيل بعد التأجيل لأن توفيق الكلام فيها تستغرق الوقت الطويل وتستلزم الإحاطة بجميع الأطراف ، ولا يتم إجمال القول فيها - فضلاً عن التفصيل - فيما دون المئات من الصفحات . وقد تأخرت من أجل هذا كتابتي عن أبي حامد الغزالى ، وهو أحب المفكرين الإسلاميين إلى وأقدرهم تفكيراً على الإطلاق ، ولم يتيسر لي أن أكتب عن خليفة الشيخ «محمد عبده» إلا بعد أن أجمعت على اطراح التردد في أمره وأقنعت نفسي بثلاثمائة صفحة تكتب في ترجمته حيث كان ألف صفحة دون الكفاية عندي لمثل هذا الموضوع .

إن الاقتراح يعمل في تأليف الكتب أحياناً عمل الاقتراح في تأليف المقالة الصحفية ، وقد ألفت كتبى عن «سن ياتسن» و«شكسبير» و«برنارد شو» و«فرنكلين» و«عقائد المفكرين» وغيرها تلبية للمقترحات التي وافقت رغبتي كما

(١) نسبة إلى ميكافيلى .. صاحب مبدأ الغاية تبرر الوسيلة .

وافقت زمانها فى إبانها ، ولكنها كلها - من الترجم وغير الترجم ومن الموضوعات التى اختارها أو أوافق على اختيارها - لا تخرج عن مقصود واحد لا هواة فيه ولا يتجرد منه موضوع كتاب أو مقال : وهو إحياء الثقة بالروح الإلهى الخالد من لوثة المادة ومهانة الإنكار العقيم ، أو مهانة كل اعتقاد وخيم يغلب فيه عامل السلب والنفي على عامل الثبوت والإيجاب ..

طريقتى فى الكتابة

أما طريقتى فى الكتابة ، فإنى أبدأ المقال وفي ذهنى جميع أصوله و«نقطة» مرتبة على الجملة حسب التسلسل المنطقى ، ولكننى إذا مضيت فى الكتابة عرضت لى حاشية من هنا ، أو لمحه من هناك ، تطرأ فى عرض الكلام ولا تغير شيئاً من جوهر المقال إلا أن تزيده جلاء فى بعض الأحيان أو تضيف إليه عنصر الفكاهة والتبسيط .

وأكتب فى كل مكان خلا من الضوضاء . أما إذا لم تقيدنى الضرورة بمكان معين فأكثـر ما أكتب وأنا مضطجع على الفراش وثلاثة أرباع مقاالتى السياسة كتبت كذلك . هذا فى النثر أما الشعر فيغلب أن أنظمه وأنا أتمشى أو أسيء فى الخلاء .

ويهمنى كثيراً أن أعود إلى كلامى قبل الطبع لأصححه وأراه فى صورته الأخيرة ، إلا أن يعوقنى عن ذلك عائق .. ومتى نظرت فيه قبل تسليمه إلى المطبعة فقد أحذف وأزيد عليه ويندر جداً أن يمس الحذف أو الزيادة جوهر الموضوع ..

وإذا شطبت على الكلمة أثناء الكتابة عنيت بأن أطمسها طمساً تماماً كأننى لا أريد أن تتراءى لنظري بعد ذلك ، ويكثر الشطب إذا كنت مشغول الذهن منحرف المزاج . ويقل إذا أقبلت على العمل بنفس راضية وجسم مستريح . أما زمان الكتابة فشرطى الوحيد فيه ألا يكون بعد تناول الطعام ..

* * *

وخطتى فى المناقشة أن أعمد إلى أقوى الحجج بداعه فأجتهد فى تقويضها ثم أقفوها بأضعف الحجج ، وأعود إلى ما فيه مساك من القوة ، وربما كانت فى هذه الخطة مفاجأة للقارئ ولكنها مفاجأة لا تخلو كما شاهدت بالتجربة من تأثيرها المحمود .

وأفضل الكتابة منفرداً لا يحيط بي أحد . ولم أكتب قط فى الأدب خاصة ومعى آخر فى الحجرة ، إلا أن أملأ عليه ما أقول وهو جد نادر .

ولم أتعود أن أستعين بشئ من المنبهات التى يألفها بعض الكتاب أثناء العمل كالتدخين وشرب القهوة وما إليها ، حتى أيام كنت أدخن .. بل لقد كنت يومئذ أترك التدخين حين أشرع فى الكتابة .

--- منهجه فى تأليف الكتاب ---

منهجى فى التأليف يلخص فى كلمتين ، هما : التقسيم والتنظيم ، وهما كما سيرى تختلفان بعض الاختلاف عن منهج التبويب والترتيب .

فعملى الأول عند تأليف الكتاب أن أتبين فى ذاكرتى أقسامه الواسعة التى تحيط بأجزائه المتفرقة ، فإذا فرغت من الإحاطة بها كتبت عنوان كل قسم على غلاف متوسط الحجم يتسع لعدة أغلفة أصغر منه إذا وضعت فيه ..

ثم أراجع فى ذهنى مصادر الأخبار والأراء والحوادث التى تتصل بهذه الأقسام .. وهى الكتب التى اطلعت عليها فى المبحث المطلوب من جميع نواحيه ، وقد أضيف إليها كتاباً آخر لم أطلع عليها ولكنها مشتركة فى مدار البحث أو معدودة من موسعاته عند النظر فى الاستقصاء ، والمقابلة بين الوجهات والأراء ..

* * *

اذكر كيف ألغت - على سبيل التمثيل - كتابى فى البحث عن العقيدة الإلهية ، وهو الكتاب الذى أطلقت عليه اسم «الله» ولا حظ بعض النقاد بعد صدوره أن الأخرى به من ناحية البحث العلمى أن يسمى «الإله» .. لأن اسم «الله» عنوان لعقيدة خاصة «الإلهية» لا يدين بها جميع المؤمنين بالربوبية ، وكان موضع الخطأ فى هذا النقد أن مدار البحث هو «الله» الذى انتهى إليه الإيمان «بالإله» ، وهما بحثان مختلفان لأن الوصول إلى فكرة «الإله» قد تم قبل ظهور العقيدة فى «الله» بدهر طويل ..

ولابد من تحقيق اسم الكتاب قبل الشروع فى حصر أقسامه ، فلو كان موضوع الكتاب «الإله» كما اقترح أولئك النقاد لاكتفينا فى تقسيمه بدرجات التقدم مع العقيدة إلى أن ظهرت فى التاريخ فكرة الربوبية على إطلاقها ، لأن «الرب» يطلق على كل «الله» بغير تعريف ، خلافاً لاسم «الله» ، فإنه هو «الإله» كما انتهت إليه غاية البحث فى عقيدة الوحدانية .

* * *

أما والعقيدة المطلوبة هى العقيدة فى «الله» فالأقسام التى تناولها البحث هنا غير الأقسام التى يستوفيها البحث بمجرد الوصول إلى الاعتقاد بأى إله ، وأى رب معبود ..

وقد كان من أهم هذه الأقسام قسم عن نشأة العقيدة الدينية من مبدئها ، وقسم عن الاعتقاد بالأرباب على إطلاقها ، وقسم عن العقيدة الإلهية في أمم التاريخ الكبرى ، وقسم عن العقيدة الإلهية في الديانات الكتابية ، وقسم عن الإله في مذاهب الفلسفة قبل الديانات المشهورة ، وقسم عن مذاهب الفلسفة بعدها وعن مذاهب الفلسفة بعد شيوع العلوم العصرية التي أطلق عليها اسم العلوم التجريبية ، ثم ختام لهذه الأقسام لجمع أطراها والتعليق عليها ..

* * *

وكان ابتداء التأليف في هذا الكتاب صيفا بمدينة الإسكندرية ، فنُقلت إليها مكتبة صغيرة مما قرأته قبل ذلك ، وطلبت من مكتبة المعارف - وهي ناشرة الكتاب - أن تستحضر أكثر من مائة مرجع من المؤلفات الأوربية ، فلم يتيسر في ذلك الحين استيرادها ولم نجد في فرع الإسكندرية غير نصفها وبعض الكتب المطلوبة باللغة الإنجليزية منقولة إلى اللغة الفرنسية ، وببدأنا المراجعة تصفحا واستعراضًا لا تتسع فيه إلا بمقدار ما يكفي للاستذكار والتعليق والعلم بما يلزم في كل قسم من الأقسام وكادت أن تنقضى إجازة الصيف في هذا الاستذكار والتعليق . فالعمل الأول على حسب هذا المنهج هو الإحاطة بأقسام الكتاب وتخصيص غلاف مستقل لكل قسم منها ، ويليه جمع المصادر الالزمة للرجوع إليها عند كتابة كل قسم من هذه الأقسام .

ويأتي بعد ذلك عمل التصفح والمراجعة ، والغرض منه حصر المسائل المتفرقة وتوزيعها على أقسامها .

* * *

فإذا مرت بي مسألة من تلك المسائل في المرجع الذي أتصفحه أثبت رقم الصفحة التي وردت فيها ، وعرفتها بعنوانها المختصر ، وألحقت بها إشارة تتضمن تعقيبي عليها بالموافقة أو الشك أو تعليق الرأي إلى موعده ، ولم تزد هذه الإشارات على علامة كعلامة «صح» في الكراسات المدرسية أو علامة كعلامة الاستفهام أو التعجب أو التضمين ، أفهم المقصود بها ساعة النظر إليها ، وتغييني عن كتابة التعليق بالكلمات .

وتكتب كل إشارة من هذه الإشارات على قصاصة صغيرة ثم توضع في الغلاف الخاص بها حسب أقسام الكتاب ، وإلى نهاية التصفح والمراجعة في المصادر

المجموعة بين يدي ، فلا يتبدئ التأليف قبل الفراغ من حصر هذه المسائل المتفرقة في موضعها وتسهيل الرجوع إليها ساعة الحاجة ..

ثم تأتي بعد ما تقدم مرحلة تالية وهي مرحلة التصفية والتنظيم .

وفي هذه المرحلة يعاد النظر إلى قصاصات كل غلاف على حدة ، لإبقاء ما يظهر من مجموعة المسائل أنه جوهرى ضروري لا غنى عنه لاستيفاء مقاصد الكتاب ، وتحية ما يظهر على نقىض ذلك أنه زيادة يستغنى عنها ، وتكرار يدخل في خلال المقاصد الأخرى ويتحقق بها على هذا الاعتبار ، ولا يندر في هذه الحالة تغيير عناوين الأقسام وتفرع المسائل إلى أبواب في القسم الواحد ، كل باب منها منفرد بجانب البحث يستقل بعنوانه وحدوده .

وقد يرى هنا موضع الاختلاف اليسير بين منهج التقسيم والتنظيم ومنهج التبويب والترتيب .. فإن التبويب على منهجنا هذا ينطوى في التقسيم ولا يسبقه ، بل لا يتأنى التفرع قبل الفراغ من تقرير الأصول .

أما الترتيب فليس من أسرار الصناعة أن أقول إنني لست ألتزمه في جميع الأحوال ، فموضوع البراهين القرآنية في الكتاب الذي نحن بصدده كان أول فصل كتب فيه ، وموضوع الفلسفة اليونانية جاء ، على ما ذكر ، بعده في ترتيب الكتابة .. ولست أغفل الترتيب لغير سبب يستدعيه تنظيم أوقات العمل . ولكنني أنظر إلى الوقت الميسور لكتابه الفصل وإلى الأيام التي أفرغ فيها للتأليف بين الأعمال الأخرى . فإذا كان أمامي ثلاثة أيام تركت الفصل الذي يحتاج إلى خمسة أيام أو عشرة أيام متواتلة وفضلت الابتداء بالفصل الذي يكفيه الوقت الميسور بغير انقطاع أو تأجيل .

* * *

وقد كان صديقنا المازنى يقول إن أسلوبه الاستطرادى لا يمكنه من بناء الدور الثالث في المنزل قبل الدور الثانى ، على حسب تعبيره ... ولكننى أعتقد أن تشبيه المراحل هنا بمسافات الطريق أقرب إلى الواقع من تشبيهها بطبقات البناء ، لأن فصول الكتاب لا تقوم على اختلافها في العلو والارتفاع كما تقوم على اختلافها في الابتداء والانتهاء على خطوط الطريق ، ومتى عرفت مسافات السير من الميل الأول إلى الميل ألف فلا فرق بين الابتداء بالتمهيد من الميل الأول إلى العشرين والثلاثين وبين الابتداء به من الميل العشرين والثلاثين إلى ما بعد ذلك من المراحل والمسافات ..

وإنما المهم هو التتحقق من حدود كل مسافة بالنسبة إلى سائر الحدود ، وهذا هو العمل الواجب قبل الشروع في الكتابة من مبدئها ، فلا بد من الإطلاع على عناصر الكتاب عنصراً في كل مبحث قبل كتابة فصل من الفصول .

وليس لكتابة المقالات منهجه يخالف هذا المنهج في تأليف الكتب ، سوى الخلاف الضروري بين الإطالة والإيجاز وبين التشعب ووحدة الموضوع ، فكل فكرة في المقالة حاضرة قبل أن تكتب كلمتها الأولى ، ولكن أفكار المقال غير تعبيراته ، بل غير صبغته الفنية في أكثر الأحيان ، لأن إشباع المعنى ساعة الكتابة قد يوحى بلفاظ العبارة التي تليها ، وقد يكون للعاطفة صلة بأسلوب التعبير عن المعنى فيشتدد شعورى بها على قدر إشباعها وقوتها أدائها ، وربما تحول القلم من أسلوب الانفعال إلى أسلوب السخرية والتهكم ، أو من أسلوب النقد إلى أسلوب التنديد والتغنيد ، إذا ارتفعت نغمة المعنى وارتفعت طبقته أثناء الأداء ، كما يحدث في أداء أصوات الغناء حيث تظهر آثار الفوارق العاطفية بين نغمة ونغمة ، وبين توقيع وتوقيع مع وحدة النوطة الموسيقية ، ويحدث هذا في فصول الكتب كما يحدث في المقالات المنفصلة ، فربما كتبت الفصل وعيناً مغروقتان كما حدث في كتاب «أبى الشهداء» ، وربما كتبت المقال وفي نفسى مغالبة عنيفة للبكاء كما حدث في مقالات الرثاء للمازنى والنقراشى وغاندى وسعد زغلول .

ولم أعالج كتابة القصة في غير قصة واحدة مطولة هي قصة «سارة» ، وقصص قلائل من الحكايات أو الأمثليل القصار .

ورأى في منهجه القصة أن إبلاغ مؤثراتها النفسية إلى وجdan القارئ هو كل ما يطلب من كاتبها بغير قيد مرسوم ولا اتباع لمذهب مدرسة خاصة أو فنان معلوم . وقد قيل غير مرة أن «سارة» لا تجرى على منهجه القصة المتبع ، ولم يقل أصحاب هذا الرأى ما هو منهجه المتبع الذي يعنونه وما هو القانون الفنى الذى يفرض على كل كاتب ولا يسمح له بالتصرف فيه ..

وكل ما هنالك أن الناقد يلقى بهذا الرأى وهو يعرض فى ذهنه أساليب قصص مختلفة ويريد منى أن أوافقها جميعاً فى أسلوب قصة واحدة ، وينسى أننى لا بد أن أخالف أسلوب عشرات من القصص إذا وافقت واحد منها ، بل ينسى أنه لم يكلف نفسه تعريف موضوع القصة فى «سارة» قبل مطالبة الكاتب بالمنهج الذى يملئه عليه .

فقصة «سارة» ليست قصة حياة همام بطل الرواية ، ولا قصة حياة سارة بطلتها ، ولا قصة حياة من المذكورين أو المذكورات فيها ، ولكنها قصة العلاقة في فترة محدودة من الزمن بين فتى وفتاة ، فلا منهج لها غير المنهج الذي يصور البواعث الظاهرة والباطنة التي عملت في تعريضها للشك والاضطراب ، ثم انتهت بها إلى ختامها ، ولم تبتدئ الرواية إلا حيث ينبغي أن تبدأ ، لأنها بدأت بموقف الفصل بين دواعي بطل الرواية وبطلتها إلى استئناف علاقتهما ودواعيهما إلى القطيعة والانفصال ، ومن هنا ينبغي أن يبدأ تساؤل المطلع عن طبيعة تلك الصلة وطبيعة الدواعي التي ألحت عليها بدواعي التردد إلى خاتمة التردد على غير يقين ..

ولست أدعوك كل قلم إلى اتباع هذا المنهج في وصف هذه العلاقة ، ولكنني أدعو من شاء أن يقترح لها منهجاً آخر يوافق النقاد والشعراء على أنه أصلح من منهجها لإبلاغ مؤثراتها النفسية إلى وجdanهم ، ولا أحسبهم موافقين ..

وبعد ، فما هو المقياس الذي يقاس به هذا المنهج وكل منهج سواه ؟
إنه هو ذلك المقياس المتفق عليه في خطوط المواصلات جميرا : وهو وقت السفر ومحطة الوصول ..

••• مالِمُ أَكْتَبْ وَمَا أَرِيدُ أَنْ أَكْتَبْ •••

إذا سألني القارئ ما الذي تريده أن تكتبه؟ وما الذي لم تكتبه عمداً أو لضرورة من ضرورات الوقت والحالة؟ فالجواب عن هذه الأسئلة قد يعرفه القارئ الذي يلم بعناوين كتبى وموضوعاتها ، لأنه يعرف منها ما يهمنى وما أستطيع أن أكتب فيه ، ويعرف من ثم كيف يتم ما بدأته من تلك الموضوعات ، وما الذى يحتاج منها إلى إتمام .

فالغالب على القراءة والكتابة عندي أنها تتصالن بمسائل شاملة يجمعها برنامج واضح يحيط بتفصيلاتها ، وكلها تدور على مسائل الوجود والقيمة والعلمة الإنسانية والفنون ، وأكثر ما كتبت فيه من هذه المسائل يشير إلى أن بقيتها «تحت التأليف» .

كتبت عن وجود الخير الأكبر ، وهو الله خالق كل شيء ..
وكتبت عن وجود الشر الأكبر وهو إبليس أو الشيطان ، رمز الفساد في كل شيء ..
لأن الكون هو الخلق الأعظم في مجموعته الواسعة الكاملة ، ولأن الإنسان هو أشرف المخلوقات التي نعلمها وأقربها إلى الوجود الإلهي ، وقد يراه المتتصوفة أكبر من الكون كله كما قال شاعرهم :

وَتَزَعَّمُ أَنَّكَ جِرْمٌ صَفَرٌ وَفِيكَ انْطَوَى الْعَالَمُ الْأَكْبَرُ

لأنهم يرون أن وجود الكون بما رحب إنما هو وجود مادى مجرد من الروح والحياة ، وليس فيه من مظاهر روحى حتى أشرف من الإنسان .

في هذا الباب إذن أريد أن أؤلف كتاباً عن الكون وكتاباً عن الإنسان ، أشرح فيما ما أفهمه وما أحسه من معنى وجود المادة ومعنى وجود الفكرة أو الضمير أو الروح .
وقد ألقت عن الأنبياء فكتبت «عقبالية محمد» و«عقبالية المسيح» و«أبى الأنبياء إبراهيم» . بقيةت «عقبالية موسى» الكليم ..
وبقيةت معها «عقبالية بودا» و«عقبالية كنفتشيوش» .

ذلك أنى تبيينت من دراسة تاريخ النبوءات أن الأنبياء الأديان الثلاثة الكبرى - وهى الموسوية والمسيحية والإسلام - قد ظهروا فى الشرق الأوسط بين الأمم السامية ، وتفسيري لذلك أن النبوة لم تكن لتظهر فى بلاد الدول المتسلطة ، لأنها تخضع فى شرائعها وأدابها لقوانين السلطان وعرف الكهان ، ولم تكن لتظهر

في الصحراء لأنها تخضع لقوانين الثأر والعصبية ، ولكنها تحتاج إلى بيئة تجمع بين أحوال الدولة وأحوال الbadia ، وهي مدينة القوافل .

إن مدينة القوافل تعرف المعاملات العامة والمصالح المختلفة والشائع التي تقوم على حقوق المتعاملين غير مقيدين بسياسة السلطان ولا بعصبية القرابة ، وفيها - أى في مدينة القافلة - تتعرض الأخلاق للفتن والغواية لكثرة المتقلين على المدينة من المترحلين المتنقلين وكثرة طلاب الكسب والارتزاق حيث تروج التجارة وتروج دواعي اللهو والمتنة ..

ففى هذه البيئة تتهيأ الأحوال النفسية والاجتماعية لظهور هداة الأديان ودعاة الإصلاح والإنصاف من الرسل والأنبياء ، ولهذا ظهر إبراهيم في مدن القوافل بين «أور» في الفرات وبعلبك في سوريا وبيت المقدس في فلسطين ، وظهر موسى في مدين وما حولها ، وظهر المسيح في الخليل ثم في بيت المقدس ، وظهر نبى الإسلام في مكة بعد أن ظهر أنبياء العرب حيث تقوم العلاقات وسطاً بين شريعة الدولة وشريعة الbadia .

وموسى عليه السلام هو ثالث الرسل العظام في السلالة السامية ، بعد أبي الأنبياء إبراهيم .

أما «بوذا» و«كتنفسيوس» فهما نوع آخر من أنواع الرسالة يقترب تارة إلى الشك وتارة إلى تعليم الأدب والسلوك ، وتفصيل البحث فيهما بقية لازمة بعد جلاء آيات النبوة في إبراهيم وبنيه عليهم السلام .

* * *

وقد تضاف هنا إضافة مناسبة ولكنها لا تخطر على البال لأول وهلة .. قد يقال: إن هذا شأن النبوة فيما مضى ، فكيف يكون الإصلاح الديني بيننا في العصر الحديث ولا موضع هنا للبعث ولا للرسالة؟ ..

أقول إنه - حيث لا ينتظر البعث أو الرسالة - تنتظر الهدایة على سنة النبوة ، ولن تكون الهدایة فيما أعتقد إلا بفضل «الشخصية الإنسانية» في صورة من صور الإلهام والتأثير بالقدرة المهيمنة على العقول والضمائر ..

كذلك كانت هدایة جمال الدين ، وكذلك كانت من بعده هدایة تلميذه محمد عبده ، وأحب ما أتمناه من موضوعات التأليف أن الحق بعقربيات الإسلام كتاباً عن عقربيه جمال الدين وكتاباً جاماً يترجم لهما في نسق واحد ، ويترجم معهما بعض الإيجاز لمن عمل على نهجهما في ديار الإسلام .

وقد ألفت عن «ابن سينا» وعن «ابن رشد» ، وهما أكبر فلاسفة اللغة العربية في المشرق والمغرب .

ويقى كتاب عن «الغزالى» الفيلسوف الذى يصارع الفلسفه ، والفقيه الذى يؤدب الفقهاء ، والمتتصوف الذى يكشف عن عالم الخفاء ، كما يكشف عن عالم الشهادة . وليس فى المشرق والمغرب من هو أرجح فكرأ وأصفي عقلا وأقوى «دماغا» من هذا الإمام الجليل ، ولو لا اتساع الأفق الذى تدفعنا إليه الكتابة عنه لبدأت بترجمته ونقده قبل «ابن سينا» و«ابن رشد» وغيرهما من حكماء المشرق والمغرب ، ولعله مانع وشيك أن يزول ، لأنه مانع يقتضينا واجبين معا ، إذا كان العمل السهل يقتضينا واجبا واحدا لا موانع فيه .. ولقد كتبت عن شعراء كثيرين .

كتبت المؤلفات المستقلة عن «ابن الرومي» و«أبى نواس» و«عمر بن أبي ربيعة» و«جميل بثينة» ، والفصول المتفرقة عن «المتنبى» و«أبى العلاء» و«دعبل» و«بشار» و«ابن زيدون» و«ابن حمديس» وغيرهم من المشارقة والمغاربة ، ولا يزال فى المجال متسع للمطولات عن أدب «أبى الطيب» وأدب «أبى العلاء» على التخصيص .

وأريد أن أكتب ما يغنى عن تفصيل الكتابة فى الشاعرين الحكيمين وفيمن عداهما من شعراء الأدب الغنائى أو شعراء الرونق والجمال ، وأحسب أننى أستغنى عن ذلك اضطرارا ، بكتاب يتناول موازين النقد فى الشعر وفلسفة الجمال كما نطبقها على الفنون فى صورتها التى تمتزج بالفكرة والعبرة النفسية على الإجمال ، وشواهد هذا البحث من كلام الشعراء والبلغاء دليل يرجع إليه من شاء فيما تقوله فلسفة الجمال عن شعرائنا الحكماء وغير الحكماء ..

وقاده الفكر بين أمم الحضارة ، قديمها وحديثها ، كتبت عن بعض منهم ولم أكتب عن بعض ، وليس فى الوسع ولا فى النية أن أستقصيهم بقضهم وقضيضهم ، فليكن خلاصة ، أو عصارة لمذاهبهم وأراء المفكرين فيهم ، وبها تتأدى حتى الصغيرة من أمانة تحملها الأرض والجبال ، والإنسان ! .. ثم ماذا بعد هذا ؟ ..

سيرة «سعد زغلول» ظهرت فى زمن لا تظهر فيه حقائق الحكم والمحكومين ، فمن الخير أن تعاود وأن يزداد عليها مالم يكن يزداد فى عهد أحمد فؤاد ..

والى هنا أراني ذكرت حقا مالمل أكتب ، وذكرت طرفا أو أطرافا مما أريد أن أكتب ، ولكن «ما أريد» يصدق عليه قول القائل : «إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون» .

وسأريد ما يكون ، وقد يكون ماللم أذكره وما لم أرده ، وعلمه عند الله ..

الفصل الرابع

٠٠٠ عرفت نفسى ٠٠٠

وهل يعرف الإنسان نفسه ؟ ..

كلا ، بغير تردد ، فلو أنه عرف نفسه لعرف كل شيء في الأرض والسماء وفي الجهر والخفاء ، ولم يكتب ذلك لأحد من أبناء الفناء ..

إنما يعرف الإنسان نفسه بمعنى واحد وهو أن يعرف حدود نفسه حيث تلتقي بما حولها من الأحياء أو من الأشياء . والفرق عظيم بين معرفة النفس ومعرفة حدودها ، لأننا نستطيع أن نعرف حدود كل مكان ولكن لا يلزم من ذلك أن نعرف خبایاه وخصائص أرضه وهوائه وتاريخ ماضية ولو قسنا كل شبر في حدوده . والأحرى أن يقال إن الإنسان يعرف الفواصل بينه وبين غيره ، فيعرف مداها ولا يتعده ..

وقد عرفت أنني أثق بنفسي وأعتمد عليها ولكنني أعتقد أنني وثقت بها من طريق النفي قبل وثوقي بها من طريق الثبوت ، فقد كنت في بادئ الأمر أحسب أنني أنا المخطئ وحدي ، وأن جميع الناس على صواب .. !

هناك اختلاف لأشك فيه فمن المخطئ ومن المصيب ؟ .. أنا المخطئ إذن لا جدال ..

كنت في طفولتي أحب مراقبة الطير والحيوان وكان فضاء بلدى - أسوان - يمتلىء في أوائل الشتاء وأوائل الصيف بأسراب الطير المهاجرة إلى أفريقية الوسطى أو القافلة من الهجرة ، فاتفق أنني تتبع سرباً منها وهو يحط على الأرض ويرتفع عنها حتى ضللت الطريق في الصحراء ، وعدت إلى المنزل بعد هبوط الظلام .

فلما سئلت وأجبت كان جوابي أضحوكة الكبار والصغر وشاع بين أندادى في المدرسة فتذروا به وأكثروا من السخرية به والتعليق اللاذع عليه ؟ .

هم إذن على صواب .. وإنما ضللت الطريق وحدي وراء ذلك السرب ، ولم يحفل به غيري من كبير أو صغير !! ..

وأقيم لقريب لي عرس في دار ريفية ذات فناء رحيب من تلك الأفنية التي تكثر في قرى الصعيد الأعلى ، فاجتمع أهل القرية حول المشاعل الموقدة يصفقون ويهللون وانحرفت وحدي إلى الفناء المعزول ، فإذا الظلام الحالك قد أطلع في السماء كل كوكب يسرى على ذلك المدار ، فجلست على الرمل أتملى هذا المنظر الساحر ، فربيع أهلى إذ تفتقا وشى زنم يجدونى ، وكانت في نحو التاسعة من عمري ، فما أشعر إلا المشاعل كلها قد تحولت إلى مكانى من الفناء ، وأصوات

الدهشة تنبئ من جميع الأفواه ، حتى سئلت فأجبت ، فانتقلت الدهشة منهم إلى ، ودهشت أنا ، لأنهم راحوا يقهقرون ولم أدر لماذا يقهقرون ولو لا أن اليقظة كانت ملء عيني لقالوا طفل حالم أو طفل مخبول ..

إذن نحن لا نتفاهم ، وخير لي أن أنطوي على جد نفسي وهزلها لأسلم من الصحك والسخرية إلى أن يغيرني الله ، فأهتدى كما اهتدى سائر خلق الله ...

وأني لعلى هذا التوجس من البوج بما في نفسي ، وعلى هذا الشك الشديد في جدها وهزلها ، إذا بي أقرأ ما كتب عن بعض الشعراء ومحبي الطبيعة وهم يعتزلون العالم ليتمتعوا النظر بصورة من تلك الصورة السماوية ، وإذا بي أقع على جزء قديم من «مجلة المقتطف» صدر في سنة ١٨٩٩م . وفيه مقال عن الطائر الطنان ويليه مقال عن مناقير الطيور ، وأقرأ في كليهما أن مراقبة الطير شغل شاغل لبعض العلماء والرحالين ، وأن حركة الطائر وهو يتقدم ويتأخر أو يأكل ويشرب أو يغنى ويلعب ، مسألة ذات خطر وليس سخرية لمن سخر ..

أكذاك هو ؟ ..

إذن يبسط أبو حنيفة رجله ، ولا مبالاة .. !

وكان أبو حنيفة كما قيل يبسط رجله في حلقة الدروس لأنه لم يكن يستطيع أن يشيهها من مرض أو من إعياء .. فأقبل على درسه ذات يوم شيخ غزير اللحية وقور المشية هابه أبو حنيفة فشى رجله على ألم ثم أخذ في درسه عن موعد صلاة الصبح ، فإذا بالشيخ يسأل : «وما العمل إذا طلت الشمس قبل الفجر؟» قال أبو حنيفة : «العمل أن أبا حنيفة يبسط رجله ويحمد الله!»

وقد بسطت رجلي وحمدت الله من ذلك الحين ، وعلمت أن خطأ الكثيرين جائز ، وأن سخريتهم لا تضر ، فلم أحفل بتلك السخرة ، ولعلى بالغت في قلة الاحتفال بها «وأخذت راحتى» جدا في بسط رجلي حيث أشاء ..

لقد علمتني تجارب الحياة أن الناس تغيظهم المزايا التي تنفرد بها ، ولا تغيظهم النقصان التي تعينا ، وأنهم يكرهون منك ما يصغرهم لا ما يصغرك ، وقد يرضيهم النقص الذي فيك ، لأنه يكبرهم في رأي أنفسهم ، ولكنهم يسخطون على مزاياك لأنها تصغرهم أو تغطى على مزاياهم .. فبعض الذم على هذا خير من بعض الثناء لا بل الذم من هذا القبيل أخلص من كل ثناء لأن الثناء قد يخالطه الرياء . أما هذا الذم فهو ثناء يقتصر على الرياء .

وود أبو حنيفة لو يصل رجل آخر ليبسطها كل البسط في وجه كل مذمة من هذا الطراز .

وعرفت أن الذين أسعفهم لا يرضيهم لا يعنى شيء ، وأن الذين أرضيهم لا يسعفهم على شيء فلا فائدة إذن من اتقاء السخط ولا من احتساب الرضى ،

لأن الذين يسخطون على يرجعون إلى خلائقهم التي لا تتغير ، والذين يرضون عنى يعرفوننى من عملى الذى يرتضونه ولا يريدون منى شيئاً سواه .

وأعجب ما عرفته من أمر نفسي أنتى أسى الفتن بالناس لأننى أحسن الفتن بهم ...

فأول ما يخطر لى على بال أن أتهم من يقترف عملاً من الأعمال المنكرة بسوء النية وتعمد الإساءة . لأننى لا أحسب أن إنساناً عاقلاً يقع فى خطأ جسيم عفواً أو جهلاً بالفرق بين الحسن والقبح ..

فإذا ظلمته فقد يشفع لى أننى أظلمه فى سبيل الإنفاق .. !

* * *

وعرفت أننى من أعجز الناس عن رفع حاجز واحد يقام بينى وبين إنسان ولا سيما حاجز الكلفة والإعراض ، فإذا تلقاني إنسان بمثل هذا الحاجز فلا اقتراب بينى وبينه أبداً الدهر ، وليس أشق على نفسى من تلك الزلفى التى يزدلف بها بعضهم لكتسب صداقة أو تمكين علاقة .. فإن زال الحاجز وحده فهناك يمتزج العقل بالعقل والنفس بالنفس طواعية وعفواً كأننا فى عشرة حميمة منذ سنين .

وعرفت أننى أكره الهزيمة فى كل مجال ، ولكن يشهد الله أننى أعااف النصر إذا رأيت أمامى ذل المنهزم وانكسار المستسلم ، ولو لا أن هزيمتى أغضب إلى من هزيمة خصمى لأبغضت النصر الذى يفضى لا محالة إلى انهزام واستسلام ..

وأعرف أن العادة قوية السلطان على سليقى وخلقى ، ولا تعصمنى منها إلا الثورة النفسية ، وأشدتها ما كان ثورة للكرامة أو الحقيقة كما أؤمن بها .. فكل بناء تبنيه السعادة ينهار فيما بين ليل ونهار إذا ثارت النفس لحقيقة محظوظة أو كرامة مغلوبة ، وقلما تكون للإرادة يد فى الحالتين .

وأعرف أننى أعامل الناس والأشياء كأنهم معان مجردة فى الضمير ، لا كأنهم شخصوص ومحسوسات .. فعشرة ملايين جنيه - مثلاً - معناها عندى المتعة أو الترف أو السلطة أو الجاه . وطلبي لها يتوقف على حاجتى إلى تلك المعانى لا على حسابها بلغة الأرقام والمصارف والقصور والضياع ..

وأكره الظلم حين أكره الظالم ، والشر حين أكره الشرير ، والخبث حين أكره الخبيث ...

ولهذا يفوتنى أحياناً أن أفرق بين كراهة المبدأ ، وصاحب المبدأ ، ولا يسع طبعى ما يقال عن التفرقة بين العمل وعامله ، لأن العمل لا يكون خبيثاً وعامله من الأطهار !

وعرفت كثيراً من أمثال هذه الحدود ، ولكننى لم أعرف كثيراً ولا قليلاً مما تحيط به تلك الحدود .. فعرفت أن الفيلسوف سocrates كان يستعير لغة الكهانة حقاً حين قال : «اعرف نفسك» !

لأنه كان كمن يطالبنا بمعرفة الغيب أو معرفة المجهول وكلاهما من صناعة الكهان ! ..

٠٠٠ عُرِفَتْ طَرِيقُ النَّجَاحِ

يعرف المعنيون بطبعات الطيور المهاجرة أنها قد تضلل عمدا - أو على غير عمد - عن طريقها فتضل عنه مرة أو مرتين أو ثلاث مرات على الأكثر ، ولا يلبث الطير المهاجر أن يتوجه إلى وجهته ويستقيم عليها إلى أقصاها .

يصدق هذا على النفس البشرية وهي تلتمس طريقها السوى في أوائل حياتها كل يصدق على الطيور المهاجرة ، فتضل الطريق مرة أو مرات ، ثم لا يلبث أن تعتلد على نهج تتحرأ إلى أقصاها .

وهذا الذي حدث لي في أوائل صبائي بين المناهج المختلفة التي اعتقدت أنني مهيأ للمسير عليها بالفطرة وهداية الظروف ..

* * *

خطر لي في مبدأ الأمر أنني مهيأ لحياة الجندي وأنني أبلغ أمنيتي من الحياة إذا بلغت مرتبة القيادة في جيش مصر وطردت جيش الاحتلال ، وبين زملائي في الدراسة من يذكر هذه الأمنية أو هذه الطبيعة ، ومنهم الأستاذ سيد جودت المهندس الكبير ، واللواء محمود عسكر الذي اتجه دوني إلى الحياة العسكرية وترقى فيها إلى غاية الدرجات التي يرتقي إليها الضابط المصري قبل سن الإحالة إلى المعاش .

ثم خطر لي أنني خلقت لدراسة علوم الزراعة والحيوان ، فاقتربت على والدى أن أتمم الدراسة في كلية الزراعة العليا بدلا من التوظيف بدوافع الحكومة .

ثم علمت يقينا أنني خلقت للأدب ولم أخلق لغيره ، وأن التفاتي إلى الجندي والزراعة إنما كان التفاتا للأدب من طريق آخر : طريق الإنشاد الحماسى قبل المبارزة ، وطريق الشغف بالأزهار وعامة الأحياء .

وكانت أسوان ميدانًا لمختلف الجنود المصريين والسودانيين والإنجليز أيام حرب الدراويش ، وكنا في المدرسة نؤلف الجيوش ونتقاتل في الوقت المخصص للرياضة ، وكنا نبدأ القتال بإنشاد الشعر الحماسى على سنة الفرسان الأقدمين كما قرأنا عنهم في كتب الملاحم والغزوات .

وشاقنى أن أنظم الشعر لأنشده فى هذه المواقف ، فكان هذا فى الواقع موطن هوى للجنديه التى اعتقادت أنتى خلقت لها وللتقدم فى صفوفها إلى مرتبة القيادة . أما دراسة الزراعة فالذى حولنى إليها شغفى بأزهار الحديقة المدرسية وسائل الحدائق المحيطة بالمدينة الخالدة : مدينة أسوان .

وقد حولنى إليها كذلك أن أسوان كانت معبر الطيور المهاجرة فى أوائل الشتاء وأوائل الصيف ، فلم تزل تلفتني هذه الظاهرة وتلفتني الظواهر الأخرى من قبيلها فى طبائع الحيوان حتى ظننت أنتى خلقت للزراعة ثم علمت الحقيقة من هداية وجданى ، فأيقنت أن الولع بالشجر والطير إنما هو ولع بالوصف والتعاطف مع الحياة فى شتى ظواهرها ، فهو تمهيد للأدب وللهيام بالطبيعة كما يهيم بها الشعرا ..

* * *

ولى أن أقول من باب المجاز القريب إلى الحقيقة أن حياتى الأدبية لم تخل من نضال الجنديه ولا من الغرس وتعهد الغراس الفكرى من الجذور إلى الثمرات .. فإذا سئلت : هل نجحت ؟ وجب أن أبين فى البداية ماذا قصدت ، ووجب أن يكون الجواب على وفاق المقصود المطلوب .

نجحت لأننى قصدت إلى العمل بالقلم ووصلت فى هذا العمل إلى نتيجة يحمدتها الأديب العربى لنفسه ويحمددها له قرأوه ، ولا محل للدعوى والإنكار فى هذا التقدير ، فإنه مما يقدر بأرقام الحساب ولا يكتفى فيه بتقدير الآراء .

ولا أحسب أنتى اعتمدت على المعجزات أو الغرائب فى توفير أسباب هذا النجاح ، ولكننى أحسب أنها أسباب طبيعية معروضة للعاملين فى كل صناعة ، يلتفتون إليها باستعدادهم لها ، ويعينهم على الالتفات إليها نصح الناصح وهداية الدليل .

* * *

أول هذه الأسباب الرغبة الصادقة فى النجاح ، فإننى لا أحوال أحدا ينجح فى عمل لا يرغب فى نجاحه .

ويلى هذا السبب الأول أن يعنى العامل بعمله لذاته ، ولا للنتيجة التى يتربصها من ورائه ، سواء كانت ربحا من المادة أو شهرة على الألسنة أو وجاهة فى المجتمع أو التاريخ .

وأقرر هذه الفكرة تقريراً آخر حين أقول : إن الذي خلق للأدب لا يتحول عنه إلى منهج آخر من مناهج العمل لأن هذا المنهج يعطيه الربح والشهرة والواجهة حيث يفقدها أو يتذرع عليه بلوغها في منهج الأدب .. ولعلني لا أخطئ التشبيه إذا قلت إن مثل الأديب في هذا كمثل الأب الذي يعرض عليه أن يختار ولداً غير ولده يطيعه ويسره بالفلاح والتقدم حيث يخيب ولده ويعصيه ، فإنه لن يقبل هذا العرض مع يقينه برجحان الولد الناجح المطيع من غير ذريته على ولده المحقق المسر على العصياني ..

وسبب لا يقل عن الرغبة الصادقة والعمل للعمل لا للنتيجة المرتقبة منه - وهو الثقة بالنفس والاستخفاف بالعقبات وإنكار المنكرين عن جهل أو حسد أو تباين في الرأي والحقيقة .

* * *

ولو أتنى سئلت أن أرتّب أسباب النجاح بالنسبة إلى لبدأت بهذا السبب وأخرت بعده جميع الأسباب .

ولو أتنى سئلت عن الفضل فيه هل هو للقدرة والتعليم والظروف أو هو للسلية المطبوعة لقسمت هذا الفضل بينها قسمين متعادلين ، وزدت قسم السلية المطبوعة بعض الزيادة في معظم الأحوال .

* * *

ويحمد الله أقول إنني نجحت فيما قصدت إليه ، وأنتهى بذلك إلى عبرة هذا النجاح ، فالخصوص في عوامله الغالبة التي لا يخلو منها نجاح في صناعة من الصناعات ، وتلك هي الاهتداء إلى استعداد الفطرة ، ثم صدق الرغبة في تحقيق ذلك الاستعداد وصرف الجهد إلى العمل دون النتيجة المرتقبة منه ، وتعزيز الثقة بالنفس أمام الموانع والعقبات .

ومن الحق أن أتبع هذا بالتفرقة بين النجاح وبين تحقيق كل ما يراد وكل ما يرجوه المرء من نفسه ويرجوه عنه الناس ...

فما من أحد يحقق كل ما يريد وكل ما يراد منه ، وإن كان أنجح الناجحين ، وإنما يقاس النجاح بما أستطيع فعلاً وبما يستطيع حقاً لو اتسع الوقت وأسعدت الظروف .

* * *

٠٠٠ تأملت من أوقات الفراغ ..

أوقات العمل تملكتنا ..

ولكننا نحن الذين نملك أوقات الفراغ ونتصرف فيها كما نريد ، فهى من أجل هذا ميزان قدرتنا على التصرف وميزان معرفتنا بقيمة الوقت كله ، وليس قيمة الوقت إلا قيمة الحياة ..

فالذى يعرف قيمة وقته يعرف قيمة حياته ، ويستحق أن يحيا وأن يملك هذه الثروة التي لا تساويها ثروة الذهب ، لأن مالك وقته يملك كل شيء ويصبح فى حياته سيد الأحرار .

إن أفرغ الناس هو الذى لا يستطيع أن يملأ ساعات فراغه ، وعندنا فى الشرق كثيرون ، بل كثيرون جدا ، من هؤلاء الفارغين .

على القهوات وعلى أفاريز الطرقات ، فى الصباح وفي المساء ، خلال أيام الصيف وخلال أيام الشتاء ..

فى كل وقت وكل موسم وكل مكان ألف من الشبان الأقوية والرجال الناضجين يقضون ساعات الفراغ فى لعب النرد والورق أو فى تعاطى الراح والدخان ، أو فى مراقبة الغادين والغاديات والرائحين والرائحات .

ليس هذا وقتا فارغا لأنهم مشغولون فيه ، وليس هذا وقتا مملوءا لأنهم يملأونه بما هو أفرغ من الفراغ .

هذا ليس بوقت على الإطلاق ..

هذا عدم خارج من الزمان ، خارج من الحياة !

وليس معنى «وقت الفراغ» أنه الوقت الذى نستغنى عنه ونبده ونرمى به مع الهباء ، ولكن وقت الفراغ هو الوقت الذى بقى لنا لنملكه ونملك أنفسنا فيه ، بعد أن قضينا وقت العمل مملوكين مسخررين لما نزاوله من شواغل العيش وتکاليف الضرورة .

قرأت مرة فى تاريخ أمريكا الشمالية أن الإنجليز والفرنسيين تسابقوا على استعمار «كندا» فنجح الإنجليز حيث أخفق الفرنسيون .. لماذا ؟

زعموا في تعليل ذلك - وأصابوا - أن استعمار القفار من الأرض البور يحتاج إلى قضاء الأوقات الطوال في عزلة عن المدن الحافلة ، وأن الإنجليز نجحوا في استعمار تلك الأرض لأنهم يستطيعون أن يقضوا أوقات الفراغ منفردين منعزلين ، وأن الفرنسي لا يطيق العزلة ولا يتحمل أن يفرغ لنفسه ولا يزال في شوق إلى المدينة لقضاء السهرات والأصائل بين الناس في الأندية والمجتمعات ، فترك ميدان الخلاء لمن هم قادرون عليه ..

* * *

ويصدق علينا في الشرق ما يصدق على الفرنسيين ، فإن الإنسان منا لا يستطيع أن يجد في نفسه ما يشغله ساعة فراغ ، ولا يحس بفراغ من الوقت حتى يلوذ بالطرقات والقهوات .

ولا يهتدى بعد الحث الطويل في أعماق ضميره وأطواء دماغه إلى شيء يملأ به ذلك الفراغ .

إن كان قصارى ما أصاب الفرنسيين من هذه الخصلة أنهم أخفقوا في استعمار «كندا» .. فالأمر معنا أخطر وأعظم ، فلعلنا لم نذهب فريسة الاستعمار إلا لأننا فارغون ، وأننا لا نجد في نفوسنا ما ننطوي عليه !

قيل عن «أسبيرطة» إنهم كانوا يبذلون الطفل الضعيف في العراء ، وأنهم كانوا يمتحنون قوة الأطفال بوضعهم في إماء مملوء بالنبيذ ، فمن بقي منهم مفيقاً بعد هذه التجربة أبقوه واستحق عندهم عناء التربية ، ومن ظهر عليه التحدّر والسبات أهله ونبذوه ..

ولو أنت أردت امتحان الأقوياء من الرجال لما تركتهم فترة في آنية النبيذ بل تركتهم فترات في مكان مغلق يقضون فيه ساعات فراغهم ، فمن صبر على هذه الساعات فهو رجل ملآن بقوة الفكر وقوة الخلق وقوة الاحتمال ، ومن لم يصبر عليها فهو الفارغ الذي لا خير فيه .

* * *

ماذا نتعلم من ساعات الفراغ ؟

نتعلم منها كل شيء ، ولا نتعلم شيئاً من الحوادث أو الكتب أو الأعمال إلا احتجنا بعده أن نتعلمه مرة أخرى في وقت فراغ ..

فالمعارف التي نجتمعها من التجارب والكتب محصول نفيس ، ولكنها محصول لا يفيدنا ما لم نغربه ونوزعه على مواضعه من خزائن العقل والضمير .. ولن تتيسر لنا هذه الغربلة وهذا التوزيع في غير أوقات الفراغ ... إن معارف التجربة والاطلاع زرع في حقله ينتظر الحصاد والجمع والتخزين ، ولا فائدة للحرث والسقى والرعاية ما لم تأت بعد ذلك ساعة التخزين .. وهي ساعة الفراغ ..

ساعة هي ألزم لنا من ساعات العمل ، لأن العمل كلها موقف عليها في النهاية ، فلا ثمرة لأعمال الحياة بغير فراغ الحياة . ولولا أننا نخشى أن يقدس الناس الفراغ لقلنا إن تاريخ الإنسانية من أوله إلى عهده الحاضر مدین لساعات الفراغ .

لقد عرف التاريخ الإنساني أقواماً فارغين جنوا عليه بفراغهم أشنع الجنایات ودفعوا به إلى الحرب تارة وإلى الفتنة تارة أخرى لأنهم وجدوا أمامهم متسعًا من الفراغ يعيشون فيه .

ولكننا - حتى مع هذا - لا نستغنی عن ثمرات ذلك الفراغ جمیعاً دون أن نجازف بالجانب الصالح النافع من تاريخ الإنسان .

ماذا يبقى من تاريخ الإنسانية لو لا الفارغون الذين اتسعت أوقاتهم للبذخ والترف بين الحلی والحلل في ظلال القصور ؟

من كان يجوب الأرض ويمخر عباب البحر ليجلب الحرير والبهار والحجر النفيس والحجر الذي تبني به الصروح ؟

من كان يتعلم الملاحة ؟ من كان يتعلم صناعة السفن ؟ ومن كان يتعلم النسيج ؟ من كان يستخرج اللآلئ أو يبحث عن شذور الذهب والفضة ؟ من كان يرسل القوافل ويحدق فنون التجارة ؟ من كان يرصد النجوم ويدرس حركة الأفلاك في السماء ؟

من كان يعرف هذه الأعمال التي يعيش عليها الملاليين لو لا ذلك الفراغ الذي تقدم به الزمن في تواريخ الأمم !

لقد كان فراغاً ذمياً في أكثر نواحيه ، ولكنه على مذمته قد أفادنا درساً خالداً لا يصح أن ننساه . ذلك الدرس الخالد هو حاجة الناس جمیعاً إلى أوقات الفراغ ، فهي شيء لا غنى عنه في حياة أمة ولا في حياة أحد ..

وحبذا قضاء الفراغ كله فيما هو خير . ولكننا إذا خيرنا بين الفراغ بخيره وشره وبين ضياع الفراغ كله لاخترنا أهون الشرين .

إن العقلاء من أصحاب الأعمال يطلبون اليوم متسعًا من الفراغ لعمالهم بعد أن كان طلب الفراغ مقصوراً على العمال .

فالعامل الذي ينفق بعض الوقت ينفق بعض المال فتدور الحركة - حركة البيع والشراء في الأسواق .

حسبة من حساب الحرث لا من حساب الإسراف ، وحسبة يرضى عنها علم الاقتصاد ولا يغضب عليها علم الأخلاق .

والاقتصاد الأعظم بعد هذا وذاك هو الذي تعلمناه ونتعلمه من تاريخ الإنسانية من أوله إلى عهده الحاضر .

لابد من فراغ ! ..

ولابد من فراغ نحفظه !

والفراغ الذي نحفظه هو الذي يحفظنا ، لأننا نستخلص فيه خير ما ندخره من غربلة التجارب والمعارف والعظات .

* * *

٠٠٠ أخرج ساعة في حيائني

٤

إنها كانت ساعة من ساعات كاتر البوليس السرى المشهور ذلك أنى كنت مدة الحرب العالمية الأول «ناظر المدرسة الإسلامية بأسوان» وكان عندنا إذ ذاك مدير متآلة طالما كابد الأهالى من غطرسته شرا . وصادف أن وقعت حادثة إلقاء القنبلة على السلطان حسين كامل فنجا منها واحتفلت البلاد بنجاته ، وكان حقا علينا أن تحتفل مدرستنا بهذه المناسبة فلما أعددت العدة لهذا الاحتفال دعوت سعادة المدير لحضوره ولكنه لم يقبل ، فاحتججت عليه فى ذلك فكان جوابه أن طرق المدرسة بخيله ورجله ، فرفعت عنه تقريرا إلى السلطان حسين .. فلما وصل عظمته استدعى المدير إلى القاهرة وأطلعه شكواى . ويظهر أنه أنبأه تأييباً شديداً ، إذ ما عاد المدير حتى استدعاني .. فلما حضرت إلى مكتبه جلست على أحد المقاعد التي فيه ، فما كان منه إلا أن انتفض قائلا : «قف أمامي يا أفندي» فلم أملك أمام تلك الفظاظة إلا أن أقول له : «ولأى شيء هذه الكراسي المرصوصة التي اشتراها الحكومة للجلوس في هذا المكتب؟» فبهرت الرجل من هذه الإجابة .. ولكننى تركته وانصرفت ، فتهيج الرجل وأمر أعوانه باللحاق بي . فلما رجعت إليه يهددى بالنفى إلى «مالطة» وأنا أعلم أن النفى إلى «مالطة» إذ ذاك معناه الإعدام لأن صحتى كانت لا تسمح لى بتحمله ، ولكنى لم أعبأ بذلك وقلت له : «افعل ما تريده» وانصرفت ..

وكان مفتش الداخلية إذ ذاك فى أسوان ، و كنت فى هذه المدة تحت المراقبة .. وكان يلازمى عسكرى بوليس أينما ذهبت نهارا ، فإذا جاء الليل وقف على باب دارى غفير إلى الصباح ، وهكذا دواليك .. فما أن وقعت تلك الحادثة بينى وبين المدير حتى أخذ يشدد على المراقبة ، وكتب خطابا إلى رئيس جماعة المدرسة بفصلى ، ثم جعل يرسل التقارير ضدى إلى الداخلية ، ويزعم أنى أقوم بتهيج الأهالى . واستقر رأيه هو ومفتش الداخلية على نفيى إلى «مالطة» ولكن قبل أن أنتظر موافقة الداخلية دبرت طريقة للخروج من أسوان . ففى ذات يوم وضعت «عفشى» فى قفة من قحف الطحين وغطتها بطباقة من القمح ، وأرسلت القفة إلى بيت أحد أقاربى بالبلدة ، وهناك وضعوا «العفش» فى «شنطة» وأخذها

أحدهم إلى المحطة الثانية التي تلى أسوان ، وفي اليوم الثاني كلفت صديقاً لي
بأن يقطع تذكرة من محطة أسوان إلى الأقصر ..

بقي أمر خروجي أنا من المنزل مع هذه المراقبة الشديدة التي تستمر صباحاً
ومساء ... فلم أجد وسيلة إلا تكليف أحد أقاربي بإحداث «شكلة» مع أحد
المارة بقصد إبعاد الغفير عن البيت - وقد كان - وأثناء اشتغال الغفير بالمتنازعين
خرجت ورفيق لي إلى ظاهر البلدة حيث كنا أعددنا الحمير للركوب في المساء ..
فما أن ركبنا حتى حثتنا السير إلى المحطة الثانية . فلما وصلنا إليها وجدنا حامل
التذكرة المذكورة ، فأخذتها منه واعتليت القطار . ولسوء الحظ وجدت في
المركبة التي دخلتها معاون بوليس أسوان مسافراً لكتابة محضر حريق في «كوم
امبو» فأخرجت ، وكانت تلك الساعة ما بين محطة أسوان ومحطة كوم امبو هي
أخرج ساعة في حياتي ، ولكنها مضت بخير ، ووصلت إلى القاهرة بعد أن
انتقلت إلى قطارات آخرين بقصد التمويه على إدارة أسوان حتى لا ترسل من يلحق
بى في الطريق ، ولما حضرت إلى القاهرة أخذت أقابل ولاة الأمور في شأنى .
وبينما كنت أقابلهم للشكوى من المدير كان هو يكتب إليهم التقرير إثر التقرير ،
ويزعم أنى أقوم في ذلك الوقت بتحريض الناس وتهييجهم في أسوان مما أدى إلى
افتضاح كذبه وإحالته على المعاش .

* * *

—٠٠٠ كُنْت شِيَخًا فِي شَبَابٍ —

كنت شيخاً في الشباب ، فلا عجب أن أكون شاباً في الشيخوخة .. قياس منطقى غير صحيح كما يظهر لأول وهلة ..

فإذا كانت الشيخوخة قد بكرت إلى الفتى في إبان شبابه ، فالمعقول أن يصبح شيخاً قبل الأوان ، وأن يأتي عليه السن وليس فيه بقية من الشباب ..
هذا هو المعقول ، ولكن لأول نظرة كما تقدم ..
أما بعد نظرة أو نظرات فالمعقول غير هذا على التحقيق ..

المعقول بعد النظرة والتجربة أن الشباب المرح المندفع في شرطه وعنفوانه يبعث قواه عاجلاً ، ويستنفذ رأس ماله سريعاً ، فيخطو إلى الشيخوخة خطوات واسعات
كانه يسير إليها بكل قوة الصبا والفتوة !

إن الشباب الذي يحس الشيخوخة قبل أوانها يتأنى ويتئد ، فلا يصل إلى
شيخوخته في الأوان ..
وهذا هو المعقول في القياس .

وهذا هو المعقول لأنه هو الواقع الذي أعلمه من نفسي كيما كان حكم القياس ..
نعم .. لقد كنت شيخاً في الشباب ، وأصح من هذا أن أقول : بل كنت شيخاً
في الطفولة الأولى قبل أن أجاوز سبع سنوات .

ولا أطيل في وصف العوارض والبدوات التي تدل على أطوار الشيخوخة في تلك
السن المبكرة ، فإن طوراً واحداً يعني عن عشرات الأطوار ، وحسبى أن أذكر أنتى
لم ألبس قط بنطلوناً قصيراً ، وأصررت كل الإصرار على رفضه مع فرحي
بالملابس الجديدة المجهزة لدخول المدرسة مع زملائي وأقاربي ، وقد كنت من
أصغر التلاميذ سنًا في السنة الأولى الابتدائية ، وكانوا جميعاً بالبنطلونات
القصيرة ما عدوى ، فقد أصبح إيجاد البنطلون الطويل لمن كان في مثل سنى
مشكلة تجارية في المدينة الصغيرة ، ولم يسعفني طول القامة الذي جعلنى
أطول من لداتى بنحو سنتين !
هذا المثل يعني عن أمثال ..

* * *

وأحسب أن هذا الشعور قد لازمني في كل مرحلة من مراحل حياتي ، وأحسبني أشير إليه حين قلت أخاطب الشيب وأنا في السادسة والعشرين :

إِلَّا كَمَا تَنْقَضِي الْأَعْوَامُ فِي الْحَلْمِ !
دُونَ الْثَّلَاثِينَ تَغْرُونِي وَمَا انْصَرَمْتُ
دُونَ الْثَّلَاثِينَ قَدْ سَاوَاكَ فِي الْهَرَمِ
قُلْ لَابْنَ تَسْعِينَ لَا تَحْزَنْ فَذَا رَجُلُ
لَمْ يَدْكُرْ مِنْ شَبَابٍ كَانَ أَوْ نَعَمْ
إِذَا ادْكُرْتَ شَبَابًا فِي النَّعِيمِ مَضَى
أَنَّ لَمْ أَشْبِ أَبْدًا كَفِي وَلَا قَدَمِي
وَمَا انتَفَاعَنِي وَقَدْ شَابَ الْفَوَادُ سُدَى
كَلَا ، وَلَا شِيمَ الْفِتِيَانَ يَخْدُعَنِي
وَلِيَسَّ ما يَخْدُعَ الْفِتِيَانَ يَخْدُعَنِي

وهو الصحيح ، فلم تكن شيم الفتىَانَ قط من شيءٍ ، وأعلى بها اللهُو والغى والتمادى في طلب المتعة والسرور ، وهذا التحفظ الذي لم يفارقنى فترة في حياتى هو «القصد» الطبيعي الذى حفظ لي ثروة الفتوى ، فجاوزت الستين وأنا أعمل عملى فى العشرين وفي الثلاثين وفي الأربعين ، وقد أزيد عليه ..

وهذا هو المقياس الصحيح لدوام قوة الشباب ، ولكنه مقياس واحد من عدة مقاييس ، يكثر تردادها في مثل هذا المقام .

فعندهم مقياس الشعور ، وأصحاب هذا المقياس يقولون ما معناه ، عمرك شعورك أو أنك تبلغ العمر الذي تحس أنك بلغته ، فأنت في الثلاثين إن شعرت شعور ابن الثلاثين ، وأنت في الستين إن شعرت شعور ابن ستين ، وإن كانت تذكرة ميلادك تقول أنك لم تبلغ نصفها من السنين ..

وعندهم مقياس القلب والهوى ، وأصحاب هذا المقياس يقولون أنك شاب إذا كانت الفتاة تسعدك وتشقيقك ، وكهل إذا كانت تسعدك ولا تشقيقك ، وشيخ إذا كانت لا تسعدك ولا تشقيقك .

أى أنك شاب ما دمت تنخدع بالهوى ، وما دمت تطلبه ، فإن أصبحت لا تنخدع به ، ولا تطلبه ، فقد جاوزت الشباب وجمازت الكهولة بعد الشباب .

وشاعرنا العربي على هذا المذهب حين قال :

يَا عَزَّ هَلْ لَكَ فِي شِيَخٍ فَتَىٰ أَبَا وَقَدْ يَكُونْ شَابٌ غَيْرُ فِتِيَانِ
وَعِنْدَهُمْ مَقِيَاسُ الْهَمَةِ وَالْطَّمَوْحِ ، وَأَصْحَابُ هَذَا الْمَقِيَاسِ يَحْسِبُونَ الْمَرْءَ شَابًا مَا
دَامَ لَهُ مَطْمَعٌ فِي الْمَجْدِ وَالْعَظَمَةِ ، فَإِنْ وَنِي وَقْنَعَ فَهُوَ هَرَمُ الْهَمَةِ وَإِنْ كَانَ فَتِيَانِ
الْأَيَّامِ ..

وعندهم من يقول إن الخمسين شباب الشيخوخة وشيخوخة الشباب ..
ولكنها كلها مقاييس عامة لجميع الناس ، وإنما المقياس الخاص ما يقيسك
بنوع عملك أو شغل نفسك الذي لازمك في كل الأعمار ، فإذا استطعت في
الستين عملا كنت تقدر عليه عمركعشرون أو ثلاثون سنة ، فأنت فيشيخوخة
يمارجها الشباب ، ومهما يقل أصحاب مقياس الشعور ، أو أصحاب القلب
والهوى ، أو أصحاب مقياس الهمة والطموح ، أو أصحاب مقياس الخمسين ..
والمقياس الواحد الذي أقيس به جهدي في جميع أدوار حياتي هو النهم إلى
المعرفة ، فإنتى لا أذكر سنالى أكن فيها أحب أن أعرف ، وأن أقرأ وأن أختبر ،
وأن أفيد من كل ذلك توسيعه في آفاق الشعور .

صديقنا الأستاذ توفيق الحكيم تخيلنى في بعض كتبه قد دخلت الجنة وذهبت
أطوف في أرجائها عسى أن أرى وجهة مكتبة أقف أمامها ، وأتأمل عنوانين الكتب
فيها ، فلما طال بي المطاف ولم أجد مكتبة ولا كتابا ضجرت منها وطفقت أقول :
«ما هذا؟ .. جنة بغير كتب؟ ..» .

وصديقنا الحكيم لم يبالغ في تخيله ، لأنني فعلا لا أستطيع أن أعيش في جنة
لا أطلع فيها .. نعم لا أطلع فيها ، وليس من الضروري أن أقرأ في كتاب ..
وأود أن ألفت القارئ إلى هذا الفارق المهم جدا في نظري بين القراءة
والاطلاع ..

فقد يقرأ الإنسان ولا يطلع ، وقد يطلع ولا يقرأ ، فالقراءة هي إحدى وسائل
الاطلاع ، وليس هي وسيلة الوحيدة ..
ولماذا لا نطلع في الجنة؟ ..

يجب أن نطلع في الجنة قبل غيرها ، لأن المكان الذي تسكنه وتحب أن
تسكنه هو أحق الأمكنة أن تطلع عليه وتعرف كل ما قيل فيه ، وكل ما خطر
بالبال عنه ، وكل ما خامر به النفوس غير نفسك من خواج الغبطة والشوق والرغبة
والاستطلاع .

يجب أن نطلع في الجنة لأن الساعة الحاضرة فيها لا تكفيانا ، ومن حقها علينا
أن نعرفها ماضيا وحاضرها ومستقبلها ، وأن نحيط فيها بشعورنا وشعور الآخرين
الذين اختبروها غير خبرتنا ، وشهدوا منها غير ما شهدناه ..

فإن لم تكن لنا وسيلة إلى ذلك غير الكتاب فليكن الكتاب في الجنة ، ولا يعقل أن تنقص الجنة حيث تكمل المدن العامرة في هذه الدنيا .

ويقول قائل : أقراءة في الجنة ؟ .. إذن أنت سوسة كتب يا صاح ! ..

كلا أيها القائل ، وهذه غلطتك الكبرى . فإن سوسة الكتب هو الذي يعيش في الكتب كما يعيش السوس ، وأما الذي يقرأ الكتاب ليتوسيع حياته في العالم ، فالكتاب عنده طريق إلى عالمه ، أو هو نظارة يكبر بها نظره ليضاعف رؤيته ، فهو من صميم الحياة وليس بالصومعة التي تعزل ساكنها عن الحياة ..

وأيا كان الرأي في طلب المعرفة فالواقع أنها هي المقياس الذي أعرف به ما بقى لي من الشباب ، لأنها هي العمل الواحد الذي حصل بالأمس وسيحصل اليوم وسيحصل غداً إلى أن يشاء الله .

* * *

وأحمد الله لم يتغير من ذلك شيء إلا قوة النظر على طول القراءة ، فليس في طاقتى اليوم أن أثابر على القراءة أكثر من ساعة واحدة ثم أستريح هنيهة قبل أن أعاودها ، وقد كانت تطول في إبان الشباب بضع ساعات متواصلات .

وأحمد الله مرة أخرى ، لأنه نقص يقابلها عوض حسن ، فالساعة اليوم أبرك من ساعات ، مع المرانة على التحصيل وعلى الكتابة والتسجيل .

ولا أراني صنعت معجزة إذا احتفظت بهذا القسط من الشباب ، لأنه حظ يصيبه من شاء ، وأحوال طريقتى في إصابته من أيسر الطرق للجميع ..

فلى وقت للعمل ، ولدى وقت للرياضة ، ولدى يوم كل أسبوع أكف فيه عن كل عمل وكل قراءة حتى مطالعة الصحف وفض رسائل البريد ، ولدى مواعيد للطعام والنوم لا تختل في يوم ، ولدى قاعدة عامة تشمل العمل والرياضة والطعام والجد واللهو والبطالة ، وهي التوسط بين الإفراط والتفرط ..

وقبل ذلك كله كانت لدى شيخوخة في مقبل الشباب .

ولم يخل شبابى من الشيخوخة فمن الحق ألا تخلو شيخوختي من الشباب ..

* * *

الفصل الخامس

—أصلاثٍ وأعدائهم—

لِي بِحَمْدِ اللَّهِ أَصْدِقَاءُ ..

وَلِي كَذَلِكَ أَعْدَاءَ بِحَمْدِ اللَّهِ ..

وَأَحْمَدَ اللَّهُ عَلَى الْأَصْدِقَاءِ حَمْدَ الْغَبْطَةِ وَالرَّضَا وَالْمَسْرَةِ ..

وَأَحْمَدَ اللَّهُ عَلَى الْأَعْدَاءِ حَمْدَ الْإِنْعَامِ بِالْبَلْوَى ..

وَقَدْ يَنْعَمُ اللَّهُ بِالْبَلْوَى وَإِنْ عَظَمْتَ ..

وَيَبْتَلِي اللَّهُ بَعْضَ الْقَوْمَ بِالنَّعْمَ ..

كَمَا قَالَ أَبُو تَمَّامَ ..

وَمِنَ الْأَعْدَاءِ مَنْ تَوَدَّ لَوْ تَشْتَرِيهِ بِمَالِكَ وَسَعْيِكَ ، إِذَا أَنْتَ افْتَقَدْتَهُ فَلَمْ تَجِدْ مِنْ حَوْلِكَ ..

وَمِنْ حَقْكَ أَنْ تَشْتَرِي بِالْمَالِ وَالسَّعْيِ عَدُوَّا يَزِينُكَ بِمُخَالَفَتِهِ إِيَّاكَ ، فَإِنَّهُ لَا يَزِينُكَ بِهَذِهِ الْمُخَالَفَةِ إِلَّا إِذَا كَانَ عَلَى خَلْقٍ يَعِيبُهُ وَلَا يُشَرِّفُ مِنْ يَوْافِقَهُ عَلَيْهِ ..

وَمِنْ حَقْكَ أَنْ تَشْتَرِي الْعُدُوَّ الَّذِي لَا يَعَادِيكَ إِلَّا حَسْدًا عَلَى النِّعْمَةِ ، فَلِيُسَّرِّ أَسْوَأُ حَالًا مِنْ إِنْسَانٍ عَلَى حَالَةٍ لَا يَحْسُدُ عَلَيْهَا ، وَلِيُسَّرِّ مِنَ الْخَيْرِ اتِّقاءً حَسْدَهُ بِخَسَارَةِ نِعْمَتِكَ ..

وَمِنْ حَقْكَ أَنْ تَحرِصَ عَلَى الْأَعْدَاءِ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِعَدَاوَاتِهِمْ لَكَ إِنَّكَ تَضرُّ وَتَنْتَفِعُ ، فَمَنْ لَا يَضرُّ وَلَا يَنْفَعُ مَوْجُودٌ لَا يَحْسُنُ لَهُ وَجُودًا ، وَلَا ضَيْرٌ عَلَيْكَ أَنْ يَخْالِفَ بَعْضُ النَّاسِ أَنْ تَضرُّهُ أَكْبَرُ الضَّرَرِ أَوْ أَصْغَرُهُ ، فَإِنَّمَا النَّاسُ لَمَنْ يَكُونُ ضَرِرُهُ عَقُوبَةً عَلَى الشَّرِّ ، وَإِنَّمَا لَمَنْ يَجْهَلُ ضَرِرَهُ وَنَفْعَهُ ، وَإِنَّمَا لَمَنْ يَبْتَلِيَ اللَّهُ بِالضَّرَرِ لِصَالِحِ أَمْرِهِ ، وَمَنْ يَكُونُ ضَرِرَهُ فِي نَفْسِهِ كَضَرِرِ عَدَاوَتِهِ لِغَيْرِهِ ..

فَعَلَى عَدَاوَةِ هُؤُلَاءِ جَمِيعًا نَحْمَدُ اللَّهَ الَّذِي لَا يَحْمَدُ عَلَى مَكْرُوهِ سُواهُ ، وَلَكِنَّهُ مَكْرُوهٌ يَسْتَزَدُ ..

وَعَلَى صِدَاقَةِ مَنْ يَبْقَى لَنَا بَعْدِ عَدَاوَاتِهِمْ فَلَنَحْمَدُ اللَّهَ ، حَمْدًا لِلَّهِ ، ثُمَّ حَمْدًا لِلَّهِ .. وَحَمْدًا لِلَّهِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةً ، لَأَنِّي لَا أَصَدِقُ أَحَدًا وَلَا أَعْدَادِيهِ فِي مَأْرِبٍ مِنْ مَأْرِبِ النَّفْسِ وَلَا فِي صَغِيرَةِ الْفَضْلِ الَّذِي يَبْتَلِي بِهِ كُلُّ إِنْسَانٍ ، فَمَا عَرَفْتُ

صديقاً فعرفت لصداقتى له سبباً غير فكرة نشترك فيها أو مطلب من مطالب الأدب نتفق عليه ، أو غاية من الغايات العامة نسلك السبيل إليها ، أو طرفة من طرف الراحة الروحية تعم كل من يستريح إليها ، ولا تخصنى أو تخصه بداع من دواعي الأثرة والمحاباة .

وكذلك أعدائي الكثير منهم والقليل ..

أعاديهم ، وأصح من ذلك أنهم هم يعادونى ، لأننا نتعادى على عقيدة أو خطة أو برنامج أو مصلحة من مصالح الناس ، ونحن من أولئك الناس .

وفي ذلك ألقى العجب من عداوة النقيضين ، وضغينة العدوين المتعارضين .

لقد حاربت الطغيان وحاربت الفوضى ..

لقد حاربت رؤوس الأموال وحاربت مذاهب الهدم والبغضاء ..

لقد حاربت التبشير وحاربت التقليد الأعمى والدجل المريب باسم الدين ..

لقد حاربت الجمود والرجعية وحاربت الإنكار والجحود ..

لقد حاربت الأحزاب وحاربت الملوك ..

لقد حاربت هتلر ، ونابليون ، وحاربت المستعمرات فى صفوف الديمقراطيين ..

لقد حاربت أعداء الأدب المسمى بالقديم ، وحاربت أصدقاء الأدب المسمى بالجديد ..

لقد حاربت الصهيونية وحاربت النازية أكبر أعداء الصهيونية ..

لقد حاربت جميع هؤلاء فالتقى على محاربتي أناس من جميع هؤلاء ...

صهيوني ، إلى جانب نازي ، إلى جانب فوضوى ، إلى جانب رجعى ، إلى جانب ملحد ، إلى جانب حامل اللحية والعذبة باسم الدين ، إلى جانب الماركسي من اليسار والمبشر من اليمين .

وفي معسكر الأعداء - كما يقال في لغة المعسكرات - يلتقي «المليونير» والمتشرد ، ويلتقي المعجب بالخنساء والمعجب بساجان ، ويلتقي الصوفى والخليل ، ومن ورائهم معسكر الشاردات من الجنس اللطيف ومعسكر الشاردين من الجنس المخشوشن الكثيف .

جيش جرار بحمد الله ..

نعم بحمد الله حقاً وصدقأً حمدان متواترين ..

حمدًا لله «أولاً» لأنه أرسل على هذه السيوف المشرعة من كل جانب ، ولكنه أسبغ على الدروع التي تنكسر عليها تلك السيوف ، فقال رب الجنود : أنت «قدتهم وقدود» ..

وحمدًا لله «أولاً وأخيراً» لأنه خصني من بين هذا العموم بصداقه «الإنسان» حيث كان ، وفي جميع هذه الأشكال والألوان ..

فحىشما اختلفت هذه الجماعة وتلك الجماعة ، وحيشما افترقت الأسماء والأزياء ، فالإنسان الذي يكمن في كل مكان وراء العناوين والجدران ، يبسط يديه إلى ، ويلتقى بصاحبته لدى ، ويتحول على حزبه ولو كان مستخفياً في سرية ، فهم شيع وأحزاب من بعيد ، وهم معى في محارب «الإنسانية» الوحيد ، صديق رشيد إلى جانب صديق رشيد ..

ولا تنسى من هذه الأشكال والألوان ، عباد الأصنام والأوثان ..

والأوثان هنا هي أوثان المظاهر والألقاب لا أوثان المذاهب والأرباب ..

ولقد نكب هذا البلد المسكين بدأ الاستبداد القديم ، فور في أخلاق بنية على توالى العصور أن قيم الناس مرهونة بتقدير الحكم المطلق المتصرف في الأقدار والمقامات ، فلا قدر لإنسان بغير مظهر ، ولا مقام لأحد بغير لقب ، ولا جاه ولا حسب ولا علم ولا يقين بغير صيغة مرسومة في سجلات الدواوين ..

وبلغ من عبادة الأوثان أن «الصوفية» خلقت في هذا البلد منذ قرون فما ليثت أن عاشت على المظاهر والألقاب ، وعلى الشيع والأحزاب ، بين عريف ووكيل ورئيس ، وبين منتب إلى هذا الفسريح ومنتسب إلى ذلك الهيكل أو تلك الزاوية أو ذلك الكنيس ..! ومعهم كلهم ألوان من الشارات وأشتات من الرايات والفوانيس .. وإنهم كذلك وهم يتتصوفون ويتشسفون ، أو هكذا يقولون ليبذوا مظاهر الدنيا وألقاب التعظيم والتقديس ..

وقبل أن تتحطم هذه الأوثان ، يظهر في هذا البلد مخلوق وأى مخلوق ، وقل إن شئت إنسان وأى إنسان ..

أديب مشهور ، وليس بلسانس ولا دكتور ..

وعضو في مجلس الأعيان ، ليس في حوزته نصف فدان ..

وليس بيتك ولا ياشا ، ولكنه يقول للبيك والباشا : كلا وحاشا ! ..

وصاحب أغوان وأنصار ، وما هو بزعيم حزب ولا بصاحب عصبية ، ولا مصطبة ولا دوار ..

وفقير جد فقير ، ولكن ليس بهين ولا حقير ..
وصاحب قلم مسموع الصريح مرهوب التفیر ، ولكن ليس بصاحب صحيفه ولا
بمدير ولا برئيس تحریر ، ولا سكرتير تحریر ..
يا حفيظ ..
شيء يجنن ..

ويزيد المغيطين من هذا «المقتجم المتهجم» أن يهاجم «الأصالة» فلا يبالى
هجوماً عليه ، أو يباليه ولكنه بأصبح واحدة من إحدى يديه ، يرده على عقبه ..
يا حفيظ .. شيء يجنن شيء يغيط !

ولقد أراحنا الله من هذه الأوثان في عالم الرتب والنياشين ، وبقي الطقم الأخير من
أوثان الألقاب والمظاهر في عالم «العلم» المحجوز على ذمة المعاهد والدواوين ..
وكان خليقاً بهذا الوثن المتخلف أن يتحطم أو يتهشم أو يقع في عقر داره بعيداً
عن الأنوار والأسماع ، ولكنه - وهو الوثن «الحيلة» والبقية الباقيه من القبيلة - قد
ضوّعت حوله القناديل والقرابين ، وأوشك وحده أن يخلف أوثان الدنيا والدين ..
وأغيط ما يكون عابد الوثن إذا كان للوثن صلاته وصيامه وكان حول الوثن طوافه
وقيامه ، وكان كل حقه في سمعة العلم مرهوناً بلقبه ، وكل توهين لشأن هذا
اللقب موهناً لحجته في دعوه ، وما من حجة سواه ..

إن من أهل العلم من هو على موثق من فضله ، ومن هو في غنى عن قشور
المظهر بلباقة ، فلا موضع لصغرائهم الدعوى في سبيل هذه النافلة عنده ، ولن
صديق في كل إنسان وكل ذي أمانة من هؤلاء ، ولهم حق على الناس أراه على
سنة الإنفاق والوفاء ، ولكنني أدعوا الله ألا يحرمني من عداوة مدع دخيل على
حرم المعرفة وحرمتها : نكرانه للفضل على قدر شعوره بعرفان غيره ، وكفرانه
بالحق على قدر صواب المحق لا على قدر خطئه ، فإن الذي لا صواب له يكفي
الحقادين مئونة النعمة عليه واللجاجة في مذمة عمله وبنحس جهده واجتهاده ..
والحمد لله على عداوة هؤلاء ، ووكان الله شر الرضا من هؤلاء ، وشر الصداقة
والآصدقاء «الألداء» من هؤلاء وأشباه هؤلاء ..

ولست أحدث القارئ بجديد في أمر العداوة على المظهر والعنوان ، ولا في أمر
الغيرة على الأصنام والأوثان ، وأقبحها أوثان المظاهر والعنوانين في أمة شقيت
طويلاً بأرباب الطغيان ، قبل أرباب الأديان ..

ولكننى أود لو يعلمون كم يبلغ العابدون فى محارب هذه الوثنية من أهلها ومن غير أهلها ، فإنهم لكثيرون بل جد كثيرين ..

فإن بين المحروميين من كل مظاهر لمن هو أخلص عبادة لهذا الوثن من أقرب المقربين إليه ، وأوفرهم حظا من نعمته ، لأنه ينقم عليك أن تساويه فى مظاهره ولا تساويه فى هوانه ، وأن تعلو حيث يهبط وترتفع حيث ينحدر ، وتسلم لك الشهادة حيث تبطل عندك المكابرة واللجاجة ، فلا يقاربك بواقعه ولا بدعاوه !

وخذ مثلا من هؤلاء العباد «المتطوعين» ، مخلوقا عرفته لا له فى العلم ولا فى دعواه ، ولا يخطر له يوما أن يحسب فى زمرة العلماء من حملة الألقاب ولا فى زمرة العلماء العاطلين ، ولا العلماء المغمورين والمجهولين المنسيين ، بل لعله - وهو طرزى بلدى - لم يطمع إلى مزيد من الشهرة فوق مكانته بين أهل الصناعة ، ناجحين أو كاسدين ..

ولكنه كان أغيب ما يغيبه أن ينهض الناس تحية لفاضل من فضلاء عصره لم يكن من ذوى الألقاب والأحساب ، ولكنه كان موفور القدر فى أعين ذويها ، وفي أعين الناس ممن يعبر بهم فى طريق الطرزى ، من ميدان التوفيقية حيث يسكن ، إلى قهوة «الاسبلندة» حيث يتلقى بالإخوان والصحاب ، وأكثرهم من ذوى المراتب والمظاهر ، وكلهم يلقاه بذلك التوقير وذلك الترحاب ..!

وينفجر الطرزى غيظا وقد عبر الرجل الفاضل أمام دكانه ، وقد وقفت أتحدث إلى صديق لقيته فى ذلك الدكان فكدت أحسبها ترة من ترات الدم بين ذلك الطرزى وذلك الفاضل المؤقر بغير لقب ولا حساب ، ولا جاءه ولا مال .. قلت له : أتعرفه؟ ..

قال : لا والله ، ولكننى عرفت حاله - وهو «غلبان» فى بيته وفي مأكله ومشربه وكسائه فعجبت : ما هذه النفحة فى غير شيء؟ .. وما هذا التوقير من هؤلاء المغفلين لإنسان لا يحسب من «الأفنديه» ولا البكوات .. إلا بتقليد اللسان : «حتى مش بيء إلا بالكذب» ..

ولقد عرفت الرجل فلا والله ما عرفت عليه سمة من سمات «النفحة» التى ادعاه عليها ، ولكنه كان لا يقع فى حاله - كما قال - وهو يعلم أنه ليس من «البشوات» ولا من أصحاب المناصب والأموال ..

وحول «الأوثان» ألف من هؤلاء العباد «المتطوعين» ذهبت لهم دولة الرتب والنياشين ، ولكنهم حول الوثن الأخير لا يزالون راكعين ساجدين ، وفاء لعهد المذلة والعادة ، وإن فاتهم كل وفاء لكل علم ولكل دين ..

••• أصل قائل الأطفال •••

أزاهير الرياض بشائر الخير والجمال ، وترجمان الربيع بالألوان والعطور ، والناس يحبونها ولا يعجبون من حبها ، بل لعلهم يعجبون إذا قيل لهم إن هذا أو ذاك لا يحب الأزاهير ...

ولكنهم قد يحسبون أن حب الأطفال «خبر» يروونه عن هذا أو ذاك ويفسرونها كما يفسرون غرائب الأخبار ..

أتراهم يظنون أن نصرة الزهرة أجمل من نصرة الطفل الصغير؟ ..

ولا نخالهم يظنون ذلك ، ولكنها «الأنانية» تدخل هنا في الحساب ، فتفضلهم عن حسن التقدير ..

لأنهم تعودوا كلما ذكروا الأطفال أن يتتصوروهم أبناء لأباء وأمهات .. فإذا سمعوا أن الأب يحب ولديه وأن الأم تحب صغيرها فلا عجب ولا حاجة إلى خبر ..

ولكن ما بال من ليس بأب يحب أبناء آبائهم وهو عنه غريب؟ ..

هذا هو وسواس الأنانية الذي يدخل في الحساب فيفضل الخيال عن التقدير الصحيح ..

أما الواقع - بمعزل عن هذه الأنانية - فهو أن الأطفال محظوظون لأنهم أزاهير الإنسانية وترجمان ربيعها ، محظوظون لأنهم بشائر الشباب والحياة ..

بل هم محظوظون ، وينبغى أن يحبوا ، لأننا نتعلم منهم ، ولأننا نستمتع في صحبتهم برياضة من رياضات النفس تجدد لنا كل شيء ، ولأنهم عزاء ، وأي عزاء حتى حين يكون بكاء الطفولة الساذج المضحك المأمون ..

إنهم معلمون من الطراز الأول .. لأن أخلاق الإنسانية مكتوبة في نفوسهم بالخط البارز الذي تقرؤه لأول نظرة ، وهي في نفوس الكبار ضامرة أو مصفحة أو ملتسبة بوشى الرياء وزركشة العرف وزخارف التكلف والتمويه ..

إن معلمينا الصغار لا يكتمنون شيئاً ، وكل ما كتموه أبرزوه وضاعفوا إبرازه ، فمن لم يتعلم حقائق الضمير الإنساني من الطفل فما هو بمستفيد شيئاً من علوم الكبار ، ولو كانوا من كبار العلماء ..

وصحبة الطفل الصغير رياضة وما أجملها من رياضة ..

إن الأوربيين يعبرون عن الرياضة بالخلق الجديد recreation كأنهم يقولون إن الترويح عن النفس يخلقها خلقاً جديداً ويعيدها نشأة أخرى كما كانت أو خيراً مما كانت عليه ..

والطفل يريك هذا الكون قشيبة عجيبة كأنك تراه خارجاً من يد الله في يوم الخلقة الأولى ..

إن الصغير الذي يرفع العصا ليدرك بها القمر يعود بك كما كنت يوم ملأت عينيك من القمر أول مرة ، فزعم لك خيالك الطريف أنه على مد الذراع القصيرة ، وأنه إذا احتاج منك إلى جهد فغاية هذا الجهد أن تصعد إلى سقف وترفع العصا إليه ، فتنزل به إليك !

إن التليفون لا يدهشك إذا نظرته أو استمعت إليه ، ولكنه يملؤك بالدهشة كلما حدثت طفلاً من وراء المسافات البعيدة فسمعته يهلهل ويصبح على من حوله أن ينظروا إليك مختبئاً في جوف السماuga الممسحورة .. وأكبر عجبه أن تحتويك تلك السماuga وهي تضيق عن كفيه الصغيرتين .

إن كل محادثة مع الطفل عن هذه المنظورات المملة المطروقة إنما هي احتفال برفع الستار للمرة الأولى عن تلك المنظورات العتيقة .. كأنها أujeبة لم تقع عليها من قبل عينان .

وهؤلاء الصغار عزاء .. مثله عزاء الحكماء ..

ألا يكون من مصابهم التي تضحك الثكلى ؟ ألا تعلم من هذا البكاء المضحك أننا سنضحك غداً مما يبكينا في هذه الساعة ؟ ألا نعود إلى ما كان يبكينا في طفولتنا فنعلم أن كثيراً من البكاء هزل ، وأن كثيراً من العزاء جد ويقين ؟

ولهم محرجات تخنق في حينها ولكنها حتى حين «تخنقنا» من الحرج تكاد تخنقنا من الضحك المكتوم .

وكلكم عرفتم هذه المحرجات وتعرفونها وستعرفونها ، فأنتم في غنى عن الإفاضة في سرد الأمثال والنواذر ، وقد تذكركم نادرة واحدة بمئات من هذه الأمثال ..

حضرنا مجلسنا كان فيه رجل وقور أعور بين العور ، وفي الدار طفل في الثالثة من عمره ، سليط اللسان يكاد لا يدخل لسانه في فمه من فرط الثرثرة والفضول .

وقف هذا الشثار على باب الحجرة ، ثم رأينا يطيل النظر إلى الرجل الوقور الأعور ، ثم اقترب منه وهو يضع إصبعه في فمه ويرفع نظره إلى العين العوراء ..

قلنا : يا ساتر استر . إنه لن يسكت ولن يطول الانتظار حتى نسمعه قائلاً شيئاً . فما عسى أن يقول ؟

و قبل أن نفرغ من هذا الخاطر رأينا يصعد على ركبتي الرجل ويمد يده إلى عينه العوراء ويسأله كأنه يسأل عن ساعة أو سلسلة أو خاتم أو حلية مما يثير الفضول : «لماذا أقفلت عينك هكذا؟» .

تشاغلنا كأننا لا نسمع لعله يكتفى بسؤال واحد فلا نلجم الرجل ولا نلجم أنفسنا إلى حرج .

ولكنه كأنما قد أقسم ليعرفن السر في تلك الحيلة المستغربة : حيلة هذا المشعوذ الذي يستطيع أن يقفل عينه ، وكل من رأهم حوله لا يستطيعون .

فعاد يلح ويسأله : ألا تقول لي لماذا أقفلت هذه العين ؟

فبطلت الحيلة ، وأخذته أمه جذباً بإحدى ذراعيه ، وخرجت وهي تختنق كما نختنق نحن من الحرج المضحك أو من الضحك المحرج ، وهو مع هذا يمد ذراعه الأخرى غاية امتدادها مشيراً إلى العين المقفلة ، ويكرر على أمه هذا السؤال : ولكن لماذا يقفلها يا ماما؟ .. ولم تسترح «ماما» منه إلا حين قذفت به إلى داخل الحجرة المجاورة ، وهي تقول ولا تملك نفسها من الغضب والضحك المكتوم : أنت مالك ومالعينه؟!

هؤلاء المحرجون «مصالب» في أوقات الحرج .

إلا أنها المصائب التي نذكرها بعد ضاحكين ، ولا ندرى هل نتمناها أو نتمنى انقطاعها .. فإنها المصائب التي يسوءنا أن تنقطع من الحياة ..

وأى مخلوق أحب إلى القلب من المخلوق الذي يسليك وهو يحرجك ، ويعزيك وهو يبكي أمامك ، ويجددك أنت وهو ينظر إلى كل قديم من حولك ، ويعلمك وأنت تحسب أنك لا تفرغ من تعليمه ، وأن دروسه التي ي مليها عليك لأنفع من دروسك التي ت مليها عليه .

لكن .. وبالها من لكن !

لكنها كما نعلم جميعاً متعة غالبة الثمن . غالبة جداً لا نملك ثمنها ، لأنها قاسم للظهور في كثير من الأحوال .

فنظرة إلى طفل مريض تنسيك متع الدنيا بأسرها ، وصيحة ألم من ذلك الصغير ترزلل عزائم الأبطال .

أما إذا كان الخطيب أجسم من ذلك فلا حول ولا قوة إلا من حول الله وقوته ..
وكلاهما ليس في اليدين ..

وجامل بهذا الخطيب من يحسب أن الحزن على الصغير أهون من الحزن على الكبير .

إذ الواقع أن الحزن على الكبار قد يهون عند الحزن على هؤلاء الصغار ، لأنك تحزن عليهم بمقدار تعوييلهم عليك ومقدار الرجاء في غدهم ، وعدهم طويل مفتوح لأمال الخيال ، ونظرتهم إليك وهم مرضى على يديك تطالبك بالمعجزات ، وتعجزك بعد ذلك عن الصبر على ذلك الأمل الذي ضاع فيك وضاع فيهم ، فلا عزاء .

متعة نفيسة وثمن غال ، ومما زهدنى في اقتناء المتعة النفيسة علمى بخلو الشمن .. ولا أخالنى مع هذا نجوت مما ابتليت به فى طائفة من هؤلاء الأصدقاء الأعزاء ...

* * *

••• أنا في السجن •••

فتحت الكوة الصغيرة ، ثم فتح باب الرتاج الكبير ، ثم احتوانا البناء المحفور الذي يعرف في مصلحة السجون باسم «سجن مصر العمومي» ويعرف على ألسنة الناس باسم «قرة ميدان» أي الميدان الأسود باللغة التركية! ..
وخطر لي - وأنا أخطو الخطوة الأولى في أرض السجن - - قول الفيلسوف ابن سينا وهو يخطو مثل هذه الخطوة :

دخلت باليقين بلا امتراء وكل الشك في أمر الخروج
 فهو تقرير فلسفى صحيح للواقع ! ..

أما الدخول فيها هو ذا يقين لا شك فيه ، وأما الشك كل الشك فهو في أمر الخروج .. متى يكون ، وإلى أين يكون؟ إلى رجعة قريبة من السجن وإليه؟ أم إلى عالم الحياة مرة أخرى؟ أم إلى عالم الأموات؟

في تلك اللحظة عاهدت نفسي لشن خرجت إلى عالم الحياة لتكون زيارتي الأولى إلى عالم الأموات ، أو إلى ساحة الخلد كما سميتها بعد ذلك .. أي ضريح سعد زغلول ..

ولم تقع مني هذه الرحلة بين الدار والسجن^(١) موقع المفاجأة ، لأنني كنت أنتظراها منذ زمن طويل ولو على سبيل الحجز الذي ينتهي بإفراج سريع ، ولكنني كنت لا أرى فرقاً بين أيام أو أسابيع أقضيها على ذمة التحقيق وبين مدة أقضيها في الحبس بحكم القضاء ، لأنني كنت أقدر أن حبس التحقيق - وإن قصر - كاف لأن يصيّبني بأكبرضرر الذي يخشاه الناس من السجن ، وهو ضرر العلة التي لا تزول ، وعلى توقعى الاتهام والحبس كانت الأنباء تتولى على ما يؤكّد

(١) في أوائل سنة ١٩٢٨ اجتمع البرلمان اجتماعاً خاصاً في عهد وزارة الرئيس مصطفى النحاس للبحث فيما يدبر للحياة النيابية بين القصر ودار المندوب السامي ، ووقف عباس محمود العقاد خطيباً ، فهاجم أعداء الأمة وأعداء الدستور ، ونطق بكلمته المشهورة «إن الأمة على استعداد لسحق أكبر رأس في البلد يخون الأمة ويعتدى على الدستور» وفهم القصر أن المقصود بهذه الكلمة الملك فؤاد ، وكان العقاد متمنعاً وقتنذاك بالحسانة البرلمانية كنائب في البرلمان ، فلما حلّت الحكومة برلمان .. ثم جاءت حكومة إسماعيل صدقى دبرت قضية العيب في الذات الملكية من المقالات التي كان يكتبها وقتذاك عن الرجعية ، فقضت المحكمة بحبسه ٩ أشهر من ١٣ أكتوبر سنة ١٩٣٠ إلى ٨ يوليو سنة ١٩٣١ م .

ذلك التوقع من جهات عدة ، وسمعت النبأ اليقين في هذا الأمر من صديقنا المغفور له سينوت حنا بك ، لقد لقيتني مرة فاستوقفنى وقال لي : « حذار يا أستاذ ! » فقلت له باسمها : « لا يغنى الحذر من القدر ! » قال لي : « إنى أروى لك ما علم لا ما أظن : إن مقالاتك تراجع في بعض الدوائر مراجعة خاصة ، وإنهم ينتظرون يوماً معيناً ربما كتبت فيه ما يساعد على تأييد التهمة ، ثم يقدمونك إلى المحاكمة بما استجمعوا من أدلة قديمة وحديثة ! » .

* * *

وكان في نيتى أن أسافر صيف سنة ١٩٣٠ إلى لندن مع وفد مجلس النواب لتمثيل مصر في مؤتمر المجالس النيابية الذي عقد تلك السنة في العاصمة الإنجليزية ، فقد استخرجت جواز السفر السياسي ، وشتريت دليل لندن ودليل العواصم الأوربية التي كنت أنوي زيارتها ، ولم يبق إلا تذكرة السفر والاتفاق على الموعد واللحاق بإخواننا الذين سبقونا إلى باريس ليشهدوا فيها الاحتفالات بعيد الحرية ، ثم بدا لي أنتى إذا سافرت فقد أمهد بيدي وسيلة لنفي في أوروبا سنوات بلا عمل ولا قدرة على البقاء في ذلك الجو القارس أيام الشتاء ، وربما كان منه عودتى أسهل على الزيارة من محاكمة قد تنتهي بالبراءة أو بعقوبة لا ترضيها .. فعدلت عن السفر في اللحظة الأخيرة ، وقلت إن السجن أحب من النفى الذي لا عمل فيه ولا ضمان للصحة ولا للحياة !

وفي اليوم الثاني عشر من شهر أكتوبر دق الجرس أصيلاً وأنا وحدى بالمنزل ، لأن أخي كان معتقلاً في قضية « البلطة » المشهورة متهمًا بالتأمر على حياة رئيس الوزراء ، ولأن الخادم لم يعد من راحته الظهرية وصلاته العصرية ، ففتحت الباب فإذا ضابط من رتبة « اليوزياشى » . على ما أذكر يبادرني بالسؤال :

- هل حضرتك فلان !

قلت : نعم ..

فمد إلى ورقة من دفتر في يده على هيئة ذكرتني الكونت نيمور وهو يلقى القغاز في محضر لويس الحادى عشر .

قلت : تفضل أولاً فأجلس .

فتردد في الدخول ، ثم دخل وجلس ، فتناولت الورقة وقرأت فيها دعوة من صاحب السعادة النائب العمومى للحضور إلى مكتبة فى الساعة العاشرة من صباح اليوم资料 ، ووquette على الدفتر - كما طلب الضابط - بأننى تسلمت الورقة .

وأخذت في إعداد الكتب التي سأقرأها في السجن ، والأدوية التي أتعاطاها ، والملابس البيتية التي أحتاج إليها هناك ، وزدت فأعددت الأغطية الصوفية التي تلزمني للفراش والغطاء ، لأنني كنت حتى تلك الساعة أجهل «تقاليد السجون» وأظن أن الأغطية الخاصة مسموح بها كالملابس الخاصة أثناء التحقيق وفي الفترة التي تسبق المحاكمة ، ثم حضر الطاهي فأريته هذه الأشياء كلها وقلت له : إنه سيحضرها لي في السجن غداً عند اللزوم .

فظهر لي أنه لم يفهم .. وأنه ينوي أن يقصد بها سجن الأجانب الذي كان أخي معتقلاً فيه .

فقلت له : «بل هي لي أنا في السجن الذي سيخبرونك عنه غداً بدار النيابة!». ووصفت له الدار واجتهدت أن أفهمه جهد المستطاع ، وذلك جهد يعرف العارفون بالشيخ «أحمد» أنه ليس باليسير !

وذهبت في الموعد المحدد إلى دار النيابة ، واستغرق التحقيق ساعات ، ثم قال لي حضرة المحقق : «إنني أسف لأننا سنضطر إلى إيقائك عندنا قليلاً يا أستاذ!» وببدأ حضرات المحامين يوجهون نظر رجال النيابة الحاضرين إلى «الحيطة الصحية» الواجبة في هذه الحالة ، ومنها اختيار السجن الذي يوافقني أثناء الاحتجاز «الاحتياطي» أكثر من سواه ؛ وكان الأساتذة المحامون لحسن الحظ من الخبرين بمزايا سجون القاهرة التي تردد عليها في سنوات الثورة السياسية معظم المشتغلين بالقانون والسياسة ، فأضافوا خبرتهم بالسجن إلى خبرتهم بالمحكمة وقدرتهم على النصح السديد للمتهمين والموكلين ، واستحسنوا أن يكون الاحتجاز في «سجين مصر» لأن الجو فيه أوفق لي من سجن الاستئناف ..

فذهبت مع الضابط والجند في سيارة خاصة إلى «قرة ميدان» وتحطيت الباب فإذا هدوء غير مألوف لأن الوقت كان وقت الراحة عقب الغداء . وتوجه بي الضابط نحو حجرة الكاتب لتسليم ما عندي من الودائع وكتابة الأوراق التي لابد منها لكل مسجون جديد . وما هي إلا لحظة حتى توافد الموظفون وكثرة دخول السجانين ينتظرون إلى القادر الذي سرى بينهم نبأ قدومه .. وأخذ كاتب هناك مرح ثرثار يداعبهم واحداً بعد واحد كلما مرروا به وتصنعوا سؤاله عما يضممه لهم بريد اليوم . فيقول لأحدهم : «اطمئن .. لقد عينوك مديرًا لمصلحة السجون ..» ثم يحدّج بيصره كمن يستغرب دهشته . ويقول : «ألا تصدق؟ أه يا ابن الحال معدور فإنك في السجن ولست في البيمارستان ..» .

أو يقول لغيره : «تعال هنا .. قرب أذنيك !! قرب أيضًا» .. ثم ينادي بصوت يسمعه كل من في المكان : «افرح .. نقلوك إلى أسوان . لا تقل لأحد يا ولد!»

وهكذا فى أثناء التسليم والتدوين . فاستعدت فى ذهنى موقف هملت وحفارى
القبور .. إذ يغنوون وهم فى ذمار الموت !!

الليلة الأولى

لم يكن مكتب الموظفين إلا بمثابة «الأعراف» التى تفصل بين نعيم الحرية وجحيم الاعتقال . ولكنها «أعراف» تنقل من النعيم إلى الجحيم كما تنقل من الجحيم إلى النعيم .. وقد كانت فى اليوم الذى سجلت فيه اسمى بين الداخلين تسجل أسماء شتى للخروج أو للإفراج كما يسمونه فى لغة السجون !

وعبرنا مكتب الموظفين ومكتب المأمور مع ضابط العنبر فى هذه المرة ، لا مع ضابط الشرطة الذى مقامه عند الباب . فاتجه الضابط إلى عنبر «ب» وفتح الباب الحديدى ودخلنا العنبر فكان أول ما صادفنا فيه منظراً عجيباً لا تألفه العين :

أناساً بملابسهم العادية جالسين القرفصاء فى صمت لا يلتفت أحدهم يمنه ولا يسره . ومن ورائهم نفر مكبون على الأيدي كما تمشى الدواب يزحفون زحفاً ، ويتعىنى أحدهم بصوت خفيض والباقيون يجيئونه بصدى - لا بكلام - يقولون فيه : «هيه هيه» .. أما المعنى فالذى ذكره من أنشودته الآن عبارة واحدة : «رأيحة له فيه ! ده عليه سنتين !» .

فقلت : فألم جميل وأيم الله ! وللله شأن كبير فى «نفسيات» المسجونين ، كما سيرى القراء فى بعض هذه الذكريات ..

وكان لابد لي من «فرجينيل» يصاحبنى كما صاحب الشاعر الإيطالى «دانسى» فى طبقات الجحيم ليidle على أنواع العذاب ودرجات المعدبين .. فمن هؤلاء الجالسون القرفصاء ؟ ومن هؤلاء المكبون على أربع ؟ لهذا ضرب من العقاب فى مكان العقوبات ؟ وما بال أناس منهم يلبسون ثيابهم العادية على اختلافهم بين المعهم والمطريش ولا بس «الطاقية» .. ولا يلبسون كأهل السجون ؟

على أننى لم ألبث طويلاً حتى عثرت على الدليل الذى ينوب فى جحيمنا عن فرجينيل !

فقد كان على يسار الحجرة التى خصصت لى حجرة للصحفى الظريف على أفندي شاهين رحمه الله . وكان محبوساً رهن المحاكمة فى قضية مقالات ورسوم قذف بها بعض الوزراء وعلى رأسهم إسماعيل صدقى باشا كبير الوزراء فى تلك الأيام . وكان واقفاً عند باب حجرته ينتظرنى بعد أن سبقت البشائر بقدومى

فلقينى مرحبا . وعلى مقربة منه اثنان أو ثلاثة من أهل بولاق «دائرتى الانتخابية» كانوا فى مؤخرة صفوف الجالسين القرفصاء ، فنهضوا يحيوننى ويهمون بالصياح لولا أن شاهدوا الضابط والسجانين فعادوا جالسين .

وعلمت بعد ذلك بهنيهة أن هؤلاء الجالسين القرفصاء هم المحبوسون على ذمة التحقيق ممن آثروا البقاء بملابسهم العادية .

وأنهم جلسوا تلك الساعة فى انتظار الخروج «للطابور» الذى هو موعد الرياضة المصطلح عليه مساء كل يوم . وللمحبوبين شوق إلى موعده يفرحون به أشد من فرح الطلقاء بنزهة الأصيل على شاطئ النيل وطريق الأهرام !

* * *

أما المكبون على أربع فهم أصحاب التوبة المنوط بهم تنظيف بلاط العنبر وتلميعه . وهم يتغieren كل شهر مرة . ويقومون بهذا العمل طول النهار ، ويؤثرون على أعمال السجن الأخرى لأنهم ينطلقون فيه على مدى واسع بعض السعة ، ولا يحبسون في الحجرات .

قال دليلي أو «فرجيلى» بعد الشرح المتقدم : «إإن هؤلاء المساكين يعاونون هذا العناء من أثر دعوة النبي يوسف عليه السلام » .
قلت : «وماذا أفادك الله؟» .

قال : لقد دعا يوسف ربه في السجن أن يغزر ترابه ويحلى طعامه ويقصر أيامه .. فالتراب لا ينقطع لحظة عن أمثال هذا المكان » .

قلت : «يخيل إلى أن يوسف عليه السلام قال اللهم غزر رغامة ولم يقل غزر ترابه .. لأن السجدة تقضى بذلك» !

وما لبشت في السجن نصف ساعة حتى رأيت بعيني حرص الأقدار على إجابة ذلك الدعاء ، فما هو إلا أن يزحف الماسحون من طرف العنبر إلى طرفه حتى يكون التراب قد سفا على المكان الذي تركوه .

والي هنالك أكن قد تناولت طعام الغداء مع اهتمامى برعاية المواعيد فى تناول الوجبات .
فأين الطعام؟ هل أحضره الطاهى أو نسى إحضاره وفهم غير ما تعنت بالأمس فى إفهامه إيه؟ .

هنا ظهرت لي قيود السجن دفعة واحدة ، فليس من المستطاع أن أعرف هذا الخبر الصغير إلا بعد أن أسأل السجان ، وبعد أن يسأل السجان الضابط ، وبعد أن

يسأل الصابط البواب ، وبعد أن يحيل البواب الأمر إلى المأمور وأطباء المستشفى ، وبعد أن ينقضى فى ذلك كله وقت غير قصير ..

ولم يكن الذنب فى هذه المرة على ذكاء «الشيخ أحمد» كما توهمت لأول وهلة ، فإنه قد أحضر الطعام بعد اتصافى من دار النيابة ، ولكنهم حجزوه على الباب حتى يتلقوا أمراً بقبوله وانتظام حضوره وحتى يراه الطبيب ويرى الأدوية التى معه ، وحتى يتم الفحص عن حالته الصحية وما يصلح لى من الدواء ، ثم قبلوا الطعام والدواء وردوا الغطاء والفراش ، لأن السجن كما قالوا فيه الكفاية من غطاء وفراش !!

* * *

وفي هذه الأثناء بدأت أشعر بقشعريرة الرطوبة التى ينضح بها الأسفلت فى أرض العنبر وسقوفه ، ثم فرغ السجان وصاحب النوبة الموكل بحجرتى من إعداد سريرها وأدواتها ولوازمها ، فألقيت نظرة على الغطاء الذى سيغنىنى عن غطائى فلم أطمئن إليه كثيراً ، ولكنى قلت : لا بأس بالتجربة هذه الليلة . وبقى متوجساً من هذه النافذة المفتوحة على رأسى يندفع منها الهواء طول ليل الخريف .. فما العمل فيها ؟ قال دليلى أو «فرجيلى» على أفندي شاهين : «لا عليك من هذه النافذة ! فسترى كيف نعالج خطبها» وابتعدت إلى صاحب النوبة فأوصاه أن يسددها بالحصيرة المفروشة على أرض الحجرة كما يصنع فى حجرته هو ، ففعل صاحب النوبة توا ليزنى كيف يحكم هذه الصناعة ، وضحك شاهين أفندي ضحك العلم والمعرفة وهو يقول لى : «احمد الله على أنهم لم يختاروا لك سجن الاستئناف . فهناك النافذة أربعة أضعاف النافذة هنا ولا أمل فى سدها بحال من الأحوال ، فضلاً عن الظلام المطبق من الصباح إلى المساء» .
قلت : «الحمد لله !» .

* * *

وهو بط ظلام الليل شيئاً فشيئاً ، وعاد المسجونون قبل ذلك أفواجاً إلى الحجرات ، وتعالت بينهم ضجة السوق فى يوم زحام ، ثم توالي إغلاق الأبواب وإدارة المفاتيح فى الأقسام ، ثم بدأ «التميم» أو المراجعة حجرة حجرة :
كم يا ولد ! .. عشرة !

كم يا ولد ؟ .. أربعة .. وهكذا إلى نهاية الدور ، وفي كل عنبر أربعة أدوار ولن يبرح السجان دوره حتى يستوثق من مطابقة العدد الموجود للعدد المكتوب فى سجله المعلق عند الباب .

وازدادت الضجة بعد انتهاء المراجعة فلم يكن للسامع أن يسمع إلا أسماء تتقاذفها أفواه رجال ونساء ، وصرخات وأهازيج وشتائم هي عندهم في منزلة التحيات المباركات ! ثم سكنت الضجة بعض الشيء وتبين من هنا وهناك نداء مفهوم ، وشرع اثنان في قافية من القوافي المعروفة في محافل الأعراس والموالد المصرية . وكأنهما علما بمقدم الصحفي الطارئ على السجن في تلك الليلة فجعلاه للصحافة قسماً من هذه المساجلات المحفوظة ..

- الأولاد تنادي وراك وتقول :

- إيش معنى .

- المؤيد ! المؤيد .. وهو يعني «المقييد» .

- فوق رأسك يا معلم على .

- إيش معنى .

- المقطم .

وهذه حقيقة واقعة وليس بمجاز ! لأن بناء السجن واقع في حضن جبل المقطم .

- الرغيف في سقف بيتكم .

- إيش معنى .

- كوكب !

- تطلع من هنا تقابلتك في البيت

- إيش معنى .

- الحمارة !

وقس على ذلك ما يقال ، وما يسمع كرها ولا يقال .

* * *

وقد أظلمت الحجرة عنده - حينذاك - ظلامين ، لأن النافذة المغلقة حجبت كل ضياء يتسلل إلى الحجرة من فناء السجن المنار بنوره الضئيل ، فلم تستطع أن أعرف مكان الكوب ولا سلة الطعام في ذلك الظلام ، ولبست أسماع الأصوات تخفت وتنحفت حتى انقطعت أو كادت نحو الساعة التاسعة كما أنيابتني الساعة العربية التي تدق في مسجد القلعة ، ولم يبق من مسموع إلا وقع أقدام الحراس على البلاط ، وإلا صيحاتهم كل نصف ساعة يطيلونها ، ويتنافسون في إطالتها ، فذكرتني مبيت ليلة على حدود الصحراء ، أسمع فيها صياح الذئاب .

* * *

٠٠٠ خواطر في الصحة والمرض ٠٠٠

في ديواني الأول قصيدة بعنوان «الشاعر الأعمى» أقول في مطلعها :

شك الشاعر الباكى عمى قد أصابه وأظلم ما نال العمى جفون شاعر

ومنها أبيات يصرخ فيها الشاعر سائلاً :

لمن تتجمّل الأكون إن كان لا يرى
بدائعها عين ترى كُلَّ باهرٍ
فما كانت الدنيا سوى حُسْنَ مظاهرٍ
وما جاد فيها الحظ إلا لนาظرٍ
وهل كنت أخشى الموت إلا لأنَّه سيخجُب عنِي حُسْنَ تلك المناظرِ

* * *

ثم ينعى الشاعر قسمته في الحياة فيقول :

فيالي من ميت شقى الخواطر
جمعت شقاء العيش في ظلمة الردى
ويلحظه قلبى بحسنة ساهر
أرى الصبح وهاجًا بمقلة نائم
فمن لي إلى هذا الوجود بنظرة

* * *

إلى أن يقول متأسيا بنور بصيرته عن نور البصر :

فيما قلب اتفق من ضيائك واحتسب لدى الشمس لألاء الوجوه النواضر

حادثة عارضة

قصيدة لا شك كان لها باعثها كغيرها من القصائد التي ينظمها الشعراء وحي من خاطر نفسي أو حادثة عارضة . فما هو الخاطر النفسي هنا ؟ أو ما هي الحادثة العارضة ؟

هل كنت أحس في صباعي ضعفاً في النظر بعث في نفسي الإشراق من فقدانه والمصير إلى مثل ذلك الظلام الذي شكاه الشاعر المنكود في بلواه ؟

ذلك أقرب ما يرد على الخاطر في تفسير باعث القصيدة ، ولكنها على قربه بعيد من الواقع لأنني كنت أيام نظم الديوان الأول على أقوى ما يكون الإنسان بصرا في صباح ، وكنت - بالإيجاز - أستطيع أن أقرأ الصحيفة على نور القمر تحت قبة السماء .

* * *

ومن الجائز أنني كنت لا أعرف هذه القوة في بصرى ، وأنني كنت أكبر وأجاوز الشباب والكهولة ولا أدرى مبلغ بصرى من القوة ، كما يتافق كثيراً أن يجهل الإنسان ما يألفه من قوته ويحسبه من المألفات التي لا غرابة فيها ، ولم يكن هنالك ما يدعونى إلى القراءة على نور القمر لأن المصابيح أوفى من أن تفتقد في مدينة كبيرة أو صغيرة ، ولكنني أعلم الآن أنني استطعت أن أقرأ على نور القمر وأذكر ذلك جيداً لأنني حين اضطررت إلى هذه القراءة مرة واحدة كان ذلك مقروناً بمناسبات متشابكة جامدة بين الجد والفكاهة وبين ذكريات الأسرة والموطن وغرائب الروايات والتقاليد المتواترة في الريف . فليس في وسعى أن أنساها بعد حين ولا أزال أذكرها اليوم كأنها حدثت قبل يوم أو يومين ولم تمض عليها - كما مضى فعلاً - أربعون سنة أو تزيد .

وفي جوار أسوان - بلدتي - ضاحية صغيرة جميلة على مسافة قصيرة منها ، أهلها من أقدر خلق الله على التشبيه المحكم أو على الإصابة بالعين كما اشتهروا في الإقليم كله ، ويقال عنهم أن أحداً منهم لا يملأ عينيه من الشيء إلا قضى عليه وأصابه بما يعطيه أو يضره ل ساعته ، وأية امتلاء العين من الشيء المنظور عندهم أنها تستوعبه بالتشبيه المحكم فلا تعدو صفة من صفاته .. فالتشبيه المحكم والإصابة القاتلة في عرف القوم مترادفان ..

أمثلة من التشبيهات

قالوا إن أحدهم نظر إلى بستان من التين فصاح إعجاباً بثماراته المفتوحة : «ما هذا التين الذي يحكي خيالـ السمك!؟» .

وقالوا إن أحدهم رأى رهوانا محلى السرج واللجام بالألوان المختلفة فصاح قائلاً : «أتراء يحمل بيارق الأحمدية!؟» .. يعني طريقة من الطرق الصوفية تسمى بالطريقة الأحمدية ويحمل أتباعها الرأيات المتعددة بمختلف الألوان ..

وقالوا : إن أحدهم نظر إلى ساقية بخارية فقال : «إنها تبلغ البحر بحotope» ..

وقالوا غير ذلك كثيراً من أمثال هذه التشبيهات ولم ينسوا مرة من المرات أن يرددوا التشبيه بذكر العاقبة التي تلحق به على الأثر ، وهي التلف والبوار ..

وكان في هذه الفضاحية عرس نعرف أصحابه ، وذهبنا نشارك في إحياء العرس فمر القطار بالصحف قبل وصوله إلى أسوان ، وجاءتنا الصحيفة فطوبيناها حتى خرجنا من الدار نتنسم الهواء فوق كثيب من الرمال البيضاء ، وفتحت الصحيفة على غير التفات مني إلى الخطر المزعوم من وراء هذه المجازفة .. وإذا بزميلي يختطفها من يدي على عجل ويصبح بي : «ويحك! .. أتريد أن تعمى؟ ألا تعرف أين أنت؟ .. أهنا مكان تقرأ فيه الصحيفة على نور القمر وتسلم من العاقبة!!» .

حدث بطريقه ومناسباته لا ينسى ، فليس في وسعى إذن أن أجهل أنتى كنت على قوة مبصرة خارقة فيما بين الخامسة عشرة والثلاثين ، وليس الбаيث على نظم القصيدة - قصيدة الشاعر الأعمى - أنتى أشفقت من مصير كذلك المصير الذى وصفته بتلك الأبيات .

أما البايث فى الواقع فلا أعرفه على التحقيق ، ولكننى أظن ظنا أنه يرجع إلى مطالعاتى فى تلك الفترة ، وأكثر ما كنت أحفظ يومئذ شعر أبي العلاء ، وشعر ملتون فى قصيدة الفردوس المفقود ، ولعلى قرأت يومئذ لأول مرة قصيدة الشاعر المحدث الضرير فرنسيس فتح الله مراد الذى يقول فى مطلعها :

هل عَادَ عَنْدَكَ يَا زَمَانَ يَعَادِي خَطْبَ تُعَانِدُنِي بِهِ وَتُعَادِي؟
وَيَقُولُ مِنْهَا :
يَبْدُو النَّهَارُ لِكُلِّ عَيْنٍ أَبِيضاً وَلَا عَيْنٍ مُشَوَّحَةً بِسَوَادٍ
وليست هي على طائل من جودة الشعر ، ولكنها على ضعفها معبرة عن شعور صحيح .

أحكام سن الأربعين

ومضت الأيام والسنون ، وجاوزت الأربعين فسمعت عن تقاليدها المرعوبة بين أصحاب النظارات ، وعملت بتلك التقاليد على غير اضطرار فى مبدأ الأمر لأننى كنت أستطيع القراءة نهاراً وليلاً بعد الأربعين ، ولكننى أردت المزيد من الوقت فى مطالعاتى الليلية ، فصنعت النظارة بين الخامسة والأربعين والخمسين ، ولم أستخدمها إلا قليلاً جداً فى ذلك الحين ..

ثم شعرت في السنوات الأخيرة بالحاجة إليها تزداد على مر الأشهر ولا أقول على مر الأعوام ، وكدت أنسى قصيدة الشاعر الأعمى في الديوان الأول بعد ما نظمته من قصائد الدواوين المتواترة ، فإذا بهذه القصيدة أثبتت القصائد في ذاكرتي خلال السنطين الأخيرتين ..
«عملية جراحية» وإلا فلا نظر ! ..

وهانت العملية والعمليات مع هذه العاقبة المحذورة التي يهون معها فقد الحياة ..

وتمنت العملية سلام ، ودخلت في ظلام الغماء راضياً به مغتبطاً بسواده المحتوم ، لأن الليل الذي يطلع على فجر الضياء ..

وتشاء المقادير أنتي أضع الغشاء على عيني في صبيحة اليوم الذي أظلمت بعده سماء مصر الجديدة حيث أقيم ، لأنني أجريت العملية في أواخر أكتوبر ، وفي تلك الأيام منيت مصر الجديدة بغارات الخريف المشئوم ..

إن كان في تلك البلاية رحمة من رحمات الغيب فرحمتها أنها لم تقدم يوماً واحداً ولم تفاجئنا والمشرط بين العين ويد الطبيب القدير ، ثم أطبقت البلاية ساعات من أحلك ساعات الليل والنهار على السواء ، فحمدت الله الذي لا يحمد على المكره سواه .. حمدته لأنني ألازم موضعى بحكمة وشجاعة أو بغير حكمة ولا شجاعة ! .. ولأنني أطفأت النور قبل أن تتضاح الأصوات حول الدار :
- أطفئوا الأنوار .. أطفئوا الأنوار ..

ظلمات فوق ظلمات

ولعلك تسألني عن تلك الساعات الطوال كيف كنت أقضيها وبأى الأطيف والأشباح كنت أعمم ظلماتها وأملاً فراغها ! ..

والحق أنها كانت ظلمات من أحلك الظلمات ، وأنها كانت فراغاً من أثقل الفراغ . ولكنني لم أسعد فيها - أو لم أشق - بطيف من أطيف الظلام ولا بهاجس من هواجس الفراغ ، ولست أعجب لذلك لأنني تعلمت من تجارب الليالي والأيام أن الشواغل إنما تكون على قدر الحيرة والقلق ، وأنه حيث يكون في الأمر قولان أو عدة أقوال فهناك التردد والاضطراب ، وهناك الهواجس والأحلام والأوهام والأشباح . وأما مسألة البصر فأى اختلاف فيها ؟ .. وأى حيرة وأى

موازنة وأى ترجيح ؟ .. إنما هو القبول والاستسلام أو الرفض والخلاص من
الظلم إلى الظلم !

وقد كنت أنتظر إحدى النتيجتين ولا أزيد ، وكان جانب الرجاء بحمد الله أقوى
في النفس من جانب الخوف والقنوط ، فتراجعت الأشباح والأطياف إلى
ظلماتها . وقضينا الساعات الطوال بالشواغل التي تصحلك ولا تبكي وتسلى ولا
تشجع ، ومنها ما يصحلك السامع ضحكتين لا ضحكة واحدة ! .. لأنه يضيف
إلى ضحكة العبث ضحكة المثل القائل : «أن الزمار يموت ويداه تلعن !» .

ومن أمثلتها الكثيرة مثل «البحث اللغوي» في إطفاء الأنوار ..
إنهم يسمونه في سوريا ولبنان «بالتعتيم» ونسميه في مصر بالإظلم أو إطفاء
الأنوار .

ونحن في جوار الغارات الجهنمية نستمع إلى زلازلها وضوضائها ونتساءل :
أيهما الصحيح ؟ ..

ونمضي في التعليق بين قائل إن التعتيم خطأ لأن العتمة ظلام خاص بأول
الليل ، وسائل إنها ظلام الليل على إطلاقه ، وتناول برهة في الموازنة بين التغمية
والتجفيف والتخفيف وغيرها بديلاً من التعتيم ومن الإظلم .. وكلها كالشر
الذى تخفيفه بلاء ولا خيار فيه !

وانجابت الغمة

وانجابت الغمة بحمد الله ، وأسفر الصباح بعد ليل مطبات ، وإننى لأصدق
النور حقه فأقول : بل أسفرت الغمة عن فجر أو شفق ولم تسفر عن صباح أو نهار .
ولا بأس بالفجر والشفق في عالم الشعر والشعراء ، فربما طاب لنا الفجر كما
يطيب الشفق بوحى من ذوق الجمال وغبطة السكينة والسلام ، وإن لم يكن في
سطوعه ولمعانيه ندا للصباح أو قريناً للنهار .

الفصل السادس

٠٠٠ إيمان٠٠٠

أؤمن بالله .. أؤمن بالله وراثة وشعوراً وبعد تفكير طويل .

فأما الوراثة فإنى قد نشأت بين أبوين شديدين فى الدين لا يتركان فريضة من الفرائض اليومية ، وفتحت عينى على الدنيا وأنا أرى أبي يستيقظ قبل الفجر ليؤدى الصلاة ويبتهل إلى الله بالدعاء ولا يزال على مصلحة إلى ما بعد طلوع الشمس فلا يتناول طعام الإفطار حتى يفرغ من أداء الفرض والنافلة وتلاوة «الأوراد» ..

* * *

ورأيت والدتي فى عنفوان شبابها تؤدى الصلوات الخمس وتصوم وتطعم المساكين وقلما ترى النساء مصليات أو صائمات قبل الأربعين . وندر بين أقاربى من لا يسمى باسم من أسماء النبي والله سواه منهم الرجال والنساء أو من أسماء الأنبياء على العموم ، وكان فى بيت أخوالى درس لقراءة الكتب الدينية وأذكر منها مختارات الأحاديث النبوية وأحياء علوم الدين ؛ فللوراثة شأن فيما عندي من سليقة الاعتقاد .

أما الإيمان بالشعور فذاك أن مزاج التدين ومزاج الأدب والفن يتلقيان فى الحس والتصور والشعور بالغيب وربما كان «وعى الحياة» شعبة من «وعى الكون» أو من «وعى الكوني» الذى يتعلق به كل شعور بعظمة العالم وعظمة خالق العالم .. «وعى الحيوى مصدر النفس و«وعى الكوني» مصدر الدين .

أما الإيمان بالله بعد تفكير طويل فخلاصته أن تفسير الخلقة بمشيئة الخالق العالم المريد أو يوضح من كل تفسير يقول به الماديون . وما من مذهب اطلعت عليه من مذاهب الماديين إلا وهو يوقع العقل فى تناقض لا ينتهى إلى توفيق ، أو يلجه إلى زعم لا يقوم عليه دليل ، وقد يهون معه تصديق أسفخ الخرافات والأساطير فضلاً عن تصديق العقائد الدينية وتصديق الرسل والدعاة . فالقول بالتطور فى عالم لا أول له خرافية تعرض عنها العقول لأن ابتداء التطور يحتاج إلى شيء جديد فى العالم وحدوث التطور بغير ابتداء تناقض لا يسوغ فى اللسان

فضلاً عن الفكر أو الخيال . والقول بالارتفاع الدائم من طريق المصادفة زعم يهون معه التصديق بالخرافات وخرارق العادات في تركيب الأجسام أو الأحياء .

والقول بأن المادة تخلق العقل كالقول بأن الحجر يخلق البيت وأن البيت يخلق الساكن فيه ، وأيسر من ذلك عقلاً بل ألم من ذلك عقلاً أن يقال إن العقل والمادة موجودان وأن أحراهما بأن يسبق الآخر ويخلقها هو العقل لأن المادة لا توجد ما هو أفضل منها وفقد الشيء لا يعطيه .. فأنا أؤمن بالله وراثة وأؤمن بالله شعوراً وأؤمن بالله بعد تفكير طويل .

هذا في مجال العقيدة ..

* * *

أما في مجال الأخلاق فلا موجب عندى لعمل الخير غير طلب الكمال وفهم الكمال ..

ومن الخير ما هو عسير على النفس محفوف بالخطر مكره العواقب مستهدف للنقد والمذمة بين من يجهلونه أو يصابون في منافعهم من جرائه ، فلا باعث لعمل هذا الخير أقوى من باعث الشوق إلى الكمال والارتفاع بالنفس إلى ما ترضاه ..

إن الإنسان لا يرائي بحب الطعام الجيد أو الطعام المفید ، إنه يحبه في السر كما يحبه في العلانية ، وإنه ليبدل فيه ثمنه وإن غلاً ويجعله من مكانه وإن بعد وإنه ليكتفى به ويحسبه جزاء حسناً ولا ينتظر عليه المثوبة أو الشكران من أحد لأنه يتناول لنفسه ولا يتناوله مرضاه لغيره .

وهكذا طعام العقل أو طعام الروح حينما عرفت الروح ما يصلح لها وما يليق بها من طعام ، إنها لا تستريح بغيره ولا تتوانى عن طلبه ولا تنتظر المثوبة أو الشكر لأنها تختار غذاءها فتحسن اختياره ولا ترضى بما دونه . وإنما المهم أن تعرف هذا الغذاء فإذا هي عرفته فلا باعث لها إلى الخير أقوى من الشوق إليه ولا وازع لها ولا عقوبة تخشاها في سبيل أوجع من فواته والحرمان منه ..

وقد ترى لطفل يؤجر على تجربة الدواء ويساق إليه بالحيلة والإغراء لأنه لا يعرف ما هو الداء ، ولا ما هو الدواء ..

ولتكن تنتظره سنوات حتى يعرف هذا وذاك فإذا هو يبذل الأجر لمن يعطيه الدواء ، ويسعى إليه عند الأطباء في أبعد الأرجاء ، وما تغير طعم الدواء ولا تغير

عمله ولا تغيرت الحاجة إليه ولكن تغير شعور الطفل بالصحة الجسدية وتغير شعوره بالواجب عليه لتصحيح جسله وتغير فهمه «للكمال» في عالم الأجساد .

* * *

وهناك عالم للضمائر ، وعالم للأفكار ، وعالم للأذواق والأخلاق ، كما هناك عالم للأجساد ، وهناك أطفال في هذه العوالم كما هناك أطفال في ذاك .

وهؤلاء الأطفال هم الذين يقبلون الصحة لأنهم يثابون عليها ويتجرون الدواء لأنهم يساقون إليه ، فدعهم حتى يكبروا في أعمار العقل ، أو في أعمار الضمير ولا تتكلف أن تعرض عليهم الدواء أو تلحف عليهم في تعاطيه لأنهم ينشدون حيث كان ويبذلون فيه أعلى الأثمان ..

في عالم الأخلاق لا باعث إلى الخير أقوى من شعور الإنسان بكماله ولا وازع عن الشر أقوى من شعور الإنسان بنقصه ولا أخلاق لمن يحسن لأنه يؤجر على الإحسان أو يسى لأنه في أمان .

فمسافة من الغبطة ببلوغ الكمال هي غاية ما تصبو إليه النفس من مراتب السعادة ومسافة من تبكيت الضمير على النقص هي غاية ما تنحدر إليه النفس من الشقاء .

وإيماني في المعاملات أن الطيبة موجودة في الطبيعة الإنسانية ولكنك لا تجدها في كل إنسان ولا تجدها في جميع الأوقات ..

ولكنك إذا بحثت عن المعين لم تضمن وجوده حين تريده وإذا وجدته حين أردته لم تضمن أن يوافقك على رأيك ويساعدك على قصتك ، فلعله يعيين إذا اعتقد وجه الصلاح في العمل الذي يدعى إليه ولعله لا يعتقد اعتقادك فيما ترى من الصلاح .

* * *

فلا تقنط من طيبة الناس كل القنوط .. ولا تعول عليها كل التعويل بل أحسن الظن بالناس كأنهم كلهم خير واعتمد على نفسك كأنه لا غير في الناس .

وقد يملي قلت :

أَنَا لَا أَلَّوْمُ وَلَا أَلَمْ
حَسْنِي مِنَ النَّاسِ السَّلَامَ
أَنَا إِنْ غَنِيَتُ عَنِ الْأَنَامِ
فَقَدْ غَنِيَتُ عَنِ الْمَلَامَ
إِذَا أَفْتَأَقَرْتُ إِلَيْهِمْ
فَاللَّوْمُ مِنْ لَفْوِ الْكَلَامِ

ولا أزال كلما نسيت هذه الخطة في سهوة من السهوات ردتني الحوادث إليها
وزادتني إيماناً بصوابها .

* * *

وإيماني بالأدب أنه رسالة عقل إلى عقول ووحى خاطر إلى خواطر ونداء قلب
إلى قلوب .

وأن الأدب في لبابه قيمة إنسانية وليس بقيمة لفظية .

فالأديب الذي يقرأ القارئ فلا يعرف شيئاً جديداً ولا يحس بشيء جديد
فسكوته خير من كلامه .

والأديب الذي يقصر جهده على التسلية وإزجاء الفراغ خادم جسد وليس
بصاحب رسالة في عالم العقل والروح ، والعلاقة بين الكاتب وقارئه علاقة تعاون
واشتراك لا يعني فيها الجهد المفرد على الجهددين المتساندين .

فالقارئ الذي يفرد الكاتب بواجب التفهم لا يستحق من الكاتب أن يلتفت
إليه ، ،

لأنه واحد من ثلاثة : فإذا رجل يظن أن القراءة لا تستحق التعب وهو يتعب في
طلب اللهو والتسلية فلا نفع فيه .

وإذا رجل يتعب فكره ولا يصل بالتعب إلى نتيجة فذلك أيضاً لا نفع فيه ، وإذا
رجل لا تهمه نتيجة القراءة التي يتسلى بها أو يتعب فيها فهو كصاحبه لا نفع
فيه .

* * *

وإيماني بالشهرة والثناء كإيماني بالثواب والجزاء فما أفلت قط من نقد ، ولا
توسلت قط إلى ثناء ، ويعزى عن كثير من الثناء أن الناس لا يبتلونه لمن
يكررونـه بل يبتلونـه لمن لا يملأ قلوبـهم بالإكبار ولا يبلغـونـ من إعظامـه مبلغـاً
يحسـدونـه وينفسـونـه عليه ، وأن الأدب شيء هين كلـ الـ هـ وـ اـ نـ ضـ اـ عـ اـ صـ اـ عـ اـ قـ اـ مـ اـ تـ هـ بـ كـ لـ مـ حـ اـ سـ دـ اوـ جـ اـ عـ اـ تـ هـ بـ كـ لـ مـ حـ اـ سـ دـ ، فإذا كانت له قيمة فلا
خوفـ عليها وإن لم تكن له قيمة فلا حرصـ عليه .

* * *

وبعد فإيماني كله في العقيدة والأخلاق والمعاملة والأدب يوزن بميزان واحد
وهو ميزان المثل الأعلى أو طلب الكمال لأن إيمان يغنينـا عن طلبـ الـ جـ زـاءـ ..
ويعزـينا عن فقدـانـ الحـمدـ والـ ثـنـاءـ ..

* * *

—٠٠٠ طالبٌ لوعاتٌ —

من قديم الزمن يشعر كل طالب في حياته المدرسية بالتنازع بين قطبين متقابلين ، أحدهما ما نسميه «بالنظام» والأخر ما اشتهرت به الطفولة والشباب من حب التمرد والهرب ومخالفة النظام .

فالتلمندة بغير نظام مستحيلة ، ولا بد لكل مدرسة من مواعيد وفصول وواجبات في المدرسة وواجبات في خارجها ، ولا بد للتلميذ من القيام بهذه الواجبات إذا أراد أن يضمن النجاح . ومن لم يأخذ نفسه برعايتها حقا فهو على الأقل مضطر إلى رعايتها غشا وتزييفا ، لأنها لا يمكن أن تخرج كل الخروج من الحساب ..
ولا بد للتلميذ من نظام ..

ولكن ما القول في الطفولة أو في الصبا الباكرا على العموم وكلاهما ملازم للتلمندة في أدوارها الأولى ؟ ..

هل يمكن أن تخلو الطفولة من قلق وعريدة و «شقاوة» وولع بالشيطنة والمخالفات؟ ..

لا يمكن .. فلابد من فلتة ، إن لم تكن الطفولة كلها فلتة في نفوس الشذاذ الميؤوس من فلاحهم ، وهم غير قليلين ..

نظام وشيطنة ، أو نظام ومخالفة ، وهذان هما القطبان اللذان يتنازعان كل تلميذ في دارستة الباكرة ، إن لم يتنازعاه في جميع أدوار الدراسة بعد سن الطفولة والصبا ، فقد قرأت للقس الإنجليزي الفيلسوف المطران «انج» أنه هو وزملاءه في كلية اللاهوت كانوا «يعاكسون» أستاذهم الكبير «فارار» على توقيرهم لعلمه وحبهم لشخصه ، وكانوا يتعتمدون أن يسوقوه إلى تكرير لوازمه ليضحكوا منها في «أكمامهم» كما يقول الإنجليز ..

وهؤلاء رجال لاهوتيون من أهل الورع والوقار ، فما بالك بالتلاميذ الطلقاء من رهبة الدين وسمت الهيبة والسكينة ! ..

فإذا عدت طالبًا ، فماذا أصنع بين هذين المتنازعين ؟ .. هل أندم على قلة النظام أو على قلة التمرد فيما سلف من تلك الأيام ؟ ..

أحسب أني أخذت من كليهما الكفاية ، وأنى لا أبالى أن أعود كما كنت بغير تبديل كثير ..

كنت «نظاميا» في مواعيده فلا أذكر أنى تخلفت عن موعد حضور أو موسم امتحان أو حصة مذاكرة حين تفرض للمذاكرة حصص في ختام السنة الدراسية ..

و كنت إذا خالفت النظام فإنما أخالفه في شيء يعني ولا يعني المهتمين بدورى وواجباتى .

إنما أخالفه في قليل من «البهلة» التي تظهر في إهمال الملابس وإهمال العلاقة ، وربما خالفته حباً للسرعة ولا حباً للبهلة والإهمال ، فإنني لم أكن أطيق أنتظار «البذلة» عند الكواه ولم أكن أعطى اللبس - ولا أنا أعطيه الآن - أكثر من بعض دقائق في عجلة وهرولة ، وقد أترك للفراش تغيير «البذلة» دون أن أختار له «بذلة» أخرى ، وقد يغيرها وأنا لا أعلم بالتغيير ..

* * *

لهذا كنت في مقدمة التلاميذ المرضى عنهم من وجهة النظام ، وكان بعض الأساتذة وبعض الزملاء يتناولونني أحياناً بنكتة هنا وتشنيعة هناك من أجل البهلة الكسائية ، ولكنهم كانوا مع ذلك يتجاوزون عن هذه البهلة اضطراراً إذا وجب استقبال زائر كبير بخطبة أو تحية شعرية ، أو وجب حل مسألة حسابية أو مشكلة من مشكلات الأجرافية الإنجليزية يعني بعلاجها زملائي المتختلفون في الحساب واللغة ..

وكنت - لحسن الحظ - محسوباً من المفرطين في رعاية النظام وأداء الواجبات حين كنت في الحقيقة مفرطاً في الخروج على النظام وإهمال الواجبات ..

* * *

كنت أجلس إلى المصباح في حجرتى حتى منتصف الليل أطالع وأذاكر .
فيماذا ! ..

كلهم في المنزل يحسبون أذاكر دروسى وأطالع كتب المدرسة ، ويصفونى من أجل ذلك بالغيرة على الواجب والأنفة من التأخر في الترتيب ، وكلهم فى الواقع لا يعلمون الحقيقة لأنهم لا ينظرون في الكتب والدراسات التى أدمى مطالعتها ..

إنها تارة ديوان شعر ، وتارة أخرى قصة من قصص ألف ليلة ونحوها ، وتارة غير هذه وتلك مجلة شهرية «المقتطف» و«الهلال» و«المحيط» و«المفتاح» وغيرها من مجلات تلك الأيام ! ..

ولهذا لا يسوئني أن أعود طالباً فأعود نظامياً على هذه الوتيرة .. إذا هي نظامية تجمع بين قضاء حق الواجب وقضاء حق التمرد في رأي الذين يطالبونني بالنظام ..

* * *

كدت أنسى أن أقول للقارئ أن هذه المغالطة لم تكن غاية شوطى من التمرد على النظام أيام التلميذة ..

فقد ذهبت في التمرد إلى النقيضين ، وكان بعض هذا التمرد خطراً على الحياة ، لأنه كان يغرينى بالسباحة في النيل ، وما أدرك ما النيل عند أسوان؟ ..

إنه يبلغ من العرض قرابة ميل ، ويندفع فيه التيار من شلال وراء شلال ، وتلتف الدوامات بصخوره فلا يقدر على عبورها غير السابع الخبير ، وتكمم التماسيح في مائة متربصة بالسباحين ، ولا سيما قبل تمام أعمال البناء على عيون الخزان ..

وكنا نخرج من المنازل وعلى سيقاننا خواتم سليمان مرسومة بالمداد الخفيف الذي لا يتحمل الماء ، ولكننا مع هذا كنا نستجيب لغواية النيل ونعمون بين جزائره المتراحمية في أخطر أيام الفيضان ، ونعتمد على فن الرسم لإخفاء معالم العصيان . فلا يخذلنا هذا الفن إلا حين ننسى ونتعجل فترسم خاتم سليمان على اليمنى بدلاً من اليسرى أو على اليسرى بدلاً من اليمنى ، فيأخذ منا النظام حقه عصيًّا أو سياطًا معدودات .. ثم نعود إلى العصيان وتزييف خاتم سليمان .

* * *

هذه مجازفة في سبيل الرياضة البدنية ..

مجازفة بالخروج على النظام ، ومجازفة بالتعرض للغرق ، ومجازفة بالتعرض للعقاب ..

فهل كنت مع هذا من محبي الرياضة البدنية؟ ..
كلا .. بل كنت أغيب عن حصتها عمداً ، وأعلم أن جراء الغياب حبس ساعات ..

وهذا هو الذي عنسته حين قلت فيما تقدم : إنني ذهبت في التمرد إلى النقيضين ، وأعود فأسأل نفسي وأسأل القارئ أيضا : هل هما نقىضان حقا ؟ وهل السباحة التي نهواها «الجمباز» الذي نساق إليه على الرغم منا ونهدد بالعقاب لنقبل عليه مكرهين ؟ ..

من جهة ، هما نقىضان ..

ومن غير هذه الجهة لا تناقض بين هوى السباحة وكراهة الجمباز المفروض بالإكراه ، فقد يكون الذنب على الطريقة لا على الجمباز ..

ولكننى بعد هذه السنين الطوال أقول : إننى أود لو عدت طالباً لأمسح «تمردى» فى صفحة واحدة هى صفحة الألعاب الرياضية ، فقد تعبت كثيراً من جراء كراحتها وإهمالها ، ولو أننى أعطيتها جانبًا من الوقت إلى جانب الأوقات التى أخذها المعلى وشركاؤه لاسترحت فى بدنى من بعض تلك المتاعب ولعلى أكفر - من حيث لاأشعر - عن خطئى فى حقها بما كتبته وكررته عن فضائلها وحقوق أبطالها ، فهى فى رأى أحد الترباقين الموصوفين لكل أمة تشكو الخمول وتطلب السلامة والقوة ، والترباق الآخر هو الفن الجميل ..

ولو عدت طالباً ..

ولماذا أعود طالباً ؟ .. إن كانت العودة للتکفير عن خطئه الألعاب الرياضية فالصلح معها على طريقتنا المختارة يغنينا عن مشوار الرجوع كل تلك السنين ..

* * *

كلا .. لا أحب أن أعود ، لأن الحاضر خير من الماضي فيما أرى وبخاصة حين نعود إليه . وإنما يحلو الماضي حين ننظر إليه بأعيننا الحاضرة ..
فلننظر بها قانعين إلى ما بين أيدينا من السنين ..

* * *

٠٠٠ فلسفي في الحب ٠٠٠

ما ليس بالحب أسهل في التعريف مما هو الحب ، وهكذا الشأن في كل تعريف لمعنى من المعانى أو كائن من الكائنات . فنحن نستطيع في لمحات عين أن نعرف أن زيداً ليس بعمرو ، ولكننا لا نستطيع في هذه الصورة أن نذكر تعريف عمرو وزيد ونحيط بأوصاف هذا أو ذاك ، ولو كنا من أعرف العارفين بالاثنين .. وعلى هذا القياس نعرف الحب من طريق النفي قبل تعريفه من طريق الإيجاب ..

فليس الحب بالغريرة الجنسية ، لأن الغريرة الجنسية تعم الذكور والإثناين ، ولا يكون الحب بغير تخصيص وتمييز .

وليس الحب بالشهوة ، لأن الإنسان قد يشتته ولا يحب ، وقد يحب وتقضى الشهوة على حبه .

وليس الحب بالصداقه ، لأن الصداقه أقوى ما تكون بين اثنين من جنس واحد ، والحب أقوى ما يكون بين اثنين من جنسين مختلفين .

وليس بالانتقاء بالرحمة ، وليس بالانتقاء والاختيار ، لأن الإنسان قد يحب قبل أن يشعر بأنه أحب ، وقبل أن يلتفت إلى الانتقاء والاختيار .

وليس الحب بالرحمة ، لأن المحب قد يعذب حبيبه عمدأً أو غير عمدأً ، وقد يقبل منه العذاب مع الاقتراب ولا يقبل منه الرحمة مع الفراق .. والحب كذلك يعرف جزءاً جزءاً قبل أن يعرف كاملاً شاملًا مستجعماً لكل ما ينطوي عليه .

ففي الحب شيء من العادة ، لأن المحب يهون عليه ترك حبيبه إذا كان تركه لا يغير عاداته ومؤلفاته ، وأقوى ما يكون الحب إذا طال امتناعه بالعادات والمؤلفات ..

وفي الحب شيء من الخداع ، لأن المرأة الواحدة قد تكون أفضل المخلوقات في عين هذا الرجل ، وتكون شيئاً مهماً لا يستحق الالتفات في عين ذاك ، ثم يعود كالشيء المهملاً في عين الرجل الذي فضلها من قبل على جميع المخلوقات ..

وفي الحب شيء من العداوة ، لأن المحب مكره على البقاء في أسر الحب ، عاجز عن الإفلات من قيوده ، ويقترن الشعور بالإكراه والعجز دائمًا بشعور النقاوة والعداء ..

وفي الحب شيء من الأنانية ولو أقدم صاحبه على التضحية ، لأنه لا يترك محبوبه لغيره ولو كان في ذلك إسعاده ورضاه ، ولكنه قد يضحي بنفسه إذا اعتقد أن محبوبه لا يصير إلى سواه ..

وفي الحب شيء من الغرور ، ولو لا ذلك لما اعتقد الإنسان أن إنسانًا آخر يهمل الآلوف من أمثاله ليخصه وحده بفضيلته وإيثاره ..

وقد يخلو الحب من كل شيء إلا من شيء واحد ، وهو الاهتمام . فصدق إن قيل لك أن حبيباً يبغض حبيبه ويؤذيه ، وصدق إن قيل لك أن حبيباً يتقبل من حبيبه البغض والإيذاء ، وصدق إن قيل لك أن الحب والازدراة يجتمعان ، وصدق إن قيل لك أن الحب يخون أو يقبل الخيانة من المحبوب ، فأما إن قيل لك أن حباً يبقى في النفس بغير اهتمام ، فذلك هو المحال الذي لا يقبل التصديق .

وفي الحب شيء من القضاء والقدر ، كما يعبرون عنه في لغة الحواديت والتحقيقات ..

لماذا ولد فلان؟ .. لماذا مات علان؟ .. لماذا أحب فلان؟ .. إن «التأشير» على المحضر بكلمتي «القضاء والقدر» هو أصدق ما يقال في تعليل هذه الأحداث المتشابهات ، لأنها كلها من أطوار الحياة التي لا يملكها الإنسان ، ولا يحسب أنه سيطر عليها حتى يرى أنها هي مسيطرة عليه ..

وإلا فماذا تقول إذا سألك سائل : لماذا أحب فلان فلانة؟ .. لأنها أجمل من يرى من النساء؟ .. لأنها أقرب النساء إليه؟ .. لأنها تجزيه الحب بمثله؟ .. لأنها تروعه بالفطنة النافذة والخلق الحميد؟ .. لأنها تنفرد بمزية من المزايا لا توجد في العشرات والمئات؟ ..

ماذا تقول غير «القضاء والقدر» إذا كانت «لا» هي جوابك على كل سؤال من هذه الأسئلة؟ .. ولعلها هي كذلك جواب المحب المفتون!

فقد تعمى الأ بصار عن الحب كما تعمى عن الأقدار ، أو يسير الحب إلى فريسته كما قال ابن الرومي في مسیر القضاء :

أو مسيرة القضاء في ظلم الغير بـ إلى قاصد له بالتواء
وربما خطر للفريسة المخدوعة أنها تهرب وتمعن في الهرب وهي تقترب في كل خطوة من الشرك المنصوب في الخفاء ، وربما أنكر المحب أنه محب كما ينكر السكران أنه سكران ، بل لعله يشتد في الإنكار كلما اشتد به الدوار ولا يدرى أنه قد سكر حقا إلا حين يأخذ في الإلقاء ويقوى بعض القوة على فتح عينيه وتحريك قدميه .

وأوجز ما يقال أن الحب قضاء يملك الإنسان ولا يملكه الإنسان ، ولو دخل في مشيئته لما استولى عليه ولا غلبه على أمره ..
قال بعض الحكماء : أن الحجر الذي تقدّفه بيديك يحسب أنه يطير في الجو باختياره ، لو كان له شعور ..

وهكذا يحسب العاشق وهو يتھالك على معشوقته .. يحسب أنه هو الذي يريد ما يصيبه ولا يزال على حسبانه حتى يحاول ألا يريد ، فلا يستطيع ..
وخلاصة القول أن الحب عواطف كثيرة وليس بعاطفة واحدة ، ومن هنا كان أقوى وأعنف من العواطف التي تواجه النفس على انفراد ..

ففيه من حنان الأبوة ، ومن مودة الصديق ، ومن يقظة الساهر ، ومن ضلال الحال ، ومن الصدق والوهم ، ومن الآثرة والإيثار ، ومن المشيئه والاضطرار ، ومن الغرور والهوان ، ومن الرجاء والقنوط ، ومن اللذة والعذاب ، ومن البراءة والإثم ، ومن الفرد الواحد ، والزوجين المتقابلين ، والمجتمع المتعدد ، والنوع الإنساني الخالد على مدى الأجيال ..

والذى يعجب لذلك يعجب فى الحقيقة من أقرب الأشياء إلى المأثور وأبعدها من العجب والغرابة .

فكيف يكون الحب شعورا يستولى على نفسين كاملتين ثم يخلو من كل ما يخامر النفوس في مختلف الأوقات والأحوال ! ..

وكيف يكون الحب مشتملا على جسدتين ثم لا يضطرب فيه النزاع بين الجسدتين والنفسين كما يضطرب الجسد الواحد في منازعة النفس الواحدة ، ثم يزيد على هذا الاضطراب ! ..

وكيف يكون الحب ترجمانا لإرادة النوع ثم لا ينطق بكل عاطفة يتسع لها كيان الإنسان ! ..

* * *

يسألونك عن الحب قل هو اندفاع جسد إلى جسد ، واندفاع روح إلى روح ..
ويسألونك عن الروح فماذا تقول ؟ ..

قل هي من أمر ربى .. خالق الأرواح ! ..

لهذه الكثرة الظاهرة في عناصر الحب ، تكثر العجائب في العلاقات بين المحبين فيجمع الحب بين اثنين لا يخطر على البال أنهما يجتمعان ..

ويتكرر الحب في حياة الإنسان الواحد حتى ليكون المحبوب اليوم على نقىض المحبوب بالأمس في معظم المزايا ومعظم الصفات ..

ويتقارب البعيدان ، ويتباعد القريبان ، ويتجدد القلبان بين أونة وأخرى كأنها من طبيعة الجنان ، الواقع أن العاطفة حرارة ونار ، ولا فرق بين طبيعة الجنان وطبيعة النيران ..

إلا أن القلوب أقرب إلى التنساب والتجاوب إذا هي تنسبت في العمر وتجاوزت في المزاج ، وحب الفتاة كحب الفتاة لا يدوران على الجسد وحده كما قد يخطر على البال ، ولكنهما يتناسبان ويتجاوبان لأنهما ينظران إلى الدنيا بعين واحدة ويستقبلان الحياة بشوق واحد ، ويطريان ويغضبان على نحو واحد ، ويعطياهما الجسدان المتشابهان فرصة واحدة للتفاهم على الآراء وتبادل الخواطر والأهواء .

فلا تجاوب بين المحبين أقرب ولا أعم ولا أقوى من تجاوب العمر والمزاج ..

* * *

ولكن اختلاف السن قد يفتح الأبواب لداعية من دواعي التجاوب بين الانفسين لا تتوافر في السن الواحدة على الدوام . وحاجة نفس إلى عطف الأبوة وطمأنينة التجربة وسكينة الرضى قد تقابلها حاجة نفس إلى دفء العاطفة وحماسة الرغبة وإسداء العطف والرعاية ، فتقبل النفس على النفس ، ويعتصم الضمير بالضمير ، وقع التبادل بين بضاعتين مختلفتين لا بين بضاعة واحدة من كلا الطرفين . ولكنها الندرة التي لا يقاس عليها والمصادفة التي لا تتنظم في حساب ، وكأنما يختلقها الحب اختلاقاً ليفتح باب الشك فيه ويبطل اليقين في أمره ، وهو لا يتقوى خطراً من الأخطار كما يتقوى خطر اليقين الجازم والضياء الحاسم . فالحب بخير ما دام في القلب بباب للشك مفتوح .. فإذا أوصى بباب مصراعيه على يقين لا شك فيه ، فالحب مارد في قمم مأمون ، أو رفات في قبر مدفون ..

وخلالصة التجارب كلها فى الحب إنك لا تحب حين تختار ولا تختر حين تحب ، وأنتا مع القضاء والقدر حين نولد وحين نحب وحين نموت ؛ لأن الحياة وتتجدد الحياة وفقد الحياة هى أطوار العمر التى تملك الإنسان ولا يملكتها الإنسان ...

وقد تسألنى فى خاتمة المطاف : هل الحب إذن أمنية نشهيها ؟ .. أوهى مصيبة نتقيقها ! ..

ولى أن أقول : إنه مصيبة حين تحمل به نفسا ثانية مع نفسك وأنت تريدها ولا تريدهك ، وأنه أمنية حين تتعاون النفسان ولا تخاذلان ..

وليس بالمصيبة ، ولا يكفى فيه أن يوصف بالأمنية ، حين لا عبء ولا تخفيف ، بل تنطلق النفسان محمولتين معا على كاهل «النوع» كله أو على أجنه الخلود التى تسبح فى أنوار عليين .. وما من محبين إلا اتفقت لهما هذه الرحلة السماوية فى سهوة من سهوات الأيام ..

* * *

• فلسفة في الحياة •

من فلسفه الحياة ما نستمد من الطبع الموروث ..
ومنها ما نستمد من تجربة الحوادث والناس ..
ومنها ما نستمد من الدرس والاطلاع ..

وهي في اعتقادى على هذا الترتيب في القوة والأصالة . فلا يتفق الناس في
فلسفه الحياة إذا كان بينهم اختلاف في الطبع الموروث ، وإن اتفقوا في الدرس
والاطلاع ، أو اتفقا في تجارب الحياة ..

وأهم جانب من جوانب فلسفتي في الحياة هو ما استفادته من الطبع الموروث ،
وجاءته بعض الزيادة من التجربة أو القراءة ..
وأعني به قلة الاكتثار للمقتنيات المادية ..

فأعجب شيء عندي هو تهالك الناس على اقتناء الضياع والقصور وجمع الذخائر
والأموال ...

* * *

وريما امتد العجب من هذا إلى ما هو أكبر وأعظم إلى رجالات التاريخ وأبطال
الفتوح والغزوات ..

فالمتوسعون في الفتح أعجب عندي من المتوسعين في الشراء ، وكلامي عن
هتلر ونابليون والإسكندر هو أثر من آثار هذه العقيدة أو هذا الشعور ..

وقد يخطر لبعض القراء أنها «فلسفة نظرية» أو نزعة من نزعات الرأي والتدبير ..

أما الواقع الذي أعلم من نفسي فهو أن الطبع أغلب هنا من التطيع ..

فلم أشعر قط بتعظيم إنسان لأنه صاحب مال ، إن لم يكن أهلاً للتعظيم بغير مال ..

ولم أشعر قط بصغرى إلى جانب كبير من كبراء الشراء . بل شعرت كثيراً
بصغرهم حيث يستحقون التصغير ..

وكنت أعتقد دائمًا أن نابليون مهرج إلى جانب باستور ، وأن الإسكندر
المقدوني بهلوان إلى جانب أرشميدس ، وأن البطل الذي يخوض الحرب ذوداً
عن الحق والعقيدة أكرم جداً من كل «بطل» يقتسم العروب ليقال إنه دوخ كذا
من الأمم ، وفتح كذا من البلدان ..

من هنا كنت قليل المبالاة بالمقتنيات المادية ، لأن احتواها لا يعظم من يحتويها في نظري ونقصها عندي لا يصغرني بالنسبة إليه ..
أما فلسفتي في الحياة مع الناس ، فأثر التجربة والدرس فيها أغلب من أثر الطبيعة الموروثة ..

كنت أتعب في معاملتهم ثم عرفت ما أنتظروهم ، فأرحت نفسي من التعب ...
وأخذت لنفسى شعاراً معهم :

ألا تنتظر منهم كثيراً ، ولا تطمع منهم في كثير .

والطمع في إنصاف الناس ، إذا كان في الإنصاف خسارة لهم أو معارضة لهواهم ، هو الكثير الذي ما بعده كثير .

فهم منصفون إذا لم يكلفهم الإنصاف شيئاً ، ولم يصادمهم في هوى من أهواهم ..
ومنهم المنصف وإن جنى عليه الإنصاف ، ولكنه واحد في ألف .. لا تجده
في كل حين ..

ولقد رضيت نفسي معهم على هذه الحقيقة ، وتعودت منهم مجافاة الإنصاف
حتى كدتأشعر بشيء من «خيبة الرجاء» إذا وقعت اتفاقاً على أحد المنصفين! ..

فهل هم أهل خير؟ ..

هل هم أهل شر؟ ..

ليبحث من أراد أن يبحث في أمرهم على مهل . ولكنه قادر على أن يستريح معهم
في خلال ذلك إذا لم يطمع في خيرهم وهم أخيار ، ولم يحفل بشرهم وهم أشرار ..

* * *

وفلسفتي في العمل تتلخص في أصول ثلاثة هي :
قيمة العمل فيه ..

وقيمة العمل في بواعته لا في غاياته ..

وأساس العمل كله نظام ..

إذا عملت شيئاً له قيمة ، فشق أنها قيمة «محفوظة» لا ينقص منها قول منكر
ولا يزيد فيها قول معترض ..

وإذا لم تبلغ بك الثقة هذا المبلغ فاجعلها فرضاً بين فرضين ليس لهما ثالث :
أما أن يكون للعمل قيمة مرهونة به فلا بأس عليه ، وإنما أن تكون قيمته مرهونة
بمشيئة هذا أو ذاك فهو أهون من أن تأسى عليه ..

وقد درج الناس على النظر إلى غaiات الأعمال حتى أوشكوا أن يجهلوا بواعثها أو
يغفلوا عنها .

واختلاف البواعث هو الذي ينتهي إلى اختلاف الغaiات . فالناس يختلفون في
طلب المجد حين يطلبه أحدهم في الرئاسة ، ويطلبه غيره في العلم ، ويطلبه
غيرهما في الشروة ، ويطلبه آخرون في الإيمان ..

وإنما اختلفت غaiاتهم لاختلاف بواعثهم . مما يبعث هذا إلى العمل لا يبعث
ذاك وما يزهد فيه بعضهم يتناحر عليه غير الزاهدين فيه ..

فقول على صحة البواعث لك على العمل قبل التعويم على صحة الغاية ، لأنك
إذا أصدرت عن باعث صحيح هان عليك أن تفوتك الغاية المرجوة ، وعملت ما
ينبغى أن ت عمله وبقى عمل الزمن أو عمل الأقدار ..

وأصعب الأعمال سهل مع النظام ..

والعمل الكثير مستطاع إذا نيط كل عمل بوقته ، لأن حكم الأعمال الكثيرة في
هذه الحالة حكم العمل الواحد .. مadam له وقت لا يشترك فيه عمل آخر ..
وشعراً مع النظام كلمتان : «لا ترتبك» ..

وإنما تأتي الربكة من المفاجأة التي تطرأ على نظامك فتلجئك إلى تغييره ..
فلا تغير نظاماً لغير ضرورة ..

وإذا حلت الضرورة فلا تتردد في تغييره ، وخذ بين ذلك بالمهم في وقته الذي
لا يحتمل التأجيل ..

* * *

فصواب هذه الخطة ثابت من جانب لا شك فيه ، وهي أنها كل ما يستطاع
وخير ما يستطاع ، وإنك بها تعمل شيئاً ، وبالتردد لا تنتهي إلى عمل شيء ..
فلسفة حياة في بضعة سطور :

غناك في نفسك ، وقيمتك في عملك ، وبواعثك أخرى بالعناية من غaiاتك ،
ولا تنتظر من الناس كثيراً ..

•••الحياة.. هل هي جديرة بأن يحياها؟•••

نعم .. ولكن أي حياة؟ .. لقد عاب القرآن الكريم على بني إسرائيل في عهد النبي خوفهم من الموت ، فقال إنهم أحقر الناس على «حياة» ولم يقل على الحياة .. لأن الحرث على الحياة واجب طبيعي وواجب إلهي لا عيب فيه ، فلا يلام الحي على أن يحرث على الحياة .. وإنما يلام لأنه يحرث على كل حياة وأى حياة ، ولو قبل الهوان وهرب من الواجب وامتنع عليه وسائل العمل النافع ووسائل الرجاء في صلاح الأمور ..

وفي ختام مقال لي عن «فلسفة الحياة» قلت ما معناه : إن الحياة تستحق أن نصونها إذا كانت لنا شروط تملّيها علينا وتقبلها ، ولكنها غير جديرة بالصون إذا كانت كلها شرطاً تملّيها هي علينا فتقبولها صاغرين ولا تملك العرف والعدل فيها .. وهذا هو الفاصل الحاسم الذي نفرق به بين الحياة الكريمة والحياة الممهينة ، والحياة الأولى نعمة تصان والثانية سخرة وسخرية في أن .. ومن الأمثلة التي يتضح بها هذا الفارق مثال الحياة في الشباب المقرب والحياة في الشيخوخة الفانية ، فالشاب له أن يأكل ويشرب وينعم ويطرد ، وعلى الحياة أن تديم له الصحة والنشاط والقدرة على هضم كل طعام ، واحتمال كل شراب ، والإعراض حيناً بعد حين عن المنام ..

له أن يطيش ، وعلى الحياة أن تصبر على طيشه حتى يثوب إلى الحكمة ويصلح بيديه ما كانت تصلحه هي بيديها ..

له أن يذهب أبويه بالمغامرة والمخالطة ، وعلى الحياة أن تحبب إليهما العذاب ، وتلهمهما الصفع والحنان .. فهو صاحب شروط ، والحياة تتقبل منه تلك الشروط ، فهي جديرة بأن يحياها ، وهو جدير بأن يتقبلها على هواها ..

أما الشيخوخة الفانية ، فهي على نقیض ذلك من الألف إلى الياء .. حق للحياة أن تحرمها الطعام والشراب شيئاً فشيئاً ، وواجب عليها هي أن تقنع بما بقى لها وتجرب الاكتفاء بالموجود عن كل مفقود . من حق الحياة أن تطيش معها ، ومن واجبها هي أن تتقى ذلك الطيش بالحكمة ، وتحسب له الحساب بالتدبير بعد التدبير .. فالحياة كلها شروط تملّيها عليه ، فيقبلها ، والحياة إذن غير جديرة بأن يحياها ولكنه يحياها ، فلماذا؟ .. إنه يحياها بحكم العادة وبحكم الضعف عن

فراقها ، لأن الإنسان لا ينبع الحياة إلا بقوة مستمدّة من الحياة . ومن أجل هذا ، كانت نسبة الانتحار بين الشبان أكبر من نسبة الانتحار بين الشيوخ . . .

* * *

ويشبه هذا المثال الفارق بين الحياة المستقلة والحياة المستعبدة لأهواء الآخرين . فالحياة المستقلة نعمة ، والحياة المسخرة «مدة سجن» تقضي ، لأن المستقل يملك شروطه ويمليها على الحياة فتقبلها ، ولأن الحياة تملئ شروطها على «المسخر» فلا يملك الفكاك منها . يعمل المستقل حين يشاء ويستريح حين يشاء . أما المسخر فلا يعمل لنفسه ، ولا يستريح لنفسه ، ولكنه يجري في العمل والراحة على قانون مفروض عليه ولا رغبة له فيه . . .

ولنا أن نتخذ الأمثلة من الحياة الفنية كما نتخدّلها من الحياة الطبيعية ، فنقول : إن الحياة الفنية تستحق العناء إذا كان عندك ما تقوله وتصنّعه - وفاقاً لذوقك ووحي وجدانك وعقلك - ولكنها لا تستحق عناء قلًّا أو كثراً إذا كان كل ما تقوله موافقة لأذواق الناس وعقولهم ، ومرضاة لهم في مطالب المصلحة والجد أو مطالب اللهو والفراغ . . .

. والشروط بالأمل الصحيح كالشروط بالعمل الواقع في تقويم قيم الحياة . . فليس من الضروري أن تكون شروطك كلها منجزة بين يديك في كل ساعة لأن الحياة ليست ساعة واحدة ، وليس يوماً واحداً ، وليس سنة ولا بضع سنوات . .

* * *

فإذا كانت لك شروط مؤجلة فيها ، فهي كالشروط المُعجلة على حد سواء . ومثلك في ذلك مثل المنافق على حساب المحصول في المزرعة ، وهو يعلم أن المحصول آت لا ريب فيه . . فالحياة مصرف كبير ، وأموال المصارف ليست كلها حاضرة منجزة في كل لحظة من لحظات النهار والليل ، وإنما تغنى عنها الثقة التي لا غنى عنها .

فاقنع بشروط الثقة في بعض الأحوال ، كما تقنع بشروط الثقة في كثير من الأحوال . . .

والحياة لعب ماكرة . لا يحيط بمكرها جميع الأحياء ولو كانوا من أبناء آدم وحواء . وهي تعلم أنها تستهوي الخلق باللعب والدهاء . وتحول بينهم وبين الموت بالحيلة الناجحة في كثير من الأوقات ، ولو لا ذلك لشردوا منها كما يشرد الأطفال من الحبس الكريه الذي لا يلعبون فيه كما يشتتهون . لهذا تعطى الشروط وتنزع بعضها فلا تكون جديرة بالحب كله ولا بالبغض كله في وقت واحد من أوقات عمر الإنسان .

فالشاب له شروط كثيرة على الحياة في الصحة والنشاط ولكنها قد تملئ عليه شروطها الثقيلة في مسائل العمل والمال أو مسائل الجاه والنفوذ ، والشيخ عليه شروط يطيعها في شئون بدنه ونفسه ، ولكنه قد يملك شروطه في تدابير المعيشة التي تريحه ويعرض بها مسافات من راحة العافية والسلامة .

والفنان المستقل قد يقول ما يشاء ، ولكن الفنان «الهواش» قد يربع ما يشاء .. ولو لا ذاك لا نتحرر نصف الناس وعاش الباقيون في حكم المنتحرين .. أو منتحرين مع وقف التنفيذ !

قبل أن أطبع ديواني الأول - على ما أذكر - كنا ثلاثة أو أربعة من قراء الشعر والأدب في بعض الضواحي التي يطيب فيها تناشد الأشعار، فتمثل أحدهم بهذين البيتين :
قالوا الحياة شقاءٌ قلنا فَأَيْنَ النُّعَيْمِ؟
إِنَّ الْحَيَاةَ حَيَاةٌ فَفَارَقُوا أَوْ أَقْيَمُوا

وكان بعضنا لا يعلم أن هذين البيتين من نظمي ، فقال هذا الكلام صعب .. هذا كلام استغناء .. كأنه يقول : من لم تعجبه الحياة فليشرب من البحر ! قلت : ليته يجد البحر ليشرب منه ، لأن الموت قفر تنصب فيه جميع البحار إلا أن تكون حياض الموت التي قال فيها الشاعر :

أَنْتَ وَحِيَاضُ الْمَوْتِ بَيْنِ وَبَيْنِهَا وَجَادَتْ بِوَصْلٍ حِينَ لَا يَنْفَعُ الْوَصْلُ
فالحق أننا بين أمرين اثنين ، لا ثالث لهما : فإذاً أن تكون الحياة قديرة بأن نحياها ، وأما أن يكون الموت جديراً بأن نموته .. ولا خيار بعد هذا الخيار .. وأحسب أن إيمانى بالحياة لم يتبدل منذ نظمت تلك الأبيات ، وقد كان إيماناً جديراً بالتقدير والتكرير في خاشية الضعف التي رانت على زملائنا من أبناء الجيل كله أو جله ، لأنهم كانوا يتباكون ويظنون أن البكاء علامة الظرف والذوق ، ويشكون الحياة ويظنون أن جهاد الحياة شيء لا يليق بأصحاب المزاج «الرقيق» .

وليس معنى هذا أننا لا نشكو من حالة من الحالات ، فإن الدنيا ما خلت قط ولا تخلو أبداً من أسباب الشكاية بسبب معقول أو غير معقول .. ولكننا نعني أن شكوى الطفل لأمه غير شكوى الرجل لنفسه ، وأن الحياة حياتنا .. فنحن مسئولون عنها ، ونحن نصلحها ونعالج نقصها ونجعلها أهلاً لنا أو جديرة بأن نحياها ، وقولنا إن الحياة غير جديرة بأن نحياها مرادف لقولنا إننا نحن غير جديرين بالحياة ..

لا نقل هذا ولا ذاك ، ولنقل إن الحياة جديرة بأن نحياها فنراها كذلك ..

الفصل السابع

• طفت العالم من مكان؟ •

أعتقد أن كبار الرحاليين الذين تستحوذ عليهم رغبة ملحة في الطواف بين أرجاء العالم تملّكهم على الرغم منهم «ملكة شخصية» يصح أن تسمى عبقرية السياحة ، ويصح أن تتجاوز الحد فتسمى هوس السياحة ..
وأعتقد أن هذه الملكة الشخصية مستمدّة من ملكة قوية أصيلة في الأمة التي يخرج منها أولئك الرحالون المنقطعون للسياحة ..

لأن معظم الرحاليين الكبار خرّجوا من أمم قد تعود أبناؤها الرحلة وشقت عليهم الإقامة الطويلة . كالعرب لأنهم من أبناء البداية ، والفينيقيين والإغريق لأنهم يقيمون على الشاطئ ويحتاجون إلى الملاحة ، وكالبنادقة والبرتغاليين والإنجليز في العصور المتأخرة ، لأنهم جميعاً بحريون وملاحون ..

وأكثر الرحاليين الكبار الذين اشتهروا في التاريخ ونسب إليهم الفضل في الكشوف الجغرافية ، هم من أبناء هذه الأمم ، أو أبناء أمم تشبهها في البداوة والاشغال بالملاحة ..

ملكة شخصية مستمدّة من ملكة قومية ..

هذه هي عادة الرحلة التي تغلب على بعض الناس ، أو هذه هي هوس الرحلة إذا تجاوزت حدّها المعقول .

على أنني أعتقد - إلى جانب هذا الاعتقاد - أن ملكة الرحلة غالبة على الرحاليين وغير الرحاليين .

ولكنها تظهر في صور كثيرة غير صورة الرحلة الخارجية ، ومنها الرحلة في داخل النفس أو في عالم الخيال .

وبين كبار الرحاليين من هذا الطراز أناس لم يفارقا مكاناً واحداً خلال عشرات السنين كأبي العلاء المعري ! ..

فإنه سمي نفسه «رهين المحبسين» للازمته داره وحبسه في جسده ، ولكنه شاء أن يرحل في كتاب من كتبه - وهو رسالة الغفران - فلم يقنع بأقل من الرحلة إلى السماء ، وإلى الجحيم !

وكجول فيرن الكاتب الفرنسي الحديث ..

فإن ما رأه من جوانب الأرض بالقياس إلى المشاهدات المأثورة عن كبار الرحاليين شيء لا يذكر ، ولكن ساح بخياله في جوف الأرض وفي أعماق البحار وفي أجواء السماء ، بل ساح في عالم الغيب فوصف للناس مخترعات لم تخلق بعد ، ثم خلقت في أوانها فإذا هي كما وصف .. ! حتى قال ليوتى القائد الفرنسي الكبير إن الناس اليوم «يعيشون أحلام جول فيرن» ..

* * *

لابد من السياحة إذن في الخارج أو في الداخل ! سياحة مع الانتقال ، أو سياحة بغير انتقال .

والظاهر - لا بل المحقق - أنني أنا أحد الرحاليين بغير انتقال ، كما لا حظ بحق أحد أصدقائي ، حين علم مرة باعتذاري من تلبية الدعوة إلى كثير من السياحات ، وبعضها بغير نفقة على الإطلاق ..

ومع هذا يجوز لي أن أقول إنني طفت العالم من مكانى الذى لا أبرحه ، لأننى رأيت فى هذا المكان ما يراه الرحالون المتقللون ..

لقد تعلقت بالسياحة فى أوائل صبائى ، وشافتى أن أسيح هنا وأسيح هناك بين مشارق الأرض ومغاربها . ولكنها كانت كلها كما تبين لي بعد ذلك عارضاً من عوارض الصبا التى تنزوى مع الزمن وراء غيرها من الميول المتمكنة فى السليقة ، فما زالت تضعف وتضعف حتى ليسعني أن أقول اليوم إننى لو لا رياضة المشى التى تعودتها لما خطط لي أن أبرح المنزل أياماً بل أسابيع .

ولذلك سبب منى ، وسبب من أحوال العصر الذى نعيش فيه .

فأما السبب الذى منى فبعضه يرجع إلى حب العزلة التى نشأت عليها وورثتها من أبوى ..

وبعضها يرجع إلى شعورى بالقراءة التى تعنى . فإننى أشعر بأننى لا أقرأ سطوراً على ورق ، ولكننى أحيا فى تلك الأوراق بين أحياه .

ومن هنا ألفت بعض شخصوص التاريخ كأننى أعاشرهم كل يوم ، وألفت بعض الأدباء فى قراءة كلامهم فتمثلتهم فى ملامح وجوههم وعاداتهم ، فى حركتهم وسكنهم ، واستملكت من ديوان شاعر كابن الرومي سيرة حياته أو صورة حياته ، وثبت له فى خيالى شكل لا يتغير ولا يزال يلوح لي على هيئة واحدة كلما طاف بي طيفة فى منام .

ومثله المعرى والفارابى وابن سينا وطائفه من مشاهير الأدب والفن بين الشرقيين والغربيين .

فلو كنت مصورا لاستطعت أن أرسم لكل منهم صورة كاملة كما يرسم المصوّر
أناسا من الأحياء يراهم كل يوم .

* * *

أما السبب الذي من العصر ، فلنك أن تقول إنه في الحقيقة جملة أسباب ..
لأن العصر الحاضر أول عصر يسر للإنسان - وهو جالس في مكانه - أن يدرك
بالبصر والسمع بلاً واسعة على مدى مئات الفراسخ وألوافها ، فينظر مساكنها
وسكانيها ، ويشرف على بطاها ، ويتأمل في دروبها ، ويتراءى له في لحظات
من معالم هذه المدينة أو تلك القرية ما ليس يتراهى لساكنها في ساعات أو أيام .
كانت السياحة هي الوسيلة الوحيدة للإحساس بالبلاد البعيدة .

أما اليوم فنحن نحسها بالعين والأذن كلما أردنا ، ونحن في الدار أو على مقربة
من الدار ..

الصحف تنقل إلينا أخبارها .

والإذاعة تسمعنا أصواتها وأصداءها .

والصور المتحركة تستندني للأذان - كما تستندني للعيون - كل ما هو خليق منها
بمشاهدته أو الاستماع إليه .

وعلم تخطيط البلدان قد يعرفك بما يجهله المقيمون فيها ، ومراجع التاريخ قد
تملاً نفسك بما يملأ عصورها من الأحداث والذكريات ، ونقوش الفنانين وأغاني
الشعراء والموسيقيين تهيئ لك أن تنفذ إلى روحها وتمتزج بعقريتها ، وتحيّاها
على أحسن أنماطها في الحياة .

* * *

نعم إن الإحساس بالمكان - وأنت فيه - غير الإحساس به وأنت على مسافة
منه .. ولكن هل نستطيع أن نقول إن الإحساس بالمكان القريب يعني عن الإحساس
البعيد ؟ أو هل نستطيع أن نقول إن الإحساس من الداخل يعني عن الإحساس من
الخارج ؟ أو أن الإحساس بالعين والأذن يعني عن الإحساس بالوعي والخيال ؟
هذا إحساس ولا شك لا زمان ..

والخير كل الخير أن تجمع بينهما ، وأن تكون رحلتك الخارجية مقرونة برحلتك
الداخلية ..

فإذا تعذر الخير كل الخير ، فالخير بعض الخير «خير» من لا شيء !
ولست أزيد لأحد أن يفضل طريقتي في السياحة على طريقته . ولكنني أنا على
الأقل لن أنقطع عن السياحة في العالم رحالة بغير رحلة ، وطواباً بغير طاف !

••• أجمل أيامك؟ •••

قال : حدثنا عن أجمل أيامك من شبابك إلى مشبك .

قلت : أمهلني حتى أذكر .

ثم راجعت نفسي قبل أن أمعن في التذكرة وأستقصى ما عندي من وداع الأسرار والأخبار ، فسألتها مصارحاً في سؤالها :

- فيم هذا الإمهال وفيم هذه المراجعة؟ إنك لا تفعل ذلك إلا أن تكون أيامك الجميلة قد بلغت من الكثرة أن تفوق الحصر والحساب وأن تحتاج منك إلى العناء في التمييز بينها وتفضيل ما يذكر منها ، بعد طول الأخذ والرد والترجيع والتعديل ! فهل تركت تزعم لنفسك ، أو تزعم لقرائك ، أنك صاحب هذه الشروة التي لا تحصى من الأيام الجميلة ، وأنك في حيرة بين ما تأخذ منها وما تدع وبين ما تقدم منها وما تؤخر ، وبين ما تنشره منها وما تطويه ؟

دعواك هذه - إن ادعيتها - لا يدعها أحد من بنى آدم وحواء ، فما بلغت السعادة بهذا النوع البشري المسكين أن يستمتع في حياته بكل هذا المقدار من جمال الأيام أو جمال الأوقات التي تحسب بالساعات .

فإن لم يكن هذا مبلغ ثروتك من الأيام الجميلة فيم العناء في التذكرة والاستعادة وفيم التسوف والإرجاء ؟

هل هذه الأيام الجميلة من الخفاء بحيث يحجبها ظلام السنين عن النظر وتطويها حوادث الأيام في زوايا النسيان ..

كلا .. ولا كل هذا التواضع «الجميل» في رأي الكثيرين من المزيفين للأقوال والأعمال ، فما من إنسان يعمل في دنياه ويحصل بإخوانه من ذرية آدم وحواء تفوته الأيام المذكورة التي لا تنسى على طول العهد أو التي تغلب النسيان ولو تقلب عليها الليل والنهار .

فلا محل للبحث في أعماق الذاكرة لاستخراج تلك الودائع الباقية ، وإنما البحث في أعماق الذاكرة لغرض آخر غير حصر أيام الحياة التي تحسب من الحياة ونحب من أجلها الحياة .

إنما البحث في أعماق الذاكرة للتمييز بين الأيام التي يحق لنا أن نصفها بالجمال والأيام التي يكفي أن تحسب من أيام المتعة واللذة أو أيام السرور والارتياح ..

وبين الصنفين فارق بعيد فيما يذكر وما لا يذكر .

بينهما الفارق الذي يجعل أحد الصنفين جديراً بالغبطة والتنويه ولو لم يكن منه في العمر غير يوم واحد ، ويجعل الصنف الآخر على أحسن الأحوال نموذجاً يتكرر على نمط واحد ويكتفى أن يذكر منه عنوانه ليغنينا بعد ذلك عن ذكر المئات والألاف من الأيام ، يدل عليها ذلك العنوان ..

* * *

في حياة كل إنسان ذخيرة وافرة من الأيام اللذيدة الهنية والأوقات الرخيصة الراضية ، ولكنك تحسبها من أمتع أيام الحياة ولا تحسبها من أجمل أيام الحياة .

فمن هذا الذي يعرف ما يذكر وما ينسى من الأيام ثم يستوقف السامعين ليحدثهم عن الأكلة الشهية التي ساغت له أمس أو قبل عشر سنين ؟ ..

ومن هذا الذي يعرف معنى الجمال ثم يحسب منه تلك الليلة اللذيدة التي قضاها في أحضان الحب والهوى ، ونعم فيها بنعومة ذلك الجسد وحرارة ذلك العناق .

هذه اللذائذ لا تفوت إنساناً منبني آدم وحواء ، وليس من جمال النفس الإنسانية شيء ، وإنما هي تمريرات محبوبة للحواس ينعم بها كل ذي حس من الحيوان كما ينعم بها كل ذي نفس منبني الإنسان .

ليست هذه أجمل أيام الحياة ، ولكنها كما تقدم أمتع أيامها أو قد تكون في حساب الجسد أحب الأيام إليه .

أما اليوم الجميل فهو اليوم الذي يرتفع بنا إلى مقام فوق المتعة والألم والراحة وفوق المعدات والأكباد والجلود ، وفوق مطامع النفس إلى يغلبها ويسومها أن تقبل الجميل والقبيح وأن ترضي بالحميد والذميم ..

* * *

اليوم الجميل هو الذي نملك فيه دنيانا ولا تملكونا فيه ، وهو اليوم الذي نقود فيه شهواتنا ولذاتنا ولا نقاد لها صاغرين أو طائعين .

ومن هذه الأيام ما أذكره ولا أنساه ولا أحتج إلى العناء في البحث عن ذكراه ..

فكل يوم ظفرت فيه بنفسي وخرجت فيه من محن الشك فيما أستطيع وما لا أستطيع فهو يوم جميل بالغ الجمال .

جميل ذلك اليوم الذى قضيت عشرات الأيام فى انتظاره متربداً بين إغراء اللذة وإيحاء الكراهة ، حتى وصلت إليه فحمدت لنفسى أنها عملت بما ينبغي أن تفعل ، واستطاعت أن تفعله ولا تنند عليه ..

جميل ذلك اليوم الذى ترددت فيه بين ثناء الناس وبين عمل لا يشنى عليه أحد ولا يعلمه أحد فالقيت بالثناء عن ظهر يدى وارتضيت العمل الذى أذكره ما حبيت ولم يسمع به إنسان ..

جميل ذلك اليوم الذى وقفت فيه بين الخوف من عواقب الخروج على زمرة الأقواء القابضين على أزمة الأمر والنهى فى البلد وبين الرضا بمساوههم وأباطيلهم وغناهم رضاهما ، فخرجت من الزمرة غير ملتفت إلى الوراء وأسعدنى الطالع المبارك فجمعت بين جرأة المجترئ وحكمة الحكيم ، وبين تفسحية المجازفة وثواب الحزم والروبة .

جميل ذلك اليوم الذى كاد يحسو جيوبى بالمال ويفرغ ضميرى من الكراهة فأثرت فيه فراغ اليدين على فراغ الضمير .

جميل ذلك اليوم الذى احتجت فيه واحتاج فيه مسكين فغلبت شع النفس ، ووجدت بين جوانحى طاقة الصبر على الضيق ، ولم أجد فيها طاقة الصبر على منظر العين النذيلة والقلب الكسير ..

جميل ذلك اليوم الذى استغنىت فيه عن العمل ، وملكت فيه ما يغرس بالكسيل فطاب لى التعب الذى لا حاجة إليه ، ولم يطب لى الكسل الذى يحبه إلى طول الجهد وقلة الجزاء على العمل الكريم ..

* * *

هذه الأيام جميلة أجمل ما فيها أن نصيبي منها جد قليل ، إلا أن يكون النصيب عرفانى باقتدار نفسى على ما عملت فهو إذن كثير بحمد الله لا أبادر عليه المكثرين من خيراتهم وطيباتهم ، كما يحسبون الخيرات والطيبات ..

أجمل ما فى الحياة يوم تملك فيه نفسك فتعلم أنك ملكت الثروة التى لا يقاس بها ملك المال ولا ملك اللذة ولا ملك الثناء .

أيام لا أقول إنها تكثر حتى تعدد بالعشرات ولا أقول إنها تندر حتى لا تذكر ، ولكننى أذكرها وقد سئلت عنها لأنها تعريف بالجمال حين تتحدث عن جمال الأيام ، وعزاء لمن قنع بها من حياته ليعلم أنها تبقى فى الذاكرة وأنها محصول سنى العمر ويحمله من ملكه ، ولو لم يملك سواه ..

••• أَكْرَهُ الْحَبِيبِ •••

قال شاعر حديث :

يَطْلُبُ الْإِنْسَانُ فِي الصَّيفِ الشَّتَاءَ
فَإِذَا جَاءَ الشَّتَاءَ أَنْكَرَهُ
لَيْسَ يَرْضَى الْمَرْءُ حَالًا وَاحِدًا
قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ !

أما أن الإنسان كنود كفور فحقيقة لا شك فيها ، إنه كثيراً ما ينعم بالخير فلا يشكر ولا يذكر ، وكثيراً ما يقابل الخير بالشر والإحسان بالإساءة ، فلا يخطئ الشاعر الذي ينعني عليه كنوده ونكرانه وكفره بنعماء ربه وبنى جنسه ..

* * *

وأقرباً كنت أعاود القراءة في مقالات طبيب عالم فاضل له شهرة بالعطف على الحيوان ، فقرأت للمرة الثالثة أو الرابعة قول إن «حب النوع الإنساني» فضيلة عليا ولكنها هو «آسف لأنه لا يستطيع أن يدعى هذه الفضيلة» .. وحسبه منها أنه قانع بحبه لأنواع الحيوان ومصاحبته لما عنده من الكلاب والقردة ، وهو الذي لا يطيق أن يزيد في حديثه مع أحد من الناس على نصف ساعة ، ثم يحاول النجاة ويعجب لمحدثه كيف لم يسبقه إلى هذه المحاولة !

قرأت هذا الاعتراف لكاتبه الدكتور «أكسل مونته» أصدق الناس عطفاً على العجمادات فلم أعجب لقراءته في هذه المرة ولا في المرات السابقة ، لأنه في الواقع رجل صادق لا يخفى حقيقة شعوره ، ولا يلقى القول على عواهنه ، فإن جنسنا البشري - ولا فخر - يستحق هذا وأكثر منه من فضلاء أبنائه ، والدكتور (أكسل مونته) في طليعة هؤلاء الفضلاء ..

قتل الإنسان ما أكفره^(١) .. صدق الشاعر وصدق الطبيب ، ولكن الشاعر لم يصب في اختيار «الحيثيات» كما أصاب في الحكم على التهم ، فقد يشتاق الإنسان في الشتاء إلى الصيف وقد يشتاق في الصيف إلى الشتاء ، ولا يستحق وصف الكفر والكنود من أجل هذا ! ولا يقال فيه إلا أنه يصير إلى حين ، ثم يخلله الصبر بعد ذلك الحين .

فتقسام الفصول في الدنيا لم يقصد فيه الدوام ولم تجمع الخيرات كلها في موسم واحد ، بل وزعت على الفصول كلها وجعلت في بعض الأقطار فصلا

(١) شطر البيت مستعار من القرآن الكريم - سورة عبس آية ١٧.

واحداً لا تختلف مواسمه على طول السنة ، فلا يلام الإنسان إذا هو تمنى بعض الخير الذي غاب عنه أو شكا بعض الشر الذي ألح عليه ، وقد يمهد له العذر في ذلك «أن الحال من بعضه» وأن الكرة الأرضية نفسها تتقلب في دوائر الفلك فلا تصير على صيف أو شتاء ، ولا تقنع بربيع أو خريف ..

وحتى لو كانت «الفصول» رضى النفس في كل موسم لا أحسب أن الملل منها يدل على «الكفر والكنود» كما يدل على طلب التقدم وحب الاستطلاع ، فإن الإنسان يترقى ويتقدم لأنه يتربّح حالاً بعد حال ويطمح إلى المزيد من الخير الذي يحصل في يديه ، ولو لا ذلك لبقي على نقصه وسوء حاله ولم يرتفع إلى طبقة بعد طبقة في تاريخه ، ولو جاز لنا أن نلوم الإنسان لأنّه يتغير ويحب التغيير ، لجاز لنا أن نلوم الطفل الذي ينتقل إلى الصبا ونلوم الصبي الذي ينتقل إلى الشباب ونلوم الشاب الذي يبلغ كمال الرجلة مع الزمن ، ثم لا يقنع بذلك حتى يتمني الخلود .

كلا أيها الشاعر الحكيم الذي صدق في حكمه ولم يصدق في حيسياته ، فقل ما شئت في كنود الإنسان وكفره بالنعماء ، ولكننا ندع لك «حيسياتك» تعيد النظر فيها على مهل ، ونقول لك يا صاح إننا نحن أيضاً نطلب الصيف في الشتاء ونطلب الشتاء في الصيف ، ونعرف لكل فصله وحسنه وسبب اختياره ، فنحسب هذا العرفان «عرفاناً بالجميل» ولا نحسبه من الكنود والكفر بالنعماء .

وإذا لم يكن بد من طلب الدوام .. فليدم لنا فصل الشتاء ولينذهب عنا الصيف حيث شاء ، إلى أقصى الأرض أو أطراف السماء !

* * *

يقال إن الناس يختلفون في تفضيل الفصول على حسب اختلافهم في المولد وموعده من تلك الفصول ، فمن ولد في الصيف فهو صيفي الهوى والمزاج ، ومن ولد في الشتاء فهو محب للبرد مستريح إليه ! ..

فإن صدق هذا الزعم فليصدق على من شاء من مواليد الصيف ، ولكنه - مع الأسف - لم يصدق علىّ قط ولا هو صادق علىّ الآن ، لأنني ولدت في أشد أيام الصيف من شهر يونيو بمدينة أسوان - ولا يزعجني شيء كما يزعجني الصيف إذا ارتفعت حرارته فوق حراري على الخصوص ، وتقدم من «الثلاثينات» إلى حدود الأربعين ، وهي كما يقولون سن النضيج وقد صدقوا .. ولكنه نصح الجلود لأنصح الأعمار ..

ولا تزعجني منه مضائق المزاج فقد تعودنا من الدنيا مضائق كثيرة أشد على النفس من هذه المضائق ، وإنما يزعجني منه أنه «يتعب الكبد» حقيقة ومجازاً ، وتعب الكبد والعياذ بالله غاية الإزعاج وقلب المزاج ..

وقد سألت كثيرين ممن ولدوا مثلى في هذا الفصل الخافق ، وإن لم يوصف بأنه بارد ، فكان لسان حالهم أنهم نسوا مولدهم فيه ، ويغيب إليهم أنهم سيموتون فيه!

* * *

ومن نقائص الصيف أن يمتد فيه وقت العمل وتقصير فيه القدرة عليه عند معظم العاملين ، فيبلغ النهار أربع عشرة ساعة وتهبط الطاقة بضع ساعات ، فلا هو بالموسم العامل ولا هو بالموسم المريح ، وإذا احتالوا عليه في الغرب بتقديم الساعات بهذه الحيلة في الشرق قلما تقدم أو تؤخر لأنه يتطلب أبناءه بالقليولة في الظهر الأحمر كما يقولون ، فينامون في النور الساطع ولا ينامون في الظلام الحالك ، وينقلب ليتهم بنهار ، وهم يفرون من الديار ولات حين فرار .

ومن نقائصه أنه يدعى موسم التمرات لأنّه موسم الحصاد ، ولو لا أنها نبت في الشتاء أو الخريف لما حصدت فيه ..

وإذا ارتفعت فيه الحواجز وفتحت فيه الأبواب ، فكثيراً ما تنفتح للناس وهو من ورائهم كرار قهار ، يطردهم طردا إلى الخلاء بغير قرار ، وقد يطردهم من ديارهم إلى خارج الديار ، وإن شط المزار .

وإذا أغناهم عن النار أحوجهم إلى الثلج ، أو أغناهم عن الكساء أحوجهم إلى نسمات الهواء .

يتأففون منه بحكم الفطرة قبل حكم المشيئة ، فهم بين زافر ونافر ، وبين نافخ في الهواء أو متطلع إلى السماء ، فلو أراد أن يتجمل ويتألف ، غلبه «القافية» فتململ وتألف ، وأوجس شرا وضاق صدرًا ، وإن اتسعت حوله منادح الفضاء! إلا أنني أحمد له ساعة لا يحمد لها أحد ، لأنها الساعة التي ينام فيها كل أحد ، ولا أحس فيها لاغية في الطريق ، ولا في البلد ! ..

عادت الليالي في صيفها أو شتايئها ألا أقضيها كلها نائمًا وإن قصرت مسافتها بين المغرب والمشرق ، فلابد من يقظة أو يقطنات ، ولا بد في كل يقظة من جلسة إلى صفحة أو أسطوانة ، أو نظرة على الأقل إلى الشرفة قد تطور في كثير من الليالي إلى مطلع الفجر ، وقد تنسيني الفراش حتى الصباح ..

يتعمق بي الليل أو أتعمق به في هذه الجلسات الطوال ، فتنتقطع الرجل من الطريق كما يقول سهارة الليل ، وتنقضى اللحظة بعد اللحظة ولا حس ولا خبر ولا موقع قدم ولا همسة هامس من قريب أو بعيد .

وحدي في الكون كله ، أو الكون كله لي وحدي .. وحسبك من الصيف أن يعطيك لحظات معدودات تحس فيها بالكون كله بين يديك ، مخلوقا لك بغير منازع ولا شريك .

تحس بهذا نعم مجرد إحساس لا تستولى به على الحقيقة في ظاهرها وباطنها ، ولكنه الإحساس الذي يكفى لأنّه غاية الكفاية وغاية الإمكاني ..

لحظة تنفرد فيها بالكون كله ولو في عالم بين اليقظة والمنام ، وهل يتفرد أحد بشيء من الأشياء في غير عالم الوهم أو عالم الأحلام ؟
أناية ؟ ..

أتقول : أناية ! .. قل ما تشاء ، ولكن لا تنس أن «الأنانية» التي تتسع للكون كله أوسع من الزحام الذي تتصادم فيه الرؤوس والأقدام ..

في تلك اللحظات لا أنس حكيمنا^(١) رهين المحبسين وهو يقول :
ولو أني خُبِيتُ الْخَلْدَ فَرَدًا لَمَا أَخْبَبْتُ بِالْخَلْدِ اْنْفِرَادًا

* * *

نعم لا أنساء ولا أزال أقول معه : إنني كذلك لا أحب الخلد منفردا به على حال ، ولست أحسب أحداً يحب هذا الذي كرهه أبو العلاء ، أو يحسبه نعيمما يحرص عليه أبناء الحياة الفانية .

فكانا في هذا سواء .. أحكم الحكماء وأجهل الجهلاء ..
لا انفراد بالخلد ولا نعمة فيه ولا نعيم عين .. أما التفرد بالكون كله ساعة أو بعض ساعة فذلك غاية المنى ولو في الخلد ، أو في يقظة كأنها من حلم الصيف !

فإذا أعطانا الصيف تلك اللحظة نحسها واهمین أو متخيلین ، فتلك شفاعة له من لفحات لهيبه ، ونفحات صبيبه ، ومن أسباب الغفران أنه أوان لا يخلد به الزمان ، ومدام يزول فله من إقباله عذر مقبول .. !

(١) أبو العلاء المعرى .

الفصل الثامن

۔۔۔ پہلے الارکین ۔۔۔

من الأقوال الشائعة أن الشباب يبدأ حياته «خيالياً»، ثم يصير إلى الواقع شيئاً فشيئاً حتى ينكر كل خيال ..

لكتنى أذكر أن البداية معى كانت على خلاف هذه القاعدة وأننى الآن أقل إيمانا بما يسمونه التفكير الواقعي مما كنت فى مستهل الشباب .

ففي مقدمة «خلاصة اليومية» وهي أول كتاب طبعته قبل عشرين سنة قلت
الشخص الأفكار التي جمعتها في تلك الخلاصة :

أولاً : إن كل ظواهر هذا الكون علويها وسفليها ، ظاهرها وباطنها ، نتيجة تفاعل القوى المختلفة .. وكذلك الأمر في الاجتماع البشري ..

ثانيا : إن اللذة والألم أو - بعبارة أعم - المنفعة والضرر هما الدعامتان اللتان عليهما تقوم الأخلاق البشرية كافة . .

ثالثا : إن الإنسان حيوان راق ، ولكن لا يزال «حيوانا» .

فهذه نظرة «واقعية» لا أؤمن بها الآن بعد أن جاوزت الأربعين ، وليس يتسع المقام هنا لتفصيل الخلاف بين رأى فى العشرين ورأى فى الأربعين ، فهذا مجال واسع كثير الشعب كثير التفاصيل . ولكننى أردت أن أقول إن الأمر قد يختلف أحيانا ، فيبدأ الشاب بالنزعة الواقعية ، ثم ينتهي إلى التعديل فيها ، وليس من الضروري في كل حال أن يبدأ بالخيال وينتهي بالنزعة الواقعية ..

على أن الحقيقة التي لا ريب فيها أن «النزعـة الواقعـية» عند الشـاب لا تخلـو من الغـضـب العـنيـف عـلـى مـحـاسـن الـخـيـال والأـمـثـلة الـعـلـيا ، فـكـما أـنـ الفتـى المـدلـلـ يـشـعـرـ بالـخـيـانـةـ مـنـ حـبـيـبـتـهـ فـيـرـوـحـ ثـائـرـاـ غـاضـبـاـ يـقـسـمـ أـنـهـاـ دـمـيـمـةـ وـأـنـهـاـ حـقـيرـةـ وـأـنـهـاـ لـاـ تـسـتـحـقـ مـنـهـ الشـغـفـ وـلـاـ الغـضـبـ وـلـاـ النـقـمةـ ، كـذـلـكـ يـفـعـلـ الشـابـ الـذـيـ يـخـيـبـ أـمـلـهـ فـيـ المـثـلـ الـأـعـلـىـ فـيـنـقـلـبـ عـلـيـهـ ثـائـرـاـ غـاضـبـاـ يـقـسـمـ أـنـهـاـ خـرـافـةـ ، وـأـنـهـاـ كـلـهـاـ «ـمـادـةـ»ـ وـأـنـ الـإـنـسـانـ حـيـوانـ وـخـيـرـ لـهـ أـنـ يـعـيـشـ كـالـحـيـوانـ .

فلا ينبغي أن نصدق العاشق المخدوع الثائر على الحبيبة ولا الفتى المفكـر الثائر على المثل الأعلى فإن العاشق يثور وينكر جمال حبيبته لأنـه يحب ويريد أنـيـحب ، والفتى المـفكـر يـثور وـينـكـر جـمالـ المـثلـ الأـعـلـىـ لأنـهـ يـؤـمـنـ وـيرـيدـ أنـيـؤـمـنـ . وهذا هو الفرق بين النـزـعـةـ الـوـاقـعـيـةـ عـنـدـ الشـبـابـ وـالـنـزـعـةـ الـوـاقـعـيـةـ عـنـدـ الشـيـوخـ .. فـفـيـ الشـبـابـ تـكـونـ النـزـعـةـ الـوـاقـعـيـةـ أـشـبـهـ بـالـغـضـبـ مـنـ مـحـاسـنـ الـخـيـالـ وـالـمـثـلـ الـعـيـاـ ، وـفـيـ الشـيـخـوـخـةـ تـكـونـ النـزـعـةـ الـوـاقـعـيـةـ إـنـكـارـاـ لـوـجـودـ تـلـكـ الـمـحـاسـنـ وـالـمـثـلـ وـعـجـزاـ عـنـ الشـعـورـ بـوـجـودـهـ مـعـ الرـضـىـ عـنـهـاـ أوـ الغـضـبـ عـلـيـهـاـ ..

فـأـنـاـ فـيـ التـفـكـيرـ بـدـأـتـ بـشـبـابـيـ «ـوـاقـعـيـاـ»ـ وـانتـهـيـتـ إـلـىـ الشـكـ فـيـ قـدـرـةـ الـإـنـسـانـ عـلـىـ إـدـرـاكـ الـوـاقـعـ كـلـهـ .. لـأـنـ إـدـرـاكـ الـوـاقـعـ كـلـهـ لـاـ يـتـأـتـىـ لـإـنـسـانـ مـحـدـودـ فـيـ زـمـانـهـ وـمـكـانـهـ وـتـفـكـيرـهـ وـشـعـورـهـ ، إـذـ الـوـاقـعـ كـلـهـ شـئـ يـتـنـاـولـ الـكـوـنـ فـيـ ظـاهـرـهـ وـخـافـيـهـ ، وـلـيـسـ لـلـكـوـنـ حدـودـ فـيـ الزـمـانـ وـالـمـكـانـ وـلـاـ فـيـ مـؤـثـرـاتـهـ عـلـىـ الـفـكـرـ وـالـشـعـورـ .. فـالـذـيـنـ يـحـسـبـوـنـ أـنـهـمـ قـادـرـوـنـ عـلـىـ إـدـرـاكـ الـوـاقـعـ فـيـ الـمـسـائـلـ الـكـبـرـىـ وـالـأـصـوـلـ الـخـالـدـةـ هـمـ الـواـهـمـوـنـ ، وـهـمـ هـمـ الـذـيـنـ لـاـ يـسـتـحـقـوـنـ اـسـمـ «ـوـاقـعـيـيـنـ»ـ ..

* * *

هـذـاـ فـيـ التـفـكـيرـ ..

أـمـاـ فـيـ الـمـسـائـلـ الـنـفـسـيـةـ ، فـالـذـيـ أـجـزـمـ بـهـ أـنـ الزـمـنـ لـاـ يـغـيـرـ عـنـاـصـرـ الـنـفـسـ الـأـصـيـلـةـ وـلـاـ يـزـيدـ عـلـيـهـاـ وـلـاـ يـنـقـصـ مـنـهـاـ ..

فـكـلـ ماـ كـانـ فـيـ نـفـسـيـ منـ أـخـلـاقـ وـأـطـوـارـ وـشـهـوـاتـ أـحـسـسـتـهـاـ فـيـ إـبـانـ الشـبـابـ الـأـوـلـ ، لـاـ تـزـالـ قـائـمـةـ هـنـاكـ أـرـاـهـاـ فـيـ الـعـشـرـيـنـ ، وـفـيـ الـخـامـسـةـ وـالـعـشـرـيـنـ ، وـفـيـ الـثـلـاثـيـنـ وـفـيـ الـأـرـبـعـيـنـ ..

كـلـ مـاـ اـخـتـلـفـ مـنـهـاـ أـنـهـاـ كـانـتـ فـيـ حـالـةـ الـفـورـانـ ، ثـمـ هـىـ جـانـحةـ قـلـيلـاـ إـلـىـ الـاسـتـقـرـارـ ..

فـكـأنـماـ هـىـ موـادـ فـيـ قـدـرـ تـغـلـىـ وـتـضـطـرـبـ ..

فـفـيـ إـبـانـ الشـبـابـ الـأـوـلـ كـانـ الـغـلـيـانـ شـدـيدـاـ ، فـكـانـتـ هـذـهـ موـادـ تـذـوبـ وـتـحلـلـ وـيـختـلطـ لـوـنـ مـنـهـاـ بـلـوـنـ ، وـعـنـصـرـ مـنـهـاـ بـعـنـصـرـ ، وـلـاـ تـنـىـ صـاعـدـةـ هـابـطـةـ وـلـاـ تـلـمـحـهـاـ إـلـىـ الـيـمـيـنـ حـتـىـ تـرـاـهـاـ إـلـىـ الشـمـالـ ، وـلـاـ تـهـمـ بـأـنـ تـحـصـرـهـاـ وـتـعـرـفـ مـقـدـارـهـاـ حـتـىـ تـغـيـبـ عـنـكـ وـتـفـلـتـ مـنـ الـإـحـصـاءـ ..

أما فيما بعد ذلك فقد جنحت إلى الاستقرار فامكن أن تراها وأن تحصرها وأن تعرف معادنها وألوانها ، وقد رسب منها ما رسب ، وطفا منها ما طفا ، وقل اختلاطها وتميزت ألوانها فسهل من إحصائها ما كان صعبا وأسلس من بيانها ما كان عصيا ، ولكنها في جميع الناس هي هي بلا زيادة ولا نقصان .

فالسن لا تُغيِّر الطبائع ولا تضيِّف إلى عناصر النفس أو تأخذ منها ، ولكنها تعرفنا بمقاديرها وموقعها وتنقلها من غليان مبهم إلى استقرار واضح ، ولكل من هاتين الحالتين فضلته ورجحانه ، ففي الغليان قوة وفي الوضوح معرفة ، والمعرفة مع ذلك قوة للعارفين ..

ذلك مجمل ما يقال في التغيير الذي طرأ علىَ بين العشرين والأربعين من حيث التفكير ، ولا سيما في المسائل الكبرى ، ثم من حيث الأخلاق والبواعث النفسية .

* * *

أما شؤون المعيشة أو ما يسمى في بعض الأحيان بفلسفة العيش فالاختلاف فيه بين العشرين والأربعين غير قليل ..

ففي العشرين كنت كالمسافر الموعود في رحلته بأمتع المناظر وأعجب المفاجآت ، فلا يزال يعرض عما يراه لأنَّه دون ما كان ينتظر ويتخيل ، ولا يزال مستهينا بالحاضر أملاً فيما يليه .

أو أنتي كنت في العشرين كالجالس على المائدة وهو يظن أن أطابق الطعام لا تزال مؤخرة محجوزة ، لأنَّه لم يجد أمامه طعاماً يستحق الإقبال ..

فهو لهذا يصيب منها القليل ويفعل عن الكثير ، ويزهد فيما بين يديه ويتشوق لما بعده .

حتى إذا أشفق أن ينهض جائعاً تناول مما بين يديه في اعتدال فأمن الجوع وأمن فوات المقبل الموعود .

* * *

وكذلك كنت في العشرين وأصبحت في الأربعين ، فكنت أرى كل متعة حقيقة زهيدة شوقاً إلى ما بعدها وارتباكاً في قيمتها ، وأن تكون هي كل ما تزلفه الحياة لأنَّها ، ثم أخذت نفسى بأن أتناول ما على المائدة تناول رجل لا يفوت الحاضر ولا يحب أن يفوته المستقبل ، والعجيب أنَّى كنت متنطساً عازفاً عن الدنيا حين كانت عندي كلها مادة وحيوانية ، وأنَّى أفللت من التنفس والعزوف

حين رأيت في الدنيا شيئاً غير المادة والحيوانية . . وإنما يبدو هذا عجيباً في الظاهر الذي نراه لأول نظرة دون الباطن الذي نراه بعد إنعام النظر ، فإن العزوف الأول كان عزوف عاشق ساخط يطلب من الحياة الكثير ، فإن لم يأخذه أ NSF من القليل . . ومن طلب صاحبته كلها لم يقنع منها بمنفاه ما تعطيه ! . . فالفرق ظاهر بين هذه العلاقة وعلاقة العشرة الهينة إلى تقوم على رأي بشار :

إذَا تَلِمْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرْأَةً عَلَى الْقَدْنَى ظَمِئْتَ وَأَيْ النَّاسِ تَصْفُو مَسَارِيهِ

* * *

وبعد فما النصيحة التي ينصح بها رجل في الأربعين للشباب الناشئين ؟ أحسب أن الشيوخ أولى مني بنصيحة نافعة في هذا المقام ، وتلك هي أن يجتنبوا اللجاج في النصح للشباب الناشئين لأنه أضيق شيء عندهم ولا لوم عليهم . إذ ليس في وسع الشاب أن يعيش في عمرين مختلفين ولا في وسعه أن يجمع بين حياة المحن وحياة غير المحن ، كائناً ما كان نصيبه من اليقظة والذكاء . ولو كانت النصيحة تغنى عن التجربة كل الغنى ، وكانت الحياة عبئاً ضائعاً، ولا استطاع الفتى في العشرين أن يعلم ما قد علم الشيخ في الستين أو الثمانين . فالشيخ الذي يحاول أن يلقن الشاب الناشئ حكمه الشيخوخة كالبساتين الذي يحاول أن يغرس نبات الشمال في حرارة خط الاستواء ، فهذا وذاك على خطأ لا يليق بالمجربين .

* * *

إنما النصح أن توجه ذهن الفتى الناشئ إلى ناحية من الحياة توضحها له ما استطعت التوضيح ، فأنت تصوب النور أمام عينيه ، ولكنك لا تعطيه النظر ولا الرغبة في المسير ولا القدرة عليه ، وهذا هو مدى النصيحة المعقول ، من تعداد من المجربين فتجربته عبث ، وهو - قبل الناشئين - في حاجة إلى الناصحين !

••• وحى الخمسين •••

من كلمات «فيكتور هيجو» - على ما أذكر - أن الخمسين شيخوخة الشباب ، ولكنها شباب الشيخوخة .

وفي هذه الكلمة حقيقة أكثر من مجازها ، على خلاف كلمات هيجو التي يكثر فيها المجاز وتقلل الحقيقة ، ذهابا مع الجرس أو إيثار المحسن التشبيه ..

فدو الخمسين شاب بين الذين نيفوا على السبعين أو الثمانين ، يشعر بهذا كما يشعرون به وإن لم يقصدوه ويتعتمدوه . فإذا اجتمع مجلس من المجالس التي يختار لها الأعضاء ممن جاؤوا الأربعين ، كبعض المجالس النيابية وبعض المجتمع العلمية والأدبية ، رأيتمهم يتصرفون في التقدم والتأخير والإثمار بالراحة والرعاية ، تصرف الأبناء والأباء في الأدب والمعاملة وهم دون ذلك في السن بكثير ، ورأيت أبناء الخمسين وربما بدرت منهم «شيطنة» التلاميذ في معاملة الأساتذة الذين يوقرونهم ويحبونهم ، ولا يخلونهم من فلتات «الشيطنة» مع ذاك !

* * *

ولا حاجة بنا إلى إطالة التذكير بتلك الحقيقة الخالدة التي لا ينبغي أن تنسى في مقام ، ونعني بها أن المسألة اعتبارية إضافية في جميع الأعمار والعلاقات ، فما يصدق على الخمسين عند فريق من الناس ، قد يصدق على غيرهم وعلى الستين عند آخرين ، فإنما الكلام في هذه الأمور على الإجمال ، ولا يتأتى أن يساق الكلام فيها على التفصيل لكل فرد من الناس على حدة .

ومن الصور التي كانت شائعة في أوائل القرن الحاضر - ولا تُرى الآن كثيراً - صورة العمر الإنساني وأدواره من السنة الأولى إلى المائة ، فندر دكان حلاق دخلت إليه قبل ثلاثين سنة إلا كانت فيه هذه الصورة التي كان لكل زائر وقفه عندها يتبعين فيها مكانه من الدرج الصاعد أو الدرج الهابط ، وربما كان التفات الشيوخ إليها أكثر من التفات الصبية والشبان لأن الصبية والشبان واثقون من المكان في حاضرهم وبعد زمن طويل ، أو طويل على ما يحسبون ، ولكن الشيوخ لا يثقون من مكانهم على هذه الدرجات إلا إلى حين - فهم دائم التلفت إليه ، مخافة أن يضيع ! ..

فى تلك الصورة طفل مولود فى مهده ، ثم ولد فى العاشرة يعدو وراء طوقه ، ثم شاب فى العشرين يصاحب فتاة فى مثل عمره أو دون عمره بقليل ، ثم رجل فى الثلاثين معه امرأة تقاربه سنا وبينهما طفل أو طفلان ، ثم كهل فى الأربعين تمت له مظاهر السمة والقومة والقوام ، ثم يرتقى على قمة الدرج فى أوسطه شيخ فى الخمسين قد أدار ظهره إلى الدرج الصاعد وقد أدركه بعض الانحناء ، واستقبل بوجهه الدرج الهابط وقد تزايد انحناء الهابطين عليه درجة بعد درجة ، أو دركة بعد دركة ، حتى انتهوا إلى كرسى كمهد الطفل فى سنته الأولى ، يجلس عليه شيخ فان فى المائة ، قد نكس رأسه ، لا يلتفت إلى الأمام ولا إلى وراء ..

تمثيل حسن لأدوار العمر الإنساني على كل درجة من درجاته مع استحضار الفوارق النسبية بين إنسان وإنسان .

ويصح على هذا التصوير أن تكون الخمسون أعلى الذروة في درجات العمر كله ، قبلها الصعود وبعدها الهبوط ، وهي بينهما في مكان الاعتدال والاستواء .

ومن المحقق أو الراجح في جميع الأعمار ، أن الخمسين نهاية الكسب أو التحصيل من الحياة ، ليس بعدها ما يأخذنـه الإنسان من الدنيا ويضيفه إلى تكوين عقله وجسمه ، ولكنه لا يزال بعدها يعطي الكثير ويفقد الكثير ، إذاناً بفقد كل شيء يأخذنـه التراب من التراب .

إذا قيل على هذا التعبير أن الثلاثين سن التحصيل ، وأن الأربعين سن الجمع والثروة ، فالذى يقال في الخمسين أنها سن التصفية و«عمل الحساب» ليعرف الإنسان نصيبه من الربح ونصيبه من الخسارة .

وهي من ثم سن اغتناء وليس سن افتقار ، وإن جاز لـى أن أقيس على نفسي فهى لا تقل غنى عن الأربعين ، وقد تفوقها غنى من وجوده .

تفوقها غنى لأن التدبير فيها أفضل ، لا لأن الثروة فيها أعظم ، أو تفوقها غنى لأن الحساب فيها أضبـط لا لأن الثروة فيها تزداد على التوالى كلما ازدادت السنون ، إذ هـى في الواقع كما أسلفنا تـكـفـ عن الازدياد في جملة المـكـاسبـ من خـيرـاتـ الحياة .

فالرجل الذى ضبط حسابـه - بعد التصفـيةـ الكاملـةـ - قد يستفيد من مائـةـ دينـارـ ما ليس مستـفـيدـهـ غيرـهـ من مائـتينـ قبلـ ضـبـطـ الحـساـبـ ، والـرـجـلـ الذى عـرـفـ مـالـهـ وما عـلـيـهـ يـعـرـفـ علىـ التـحـقـيقـ أـيـنـ يـضـعـ مـالـهـ وأـيـنـ يـمـسـكـ عنـ الإنـفـاقـ ، وتـلـكـ مـعـرـفـةـ لا يـحـيـطـ بـهـ الرـجـلـ الذى عـنـدـهـ مـالـكـثـيرـ ، ولكـنهـ قدـ يـنـفـقـ منـ دـيـونـ وـيـكـفـ عنـ النـفـقـةـ منـ الـمـلـكـ المـضـمـونـ ..

هذه هي فضيلة الخمسين على أدوار العمر السابقة : فضيلة المال المحسوب والنفقة المقدورة ، والثروة التي لا تزيد يوماً بعد يوم ولكنها لا تضيع في غير طائل ، ولا تذهب في غير المفيد .

ووحي الخمسين هي وحى هذه الفضيلة ، أو هي وحى الملك الخالص لا يعتمد على الاستعارة ولا يقوى على الإسراف في انتظار التعويض من الوارد الجديد ..

إذ الوارد الجديد قليل ..

إذا جاء الوارد الجديد فقلما يتسع الوقت لتصريفه وإعادة تثميره ، وقلما يكون له موضع إلا أن يضاف إلى ما قبله ، كل باب إلى بابه وكل نظير إلى نظيره ..
ووحي الغنى المحسوب ، وليس هو بوحي الغنى بغير حساب ، أو هو التدبير وليس هو بوحي التجميع والازدياد .

ذلك هو وحى الخمسين الذي يرتفع إلى ذروة السلم ، ثم يقف حيث لا يطول الوقوف .

ومن أمثلة كثيرة بين أصحاب الورى - وأصحاب الورى هنا هم المنتجون في عالم الذوق والتفكير - نرى أن ثمرات الخمسين بين الفلسفه والشعراء وأرباب الفنون تضارع خير الثمرات في سائر الأعمار ..

ولا يبدو هذا عجياً في الكلام على الفلسفه والمذاهب الفكرية ، لأن الفلسفه حكمة ، والحكمة مقرونة في الأذهان بالشيخوخة وتقدير العمر ، وزيادة التجربة والروية .

ولكنه يبدو عجياً حين نتكلم عن الشعر والفنون ، لأن الشعر والفنون جمال ، والجمال مقررون في الأذهان بالشباب وصحوة العمر ، وقد يكون مقروراً إلى حد كبير بالغرارة وقلة النصيب من التجربة والروية .
وهنا لهم يجب الالتفات إليه .

إذ يجب التفريق بين الجمال وتقدير الجمال ، ويجب التفريق بين تقدير الجمال والتعبير عن تقديره .

ومهما يختلف المختلفون في جمال الشباب وجمال كل عمر من الأعمار فالحقيقة التي لا خلاف فيها أن تقدير الجمال لا ينتهي بانتهاء الشباب ، وأن القدرة على التعبير لا تنقص بنقصان الشباب ، بل لعلها تزيد .

ومهما يقل القائلون عن استطاعة المتعة بالحياة ، فالحقيقة التي ليس فيها قوله أن المعدة التي تهضم أعسر المأكولات ليست هي المعدة التي تتذوق أحسن المأكولات ، لأن الخبز والملح لذيدان عند من يهضم ويستخلص من الطعام القليل أكثر ما فيه من غذاء ، ولكن الاختيار الأنثيق إنما يكون لمن لا مناص له من الاختيار ، فلا يستهويه إلا ما كمل أو قارب الكمال .

إذا كانت الأعمار الأولى أوفر حظا من متعة الحياة ، فالأعمار التالية أوفر حظا من التمييز بينها والشعور بمزاياها والعرفان بما لكل منها من قيمة وحظوة ، وهذه هي الحقيقة التي تزيل الوهم العارض الذي أشرنا إليه ، وهو الوهم الذي يلقى في روعنا أن وحي الأربعين أو وحي الخمسين لا يوحى جمالا لأن الجمال مقرن بالشباب .

إن جمال الجوهرة غير تقويم الجوهرة ، وغير تمييز الجوهرة ، وغير السرور بالجوهرة لمن يقتنيها ، وهذا هو بعينه ما يقال عن جوهرة الحياة فيما شئت من الأعمار وما شئت من الأقدار .

ولو اتسع المجال لأتينا هنا بالأمثلة من عشرات الدواوين الشعرية وعشرات التحف الفنية ، وقابلنا بين ما نتج منها في الثلاثين وما نتج في الأربعين أو الخمسين أو الستين ، فإننا لخليقون أن نعلم بالمقابلة والمضاهاة أن المزايا تتعادل وتتفاضل فلا تنحصر المزايا كلها ولا الفضائل كلها في عهد من عهود الحياة ، ولا تزال لكل سن فضيلة تعوضها فضيلة مثلها في سن أخرى ، فإذا توفرت حماسة الشعور في بواعيره فقد تقابلها المعرفة بأنواع الشعور بعد فوات البواكير أو تقابلها القدرة على التعبير والالتفات إلى الفروق ، أو تقابلها تصفيية تأخذ الخلاصة بعد أن تجمع لديها الكثير من الأزواج .

وفي الشرق تبكر الشيخوخة أحيانا كما يبكر الشباب فيسرع الذيول كما تسرع النضارة ، ويكثر النبوغ قبل الأوان كما يكثر الجمود قبل الأوان ، ويندر بين أدبائنا من أتي بالفلق بعد الخمسين كما أفلق أناس من أدباء الغرب الذين جاوزوا السبعين أو الثمانين ، ولكننا إذا رجعنا إلى أدبائنا الذين بلغوا تلك السن ألفينا لهم حسنات يعيشون بها في عالم الخلود يقرنها الناقد بأجمل حسناتهم المأثورة في أيامهم الأولى ، وكلها ذات سمعة واحدة لا تعدوها وهي سمعة الشروة المملوكة والكنز المحسوب ..

* * *

••• وحن السنين •••

إحياء ذكرى الميلاد - أو عيد الميلاد - كما يسميه بعضهم عادة جميلة لسبب واحد على الأقل ، وهو أن الاحتفال بهذا اليوم فرصة سنوية لاجتماع الأهل والإخوان في مودة وصفاء وإيمان بالإقبال على الحياة ، لأنهم يشعرون جميعاً بأن دخول الحياة «مناسبة سعيدة» تستحق التذكر والاحتفال ..

ولكننى ، فيما عدا ذلك ، لا أفهم في الواقع معنى لهذا الاحتفال بيوم الميلاد أو بعيد الميلاد ..

هل هو احتفال بانقضاء ما مضى من العمر ؟ .. أو هو احتفال بالسنة القادمة التي لا نعلم كيف تكون ؟ .. وهل لا يكفيانا الاحتفال برؤوس السنوات إذا كان المقصود هو الاحتفال بالمستقبل المجهول ؟ ..

* * *

لم أتعود لزاماً أن أحفل بيوم ميلادي ، ولم يعلم أحد مني أنا ببلوغى الستين في هذه السنة .. ولكن أصحابي الذين يعرفون تاريخ ميلادي علموا بذلك ، وتفضل بعضهم فكتب في الصحف مهنتها ومحببياً لهذه المناسبة .. فلم أفرغ بعد ذلك من الأسئلة التي ساقتها إلى هذه المناسبة السعيدة .. ولم أزل أتلقي هذه الأسئلة التي تدل - أو معظمها - على فكرة واحدة عند سائلها ، وهي أن الستين «نقطة تحول» في تاريخ الإنسان يكون له من بعدها شأن غير شأنه قبل بلوغها .. ولا أدرى كيف ؟ ..

إن الحياة ليست كالساعة أو الخريطة المرسومة بخطوط للعرض والطول ، وليس كل خط من هذه الخطوط المعروضة فيها فاصلاً حاسماً بين عمرين .. والستون من ناحية أخرى رقم ثابت لا يتغير .. وأين الرقم الثابت الذي لا يتغير من أطوار الحياة التي هي حركة متغيرة على الدوام في كل حي من الأحياء ؟ .. وأين الرقم الثابت الذي لا يتغير من أطوار الحياة في الأحياء المتعددين الذين يحسبون بالملائين ؟ ..

* * *

لقد سمعنا من زميلنا الأديب الظريف الشيخ عبد العزيز البشري - رحمه الله - نكتة قالها لعضو جليل من أعضاء المجمع اللغوى حين أحيل على المعاش ، فقال له متبسطاً : «إنك لأصغر من بلغ الستين ! ..» .

وكانت هذه النكتة تروى على أنها مزاح تجوز فيه المفارقات ولا تستلزم فيه الدقة فى التعبير .. ولكن الواقع أنها جد دقيق وليس بالمزاح المرسل على عواهنه ، لأن الستين بالنسبة إلى إنسان قد تكون «أصغر» من الخمسين بالنسبة إلى آخر ، وأكبر من السبعين بالنسبة إلى غيره ! ..

والمرجع فى ذلك إلى العلم والتجربة المعهودة بين الناس ، فإن علماء التاريخ الطبيعي يقررون نسبة بين سن النضج وعمر الحى من الأدميين وغير الأدميين : بعضهم يقول إن عمر الحى ثمانية أضعاف السن التى يتم فيها نموه ونضجه ، وبعضهم يقول سبعة أضعافه أو ستة أضعافه .. ولكنهم متتفقون على وجود النسبة بين أسنان النمو وبين أعمار الأحياء .

فلا غرابة على هذا أن يكون النمو مبكراً في الشيخوخة ، وأن يكون ابن الستين في هذا الإقليم أصغر من ابن الخمسين في ذلك الإقليم ، على حسب اختلاف الجو والمناخ ، وعلى حسب اختلاف أثرهما في تكوين الأجسام والأعضاء .

* * *

كذلك تختلف القدرة والعجز في الشيخوخة ، على حسب اختلاف الأعمال أو الأعباء التي ينهض بها الإنسان .. وقبل أن نقول مثلاً إن الشيخوخة أعجزته عن عمله ، ينبغي أن نعرف أولاً ما هو هذا العمل الذي أعجزته عنه ؟ ..

فالرجل الذي يجاهد بأعضائه وعضلاته غير الرجل الذي يجاهد بتفكيره وعزيمته . أو الرجل الذي يجاهد بحسه وشعوره ..

بل تختلف المجاهدة بالتفكير والعزم على حسب الاختلاف في نوع التفكير ونوع العزيمة .

فمصطفى كامل قد استطاع أن يثابر على القتال وأصلعه مكسورة ، وسعد زغلول قد عاش برصاصة في صدره وهو إلى جانب ذلك مصاب بالربو وبغيره من الأدواء ..

إن الزعامة بنوعيها هذين ، تتطلب هذه القوة الخارقة في تكوين البنية الجسدية ..

ولكن هل يحتاج إلى مثل هذه البنية رجل يقوم عمله الأكبر على الدراسة والبحث والاطلاع ! ..

على هذا النحو من الاختلاف ، يتغير الحكم على أبناء الستين أو أبناء أية سن من أسنان الحياة ..

ثم هو لا يتغير من سنة إلى سنة ، كأنما تقع السنون في الحياة موقع الخطوط على الخرائط وال ساعات ..

ولكنه يتغير من فترة إلى فترة ، يحسبها كل إنسان بما يتفق له من التجربة والاختبار ..

* * *

ومن هنا أعود فأقول : إن «الستين» لم تكن في حياتي نقطة تحول بين عهدين أو بين عمرين .. ولكنني إذا نظرت إلى الفترة التي تمت بها الستون وال فترة التي تمت بها الخمسون مثلا ، فهناك بعض الاختلاف بين الفترتين ..

وهو فيما يخيل إلى اختلاف في التلوين أو في التمكين ، وليس اختلافاً في جوهر الموضوع ومادة القدرة والشعور .

ومثال ذلك قد زادت قدرتي على البحث والدراسة ونقصت قدرتي على مواصلة الكتابة القراءة ، ولكنني عوضت هذا النقص بازدياد المرانة على الكتابة وازدياد الخبرة بالتقاط أصعب الفوائد من أيسر القراءات ..

زادت حماستي لما أعتقد من الآراء ، ونقصت حدتي في المخاصمة عليها ، لقلة المبالغة بإقناع من لا يذعن للرأى والدليل ..

لم تنقص رغبتي في طيبات الحياة ، ولكنني اكتسبت صبراً على ترك ما لا بد من تركه ، وعلماً بما يفيد من السعي في تحصيل المطالب وما لا يفيد ..

* * *

وارتفع عندي مقياس الجمال ، فما كان يعجبني قبل عشر سنين لا يعجبني الآن ، فلست أشتته منه أكثر مما أطيق ..

كنت قبل عشرين سنة كما أنا الآن .. قليل الرجاء في خير بنى الإنسان ، وكنت أقول قبل عشرين سنة :

بَحَسِّبِيْ مِنْ أَبْنَاءِ آدَمِ إِنْ صَفَا لِي الْعَيْشُ يَوْمًا أَنْ تَكُفَّ أَذَاهَا

ولكن فلسفة الشعور هنا قد تحولت إلى فلسفة العمل ، ولا أطيل في شرح هذا الفارق بين الفلسفتين ، ولكنني أبينه بمثل الأمثلة العلمية يتبين عن الشروح والنظريات ..

كنت أقول لمن معى في مسكنى إذا نمت أو تفرغت للكتابة : لا توقظوني ولا تقاطعني إذا دق التليفون أو جاءكم زائر .. ما عدا هذا الاستثناء ، وذاك الاستثناء ، وذلك الاستثناء ، أما اليوم فلا استثناء على الإطلاق .

كنت أحب الحياة كعشيقه تخدعنى بزینتها الصادقة وزینتها الكاذبة ، فأصبحت أحبها كزوجة أعرف عيوبها وتعرف عيوبى ، ولا أجهل ما تبديه من زينة وما تخفيه من قبح ودمامه ..

وذلك فيما أرى نماذج كافية لبيان الفوارق بين الفترتين .. فترة الستين ، وفترة الخمسين أو ما قبلها من أرقام العقود ! ..

وفي الجملة يتبيّن لي من التجربة والاختبار أن المشتغلين بالأعمال الفكرية لا نهیض السن من قدرتهم كما تهیض من قدرة العاملين بالعضلات وما يشبه العضلات ..

إن السن مكسب للعاملين بالقلم ، أو هي إلى المكسب أقرب منها إلى الخسارة ..

* * *

ويسأل سائل : «أين خرف الشيخوخة؟ ..» .

فيجيب قبلى مجibion كثيرون : «إن الذين حسبوا أن الخرف والشيخوخة حالتان متلازمتان ، بقية من بقايا القرون الغابرة ، لأن العلم الحديث يعلم أن خرف الشيخوخة مرض من أمراض البنية وليس بعرض من أمراض الأسنان والأعمار .. فمن نجا من جراثيمه نجا من أمراضه كما ينجو من الأمراض وكما ينجو من الجراثيم» .

* * *

٠٠٠ وحن السبعين ..

في الشباب نأخذ الحياة «مقايضة» لأنها تطلبنا كما نطلبها .. أو نبذل فيها أضعاف ثمنها ، لأننا نجهل حقيقتها ونملك ثروة الشعور التي تساعدنا على الإسراف ، والبذل الجزاف .

وفي الشيخوخة نأخذ كل شيء بشمنه ، ولا نعطيه فوق حقه ، لأننا فقراء لا نملك الثروة التي نتفقها كما نريد ، وعلى الرغم منها نتفقها كما نستطيع .. لا تسل أي الحالتين أفضل و«أعقل» فلا اتفاق على جواب لهذا السؤال .. ولكنك إذا سألت : أيهما أحب وأجمل ، فلا خلاف على الجواب : بين الشباب والشيخوخة فروق كثيرة ، فما من حالتين من أحوال هذه الدنيا بينهما من الفروق أكثر مما بين هاتين الحالتين .

ولكن الفارق الأكبر بينهما أن الشباب حالة تمناها على علالتها ، وأن الشيخوخة حالة نرضها أو لا نرضها على حسب الظروف !

* * *

نتمنى الشباب على علالته ، ونتمنى جهله كما نتمنى هداه ، إن كان له هدى أو هداية مع هواه ! ..

بل نحن نتمنى جهله قبل هداه ..

لأن جهله هو الذي يعطينا الجديد من مراتبه وأسراره ، وجهله هو الذي يعطينا أول قطفة من ثماره وأزهاره ، وجهله هو الذي يشوقنا إلى غده في كل يوم من أيامه ، ويجعل كل يوم من هذه الأيام كأنه يوم «كولمبس» في بحر الظلمات ، أو يومه بعد ذلك في العالم الجديد .

والمرء يتمنى ما يجهل ، ولا يتمنى ما يعرف ، ولو عرفه لما تمناه ، ولا وافق منه ، لهذا نتمنى الشباب على العلات ! ..

ولا يضيرنا أن نكون من الجهلاء ! ..

فهل نتمنى الحياة في السبعين ؟ ..

كلا ولا كلام .. ولا نتمناها في السبعين بل نتمناها في العشرين وفي الثلاثين ونتمناها كلما جهلناها أو عرفناها على الفتن لا على التحقيق .

أما في السبعين - وأنت في السبعين - فالتمني كلمة كبيرة عليها ، وعلى كل شيء تعرفه قبلها وبعدها .

التمني كلمة كبيرة جدا على المقام أو على المناسبة ، ولا بد لها من تواضع كثير قبلطمأنينة والاستقرار ، فحسبها أن تهبط من هذه العلياء إلى الوادي المطمئن بين القمتين !

* * *

حسبها أن تهبط إلى وادي الرضا والقبول ، فقد يكون الرضى بها غاية ما تستحقه من صاحبها ، على اضطرار وعلى اختيار !

هل ترضى الحياة في السبعين ؟ .. نعم .. فيها ما نرتضيه ولا ريب ، وفيها البديل الصالح أحياناً مما فقدناه في العشرين ولم نجده في الثلاثين ، ومما فقدناه في الثلاثين ولم نجده في الأربعين ومما فقدناه وفقدناه في كل سن لا نجده .. فيها بديل بالرضى المعلوم عن الأمل الموهوم ، وقد يكون الرضى بما تعلم بديلاً صالحًا من كل ما نرجو ونتوهم ، ثم تندم عليه ولات مندم !

نحمد في السبعين أنها تعطينا الرغبة على قدر الطاقة ، وأنها تعطينا الرغبة ومعها لجامها الصغير ، تشد عليه إذا خطر لها أنها في حاجة إليه .

ونحمد منها أنها تعودنا الاستغناء عمما يلزم وما لا يلزم .. فليس في السبعين من ضروري لا غنى عنه ، حتى الحياة ، وحتى المجد ، حتى الخلود ! ..

ونحمد منها أنها تعوضنا بالخبرة عن القوة ، بل تعوضنا بالخبرة عن الوقت الثمين وهو مادة الحياة .

إذا احتاجنا في العشرين إلى عشرين سنة لنعرف إنساناً نصاحبه ، فحسبنا في السبعين عشرون ساعة لنعرف ذلك الإنسان غاية المعرفة التي تناهى للإنسان ، بل حسبنا كلمة نسمعها منه أو نسمعها عنه لنستفنى بها عن الزمن الطويل في عشرته ، وندخله في زمرة السواد التي تشمل كل بني آدم وحواء ، كما قال أبو العلاء :

وَمَا الْعُلَمَاءُ وَالجُهَّالُ إِلَّا قَرِيبٌ حِينَ تَنْظُرُ عَنْ قَرِيبٍ

وإذا كان ابن السبعين ممن يقرأون ويكتبون فحسبه عشرون سطراً من كتاب ليعرف ما هو الكتاب في الجوهر والباب ، ويعود إلى ما شاء من أبوابه أو يقنع منه إذا شاء بهذا الباب بعد ذلك الباب .

وفي السبعين جديدها الذى لا تشهيه - الأنفس - ولكنه جديد يذهب بسامته التكرار ، فابن الأربعين يتبدل نظاماً للمعيشة أو نظاماً للصحة سنوات بعد سنوات .

إذا تغير نظام المعيشة عنده فى الثلاثين لم يسأل عن نظام جديد قبل الأربعين أو الخمسين ، وإذا تغير نظام المعيشة عنده فى هذه السن فعله لا يسأل عن غيره قبل الخامسة والخمسين أو السادسة والخمسين ، أو الستين ..

أما نظام الستين فما هو صالح للحادية والستين إلا بشق الأنفس وتعب الرأس وجهد الطب والصيدلة ، ودع عنك الخامسة والستين والسبعين وما فوق السبعين . ولقد سئلت قبل عشر سنين عن شعورى بالحياة فى الستين ، فقلت : إنه شعور الحب لامرأ ، ولكنه حب غير حب فى ريعان الشباب ، لأن الحياة لا تخدع الشيخ فى الستين بالأبيض والأحمر والكحل والطلاء ، ولا تطمع منه فى حب كحب المعشوقة الفاتنة تخلبه بزینتها وتروعه بما تبديه وما تخفيه ، وارتبطت به وارتبط بها على الخير والشر وعلى الحسنة والسيئة وعلى الوئام والخصام ، وليست بالمشوقة التى تتحبب إليه ويتحبب إليها ، وتلقاه ويلقاها على نمط من الإعجاب لا يخلو من التمثيل ! ..

فإن يكن لا بد من تشبيه الفارق بين مكان ابن السبعين ومكان ابن العشرين من الحياة .. فهو على ما أحسب مكان واحد عند المائدة المشتهاء ..

وإنما الفارق فى «القابلية» أو اشتقاء الصحف والمصنوف ، فلا نسيغ فى السبعين ما كنا نسيغه فى العشرين ، ولا ننتفع اليوم بما كان ينفعنا بالأمس ، ولكننى لو تخيلت الحياة طاهياً يبسط أمامنا صحفه وصنوفه ، لتخيلته مبتهمجاً متھلاً كلما مددت يدى إلى صنف من صنوفه التى يبسطها على المائدة لضيوفه .. فلا فخر للطاهى فى نهم الجائع الذى يلتهم كل شيء ولا يعزف عن شيء وله الفخر كل الفخر فى كل لقمة يتناولها الشبعان أو المتردد المصدوف .

ومن سألى : هل تبادل ؟ .. هل تساوم على الزيادة والنقص فى البدل ؟ .. هل تعطى وتأخذ وأنت مفتوح العينين فى هذه الصفقة الرابحة ؟ .. وهل تسميها «صفقة رابحة» إذا أعطيت السبعين وأخذت العشرين والأربعين ؟ ..

فلا يحسن السائل أنه يسأل عن تحصيل حاصل ، ولا يعجلن بالجواب لأنه يحاله من فصل الخطاب .

كلا .. لا أبادر ، ولا أقبل المساومة بغير معارضه على الشروط ولن أقبل كل
ما في السبعين .

يفتح الله .. فلما الحياة «على السكين» وإما لا حياة ، ولن تجدني يوماً أحضر
الناس على حياة . فما هي بشيء في حسابي إذا تجردت أمامي من الألف
واللام ، وحباها هي من حياة إذا علمت أنها «الحياة» للعهد والتعريف ..

وسألفى من العشرين والأربعين كل ما سوغر لى ما لا يسوغ ، وكل ما هون
عندى مالا يهون ، إما في باطل لا يتحقق ولا خير فيه إذا تحقق أو مجاملة لمن
تستر لهم جهالتهم ولا يسترونها ، ومن يسترون كل فضيلة ولا يكادون يرثونها ..

وسأبقى معى في السبعين كل ما يعين النفس على هجران الحياة إذا وجب أن
تهجر ، وهجرانها واجب يوم تستيقظي وأنا أسف للبقاء فيها .

* * *

ولئن تمنيت شيئاً بعد السبعين ، لأن تمنين أن أعيش فلا أعيش عبثاً ولا فضولاً
 وأن أعيش كما عشت بحمد الله على الدوام ، أحقداً وأحقاباً إلى الأمام ، فيقول
الناس اليوم ما كنت أقوله قبل عشرات الأعوام ، فذلك هو العمر الذي أحتسبه
سلفاً وأعيشه قبل حينه ، فلا يكلفني انتظاره إلى الختام .

* * *

••• اعترافاتى •••

دارت عادة الاعترافات دورة تامة منذ وجدت قبل أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، إلى أن دخلت في نطاق الطب النفسي والجسدي قبل نحو ثلاثين أو أربعين سنة^(١) .

وقد اشتهرت الاعترافات في الهياكل على عهد الحضارة البابلية قبل ميلاد السيد المسيح بعدهة قرون ، وكانت في حقيقتها ضرباً من العلاج الجثماني الذي يتطلبه المريض من الطبيب ، لأن البابليين كانوا يعتقدون أن المرض والبلاء على اختلافه عقوبة الهيبة يقتضي بها الأرباب من أصحاب الذنوب والخطايا ، وأن الذي يبوج بخطيبته ويندم عليها يشفى من دائنه بوساطة الكهان والأحبار ، فكان الاعتراف بهذه المثابة ضرباً من الاستشفاء ، كعلاج الأمراض بالطب في العصر الحديث .

وهكذا عاد كما بدأ ، في أوائل القرن العشرين ، فشاع الكلام عن الكبت وعن العقد النفسية وعن أثر التنفيس عنها بالاعتراف والكشف في شفاء الأبدان والآفات ، فتمت الدائرة في حلقة مفرغة من أيام البابليين إلى أيامنا هذه من القرن العشرين .

ولن يكون الاعتراف اعترافاً في رأي بعضهم ، إلا إذا كان اعترافاً بأمر يغلب على الناس إنكاره وكتمانه ، فلا يفهمون من الاعتراف إلا أنه إعلان لخبائث في النفس تشين صاحبها وتدعوه إلى إخفائها .

لكنها على التحقيق مغالطة من مغالطات «العرف» التي تواضع عليها أبناء آدم وحواء على سنة الكذب والرياء ، فهم جميعاً سواسية في الخطايا والعيوب التي يخفونها ولا يعترفون بها . ومتى صدق عليهم قول السيد المسيح : «من لم يخطئ منكم فليرمها بحجر» فلا حاجة بهم إلى الحجارة ولا إلى الرجم ولا معنى لخجل قوم وشموخ آخرين ، وما لم يكن الإنسان مجرماً غارقاً في الإجرام أو نذلاً معرقاً في الخسة فعيوبه وخططياته «قاسم مشترك أعظم» بينه وبين الأدميين جميعاً من قبل الطوفان إلى نهاية الزمان .

وحسبي اعترافاً في هذا الصدد أن أحداً من الناس لم يسلم من عيوبه وخططياته فهل في وسعهم جميعاً أن يدعوا مساواتي في جميع فضائلى ومزاياتي؟ ..

(١) أثينا تسجيل هذا الفصل هنا مع ما في بعضه منه تكرار لبعض ما قضى .. لأن هذا التكرار إضافة معلومات جديدة عن صاحب الكتاب .

من شاء أن يدعى فليدع ما يشاء ، ولكنني لا أرى من الإنصاف أن أستهدف للحجارة
وعندى حجارة مثلها أقابل بها كل حجر بعشرة من أمثاله حين أريد أو حين أستطيع ..
وأنا بحمد الله لا أريد ولا أستطيع ، فلتكن حجارتي محفوظة في محجرها
الأمين ، ول يكن اعترافي نوعاً من التعريف الذي يفيد . أما تبادل الحجارة طرداً
وعكساً وطراً فهو عبث لا يعيشه راجم ولا مرجم ، وهو كذلك لا يفيد .

أعترف بالخصائص النفسية التي تدل الناس على بعض الحقائق في الطبيعة
الإنسانية وذلك ولا ريب أجدى من الاعتراف بالعيوب والخطايا التي يتشاربه فيها
أبناء آدم وحواء على السواء أو على مقربة .

وأول ما أعترف به أننى مطبوع على الانطواء وأنتى مع هذا حال بحمد الله من
العقد النفسية الشائعة بين الأكثرين من أندادى فى السن ونظرائى فى العمل
وشركائى فى العصر الذى نعيش فيه ..

ولقد ورثت طبيعة الانطواء عن أبي وأمى ، فلا أمل الوحدة وإن طالت بغير قراءة
ولا تسلية ، ولا أزال أقضى الأيام على حدة حيث يتغذر على الآخرين قضاء
الساعات واللحظات .

كيف يتفق هذا ؟ .. كيف يتفق الانطواء على النفس والخلو من العقد النفسية
أو من الأسرار المكبوتة في اصطلاح النفسيين المحدثين ؟ .

هذا محل للاعتراف الذي قلنا إنه خير وأجدى من تبادل الحجارة ، فإن تفسير ما
أعرفه من عادات طبيعى خلائق أن يصحح الأوهام عن معنى الانطواء ومعنى
العقد النفسية .

فليس كل انطواء كبتاً للنفس ، أو كتماناً لسر من الأسرار الخفية ، وهناك فارق
كبير بين السكوت خشية من الكلام والسكوت لأنك لا ترى حاجة إلى الكلام .
فإذا سكت الإنسان خاشياً فهناك عقدة نفسية ، وإذا سكت الإنسان لأنه لا
يشعر بالحاجة إلى الإفشاء والتصريح فلا عقدة هناك ولا كتمان .

وقد تعودت أن أقول ما أريد حين أريد ، فلا أعكر على العزلة كبتاً ولا حذراً ،
ولا أحس التناقض بين الانطواء والاستراحة من آفات الكبت والعقد النفسية .

* * *

ويغلب على المنطويين أنهم لا يألفون الناس بسهولة ، وأعترف بأننى واحد من
المنطويين في هذه الخصلة ..

ولكننى أعترف كذلك بأن الألفة التى تصح بينى وبين أحد من الإخوان لا تنتفع ولا تتعرض للقطيعة باختيارى ، وقد يتعدى الأمر ألفة الإخوان إلى ألفة غيرهم من الأحياء والأشياء . فالحلاق الذى عرفته منذ ثلاثين سنة هو الحلاق الذى أعرفه اليوم ، والطاهى الذى عمل عندي فى سنة خمس وعشرين أو نحوها هو الطاهى الذى يعمل عندي فى سنة خمسين أو إحدى وخمسين ، فهو مسكنى منذ أربع وعشرين سنة ، ولا أحسبني أسكن غيره ما دمت تسعنى سكانه .

وأعترف إلى جانب هذا بأننى لا أعرف التوسط بين الحب والكراهية ولا أريد أن أعرفه ، وشعارى فى ذلك هو شعار أبي إسحاق الصولى الذى قال :

خَلَ النَّفَاقَ لِأَهْلِهِ
وَعَلَيْكَ فَالْتَّمِسُ الطَّرِيقَا
وَارْبَأْ بِنَفْسِكَ أَنْ تَرَى
إِلَّا عَدُواً أَوْ صَدِيقًا

فأنا أفهم أن يقبل الإنسان نصف صدقة إذا كان مضطرا إليها ، وأفهم أن يقبل الإنسان نصف عداوة إذا كان خائفا منها ، ولكنه إذا وجد الصدقة كاملة فلماذا يجمع بينها وبين نصف الصدقة ؟ .. وإذا استوجب العداوة كاملة فلماذا يتقيها ويداريها !! ..

إن طائفة من الخلق يستبقون العلاقة بينهم مع انقطاع المودة طلباً للدوار المنفعة ، فهؤلاء يمثلون ويتجرون . ولا ضير من التمثيل فنا ولا من التجارة عملا ، ولكن الفسir كل الفسir من التمثيل فى الضمير والإتجار بالعاطفة ، ففى هذا من المعابة ما يعب على المتاجرة بالأجسام والشهوات .

* * *

وعندى صفة يسمىها الشائدون عناداً وتشبهاً ويسمىها المحبون عزيمة وصدق إرادة ..

أعترف بأنهم مصيرون فى جانب ، مخطئون فى جانب .. فقد يبلغ من ضعف إرادتى أحياناً أن أحتم على نفسي كأنها شخص آخر أطلعه على بعض مرادي وأخفى عنه بعضه . فإذا اعترضت الإقلاع عن التدخين مثلاً قلت لنفسي : اتركيه أسبوعاً وانظري ما يكون بعد أسبوع . أقول لها هذا وأنا أنتوى أن أتركه أبداً فلا أقطع بهذا الترك دفعه واحدة . ثم أعود بعد أسبوع فأقول لها : إن شيئاً تقدرين على تركه أسبوعاً لا حاجة إلى احتماله على مضمض ولا حكمة في العودة إليه .

أعترف بهذا وأعترف معه بأنني في المواقف الحاسمة أملأ على تلك النفس بعينها شروطاً كشرط القائد الذي لا يرحم : العدو أمامك والبحر وراءك .. وافعل ما تشائين ..

ومن لطف الله بالعباد أن هذه المواقف الحاسمة لم تكرر في حياتي أكثر من خمس مرات أو ست مرات ، ولم أندم قط بحمد الله مرة في جميع هذه المرات .

أعترف بأنني من الزاهدين في البذخ والحطام ، ولكنني أعترف بأنه زهد لا فضل لي فيه ، لأنه هيكلفني مشقة المغالبة والمقاومة ، فليس في النفس هو أغالبه وأقاومه ، وإنما ألوذ في هذه العصمة بسند واحد : وهو سهولة احتقاري للبازخين ومن ينظر إليهم نظرة الإكبار والإعجاب فهو لاء وهؤلاء أهون عندي من الهباء .

وأعترف بأن عنان النفس يفلت من يدي في حالات كثيرة ، ولكنها حالات أراجعها أحياناً فلا أسف لإفلاته ، بل أرى أن ضرر الإطلاق أخف من ضرر الشد والكم ومثنى العنان .

أما اعتنافي في ميدان الأدب فمنها ما يخصني ومنها ما يعم القراء معى .. وأول هذه الاعترافات أنتي أقرأ لنفسي وأقرأ أحياناً في موضوعات لم أكتب فيها للقراء حرفاً واحداً حتى الساعة ..

ولا أطلب أحداً بجميل لأن جميلى لنفسي سابق لكل جميل ، ولكنني أعترف كذلك بأنني لا أطيق التواضع الكاذب ، الذي هو رباء في المتكلم وغفلة في السامع . فإذا بخسني الباخسون حقاً فدعواي إذن أمام ضميري لا يزعزعها إجماع الخافقين ..

أعترف بأنني أحب الشهرة والخلود ، ولكنني أعترف كذلك بأنني لا أطلبهما بشمن يهيض من كرامتي ، وأنني إذا أحسست أن إنساناً يمتن على "شهادة يبذلها أو شهادة يمنعها" فلا نصيب له عندي غير التحدى الذي يذهب به إلى الحائط .. ولتذهب الشهرة ولتذهب الخلود معها إلى الشيطان ..

ولقد تعبت كثيراً في تحصيل الأدب والثقافة ، ولكنني أعترف بعد هذا التعب كله بقصوري عن الغاية التي رسمتها أمامي في مقبل صبائ . فلم أبلغ بعد غاية الطريق ولا قريباً من غايته ، وإذا قدرت ما صبوبت إليه بمائة في المائة ، فالذي بلغته لا يتجاوز العشرين أو الثلاثين .

الفصل التاسع

—٠٠٠ ثني مكتبه —

قلت لك يا صاحبى إننى أحب مدينة الشمس لأننى أحب النور ..
أحبه صافيا وأحبه مزيجاً . وأحبه مجتمعاً وأحبه موزعاً . وأحبه مخزوناً كما
يحزن فى الجواهر وأحبه مباحاً كما يباح على الأزاهر ، وأحبه فى العيون ، وأحبه
من العيون ، وأحبه إلى العيون ! ..

و يوم سكنت فى هذا المكان ، ونظرت من هذه النافذة ، أعجبنى أننى أفتحها
فلا أرى منها إلا النور والفضاء .

والحق أنه لفضاء حيث يكون النور ..

وكيف يكون فضاء ، ما يملأ العينين ، ويملاً الروح ، ويصل الأرض بالسماء؟ ..

قلت لك يا صاحبى إننى أحببت النور فسكتت فى مدينة النور ! ..

وأود أن تفهمنى حين أقول لك إننى أحب النور ..

فإننى لا أحبه لأنه يرىنى الدنيا وما فيها ، أو لأنه هو واسطة الرؤية وأداتها ،
ولكننى أحبه لأراه ولو لم أر شيئاً من الأشياء ..

وقدি�ما كنت أقول إن الأرواح تحف فى النور كما تحف الأجساد فى الماء ،
كأنها هى تسبح فيه وتطفو عليه ..

و كنت أقول :

النُّورِ سِرُّ الْحَيَاةِ
أَمْ حَمَّهُ بِالرُّوحِ لَا
مَا تُبْصِرُ الْعَيْنُ مِنْ

و كنت أحسبه «روحانية» ترى بالعين و ...

إِلَى الْأَرْضِ رَوْحَانِيَّةٌ فِي جَمَالِهَا
إِذَا فَاضَ مِنْهَا النُّورُ هَزَّ قُلُوبَنَا

كما قد يَعْافُ اللَّمْحُ وَالسَّمْعُ وَالشَّمْ
بِقَلْبِي مِنْ شَمْسِ النَّهارِ هُوَ جَمْ
غَرِيبٌ عَرَالِمْ يُدْرِرُ وَصْفَ لَهُ وَاسْمُ
وَتَشْرِيقٌ فِيهَا ، كَيْفَ يَطْرُقُهَا الْغَمْ
ولو أَنْهَا مِنْ لَذَةِ الْحَسْنَى عَفْتُهَا
كَرِهْتُ مِنْ الدَّهْرِ الْكَثِيرِ وَلَمْ يَزُلْ
تَرَى كُلَّ يَوْمٍ وَهِيَ عَنْدِي كَأَنَّهَا
عَجِبْتُ لِأَرْضٍ تَعْخُطُرُ الشَّمْسُ

فلا أتكلّم بالمجاز حين أقول لك يا صاحبى : إننى أراه من عالم الروحانيات ، وأننى أشبع منه الروح والعين ولا أشبع منه العين وكفى ، وإنه شيء يرى ويجرى ولا تمل رؤيته ولا يشبع من النظر إليه . وليس هو الشيء الذى غاية ما يكفيك منه أنه يرىك الأشياء .

قال صاحبى : هذا من عمل النشأة الأولى .. هذا من عمل أسوان !
قلت : أو تظن ذلك ؟ .. ولم لا تظن أن النشأة الأولى تزهدنا فيما هو مبذول
لدينا ، بل فيما هو مسلط علينا ؟ ..

هل رأيت شاعراً من شعراء الصحراء يتغنى بالشمس المجيدة أو الشمس
الفاخرة أو الشمس الباهرة كما يتغنى بها أبناء الغيم أو أبناء الشمال ؟
لست معك يا صاحبى فيما قدرت ، ولعلى كنت أقدر معك هذا التقدير لو أنتى
نشأت فى أسوان أحب الظلال وأكره سطوة النور وأحسبه من قضاء الله الذى يطاق
ولو فى بعض المواسم وال ساعات ..

ولكننى - على ما رأيت - أستطيع أن أقول لك : بل إننى لأحب النور على
الرغم من النشأة فى أسوان ، وإننى أحبه حين أنظره وأحبه حين أنظر به ، وأحبه
حين أهتدى به فى عالم البصر وأحبه حين أهتدى به فى عالم بصيرة ، لأننى
أحسبه سر الأسرار أو أحسبه سبيل الهدایة إلى سر الأسرار ، وأوشكت أن أؤمن
بهذا الحسبان كل الإيمان ..

قال صاحبى : ما أعجب أن يكون أظهر الأشياء هو أخفى الأشياء !
قلت : يا صاحبى لا عجب أن يكون أظهر الأشياء هو المظهر للخفاء فى كل
معانىه ، ولا أحسب أن حجابا من الحجب الكونية سيرتفع فى مجال العلم أو
مجال الحكمـة من طريق غير طريق النور ، مهما يطل الزمان ..

وكنا نتحدث فى المكتبة ، فتناولت بعض الكتب التى تبحث فى الروح
والمادة ، وقلت لصاحبى : أعرفت حجة السياسي الفيلسوف «أرثر بلفور» فى نفى

الصلة بين عالم المادة وعالم الروح ؟ .. إنه يقول إن الروح لن تؤثر في الأجساد إلا بجسدها . فكيف يكون هذا التأثير ؟ .. إن الروح تحالف الجسم في تكوينه فكيف تعمل فيه عملها وما هي الأداة الجسدية التي تتلقى عنها دوافعها ! .. فإذا ما أنهما شيئاً منفصلان فلا تتأتى بينهما صلة على وجه من الوجه ، وإنما أنهما شيئاً متشابهان فلا اختلاف إذن بين تكوين الأرواح وتكوين الأجساد ! ..

قال صاحبى : أخاله قوى الحجة في مقاله .

قلت : وكذلك أخاله ، ولكننا إذا شككنا في أحد العنصرين : عنصر المادة ، وعنصر الروح - فأيهمما أولى بالشك فيما تراه ؟ ..

قال : على كل حال لا أستطيع الشك في المادة وهي تحيط بي وتصدني وتصدّى مني ، إذا أنا غالطت نفسي فيها .

قلت : بل في المادة تستطيع أن تشک وتفرط في الشك قبل أن تواتيك دواعي الشك في عالم الروح .

وإنما ساء فهم المادة والروح معاً من تصور الأقدمين هذه وتلك ، إذ وضعوهما موضع النقيضين ، وجعلوا المادة كثافة لا حركة فيها ، وجعلوا الروح حركة لا كثافة فيها .

فهل المادة كذلك ؟ ..

هل هذه الكثافة التي تصدمها بقدمك وتضربيها بيديك هي الحقيقة التي لا تستطيع إنكارها ؟ ..

أقول لك كلا .. إنك حين تضرب الأرض بقدمك فتزعم أنك صدمت الحقيقة التي لا تقبل المراء ، إنما تصدم شيئاً غير الكثافة أو الجرم الذي يحسب عند بعض الناس وجوداً لا يقبل الإنكار . فإنما الوهم كل الوهم هذه الكثافة ، وإنما الوجود الحق هو ما وراءها من قوة تصدم القوى فتصدم الحواس ..

هذه الكثافة المادية لا شيء يا صاحبى لولا القوة التي تكمن في أطواطها .. وإن شئت مصداقاً لذلك فافرض أن يدك التي تقف عنده هذه الخشبة قد زادت قوتها ألف ضعف أو عشرة آلاف ، ثم عد إلى لمس الخشبة بتلك القوة المضاعفة ، فهل تقف عندها ؟ .. كلا .. إنها لا تقف عندها بل تعبّرها كما تعبّر الهواء .

أو تعال إلى الماء والهواء وهما مثال التخلخل في تلك الكثافة المادية ، فادفع الماء بقوّة من بعض العيون .. إنك إذن لتضربي بالسيف القاطع فلا يمضى فيه

ويرتد إليك ، وادفع الهواء بقوة من بعض الفوهات .. إنك إذن لا تثبت أمامه على قدسيك .

فليست الكثافة المادية هي الحقيقة التي لا مراء فيها ، بل القوة هي الحقيقة الكامنة في تلك الكثافة وفي كل مادة ملموسة أو محسوسة .

قال صاحبى : مهلا .. مهلا .. وأين هذا من النور ؟ .. وأين هذا من سر الأسرار ؟ ..

قلت : صبرا يا صاح . إن كل جسم من الأجسام يتتألف من الذرات ، وكل ذرة من هذه الذرات تتتألف من النواة والكهارب ، ثم من الحركة أو من طاقة الإشعاع والنور .. تقلصت كثافة المادة كلها ووصلنا إلى الشعاع والإشعاع : وصلنا إلى النور ، واقربنا ولا نزال نقترب كثيراً من عالم الحركة التي لا كثافة فيها ، وابتعدنا ولا نزال نبتعد كثيراً من عالم الكثافة التي لا حرارة فيها . إننا هبطنا بالكتافة المادية إلى أدناها ، إننا نظرناها بالأحداق ثم دقت حتى عن النظر بالأحداق . نعم إننا لم نصل إلى طرف الروح الأقصى ، ولكننا وصلنا إلى طرف المادة الأقصى ، أو لعلنا قد عرفنا طريق القنطرة بين العدوتين إن لم نكن قد أقمناها وشرعنا في العبور عليها . ماذا يبقى من المادة الغليظة الجاسية ؟ .. ماذا يبقى من الجرم العجاثم الذي يناقض الروحانية ؟ .. إننا نقترب . إننا نقترب . إننا نقترب . إننا مع النور نصل إلى الملتقى الموعود ، ولعلنا لا نصل إليه إن وصلنا من طريق غير هذه الطريق .

قل إن الكون حركة لا مادة فيه . ذلك أيسرك من أن تقول : إن الكون جرم لا روح فيه ! ..

قل إن الكون نور . قل إن الله نور السموات والأرض ، فإذا قصر بك الحس عن نور الله فثق أن هذا الضياء الذي يملأ الفضاء هو النور الإلهي الذي كتب لابن الفناء أن يراه .

وكان النهار بساما ، مدللا بشمسه ، مزهوا بنوره ، كأنما يحس روعته في الأنوار وبهجته في الأرواح ، وكأنما يتوهج من نظر العيون إليه كما تتوهج الوجنة الصبور تحت لمحات الأحداق . كان نهاراً مبتكرها عليه جدة لا تحسبها قد مضت عليها سويعه من يوم ! .. خلقا مبتكرها يخيل إليك أنه يتلالاً في فضائه للمرة الأولى .. وهل هناك من فارق بين نور نهارنا هذا وبين النور في أبعد مكان من الفضاء ،

وفي أبعد فترة من الزمان؟ .. ها هنا شيء على الأقل تستطيع أن تقول إنه لم يفتك أن تراه قبل ألف ألف من السنين ، وإنك تذهب معه إلى أبعد من مذهب أبي العلاء حين سأله الفرقدين :

وَاسْأَلِ الْفَرْقَدَيْنِ عَمَّنْ أَحْسَا
مَكْنُونَ قَبْيلَ وَأَنْسَا مِنْ بَلَادِ
كَمْ أَقَامَ عَلَى بِيَاضِ نَهَارٍ وَأَنَارَ الْمَدْلَجَ فِي سَوَادِ

إن الفرقدين وأخواتهما في السماء لأطفال تلعب في حجر هذا الشيخ السرمدي ، يلوح لك من جدته اليوم كأنه لم تنقض عليه ساعة من نهار !

قال صاحبى وهو يرسل الطرف في السماء ، ولا نهاية لم البصر تصعیدا ولا تصویبا ولا من يمين ولا شمال : قصرت عین تحسب وهي تنظر إلى هذا النور أنها تنظر إلى شيء مكشوف لا عمق فيه ولا طويه وراءه : كاشف الخفاء هذا هو ينبوع الخفاء ! ..

وشاء أن يتكلم بلغة المكان ، لغة المكتبة ، لغة المجازيين والبلغاء ، فقال : - ونحن إذن في بربخ الأنوار : وراء الجدران نور الشمس في مدينة الشمس الخالدة ، وبين الجدران نور القرائح ونور الحكمة ونور البيان !

قلت : مجاز حسن وإن طال به عهد أصحاب المجاز ، الكتب علم ، والعلم نور ، ولكنني لا أحسبه مجازا يجري في النفس كما يجري في لفظ اللسان . فهل من الحق أننا نواجه المكتبة كما نواجه النور؟ .. وهل خطر لك فقط أن تسأل نفسك : كيف تبده الكتب الكثيرة - مجتمعة في مكان واحد - من يدخل عليها لأول مرة؟ .. كيف يقع ألف كتاب أو عشرة آلاف كتاب موقعها ممن يفجأ بها ويعرف ما هي ، وإن لم يعرف معناها؟ .. إننا في هذه الحضارة قد تعودنا منظر الكتب مجتمعات بالمئات والألف . ولكننا خلقاء أن نتجرد من فعل العادة ولو لحظة عابرة لنتنظر إلى هذه الظاهرة من جانب غرابتها لا من جانب ألفتها فكيف تبد هنا رؤية الكتب لمئات من أصحاب القرائح والعقول محشورة في بضعة رفوف؟ ..

إنتي لا أسأل عن أولئك القراء والدارسين الذين ألفوا عشرات الكتب بالليل والنهر . إن هؤلاء ينظرون إلى كتبهم كما ينظر الجوهرى إلى الشروات المخزونة عنده في صناديق البلور من نوادر الفصوص والأحجار الكريمة ، أو كما ينظر البستانى إلى أحواض الزهر وهي ترعرع أو تذبل بين يديه ، أو كما ينظر صاحب

القصر إلى أسراب الحسان المقصورات فيه . أو كما ينظر المهندس إلى الأزرار التي في لوحته وقد ينطلق كل زر منها بما يحرك مدينة بأسرها ، وكلهم يملكون زمامهم ، أو زمام تلك المرئيات وهم يحسون بها ، وكلهم يحضرؤن منها ما ألفوه وتعودوه وكروه ، وقد يغيب عنهم منها جانب المفاجأة والغرابة . ولكننى أحب من حين إلى حين أن أستغرب ما ألف وأن ألف ما أستغرب . ويثير هذا الشوق فى خاطرى أن أشهد وقع هذه الغرابة مرتجلا فى بعض النقوس ولا سيما النقوس التى تقارب الكتب من بعيد .

قال صاحبى : وماذا وقع من صورتها فى نفسك كلما استغربت ما ألفت منها ..
قلت : لا أحذثك بهذا الآن .. وإنما أحذثك بما شهدت وعاينت ، ثم أحذثك بما استدرجنى إليه الخيال كلما ألمقى بمقدادنى إليه .

لا أنسى وهلة فتاة ذكية حين دخلت هذه المكتبة عرضا فى بعض الأيام .. كانت على شيء من التعليم ، وكانت تميل إلى القراءة كلما اتفقت لها قصة سائقة أو قصيدة شائقية ، ولكنها فوجئت بهذه الكتب المتجمعة فصاحت على غير رؤية منها : ياسلام ، كتب ، كتب ، كل هذا كتب .. شيء يدوخ ! .. ومالت برأسها كأنها تهرب من دوار ينذرها بإغماء ..
ألا ترى يا صاحبى أن هذه الفتاة قد عرفت الكتب فلم تعرفها جلودا وأوراقا وألوانا تشوق العيون ، ولكنها عرفتها كما هي فى الحقيقة زحمة من الأفكار والمعارف تشفق منها على رأسها الصغير ؟ ..

لقد عجبت يومئذ من هذه الوهلة ، لأننى أعلم على التحقيق أن الفتاة شاهدت المكتبات فى المدرسة وشاهتها فى السوق . فسألتها : أهذه أول مكتبة رأيتها فى حياتك ! ..

تعجبت هى أيضاً معى من هذه الوهلة ، ولم تزد على أن تقول : رأيت غيرها كثيراً ، ولكنى لا أدري لماذا «دخلت» وأنا أنظر إليها هنا ..

ثم راجعت نفسي فى تفسير ذلك فلم أعجب من وهلة الفتاة كما عجبت من صدق حاستها ، أو من مبادرة هذه الحاسة إلى التفرقة بين الأشياء المتشابهة حين يتفرق بها المكان ..

فإنما تختلف الأشياء عندنا بما يقترن بها من تداعى الخواطر وما توحيه من اللوازم والملابسات . فالكتب فى السوق بضاعة للبيع . والكتب فى المدرسة

موزعة بين الأساتذة والطلاب ، ولعلهم مئات ولعلهم ألف فلا توحى إلى الخاطر تلك «الزحمة» التي ترهق الرؤوس . أما الكتب في حجرة واحدة في بيت رجل واحد فللفتاة العذر إذا أجهلت منها تلك الجفلة وخففت منها على رأسها الدوار .. إننا نمر بالمائدة في الفندق العامر ، فلا نستغربها وإن امتلاءت بطعام جيد ، ولكننا إذا رأينا هذه المائدة بعينها أمام ضيف واحد خطرت لنا التخمة أو خطر لنا الغثيان ، ولنا المعذرة في هذه التفرقة بين المائدين ! ..

* * *

واحتاجنا يوما إلى نقل بعض الرفوف من هذه الحجرة إلى الحجرة التي تليها ريشما نصلحها ونفرغ من طلائهما . فاستعنا بقرب باب المنزل يومئذ على النقل مع خدم البيت ، وكان ريفيا أميا يزور قريبه أو يزور «آل البيت» على التعبير الصحيح . أو لعلها أول زياراته للقاهرة في طلب الخدمة وطلب البركة على السواء .. ولم يكن له علم بالأحرف العربية ولا بالأحرف الأفرينجية ، فإذا رأى كتاباً في هذه الأحرف أو في تلك فكله كتاب ، وكله مما يقرؤه المطهرون .

فلما اقترب من باب المكتبة خلع نعليه وتهيب أن يمد يده إلى الكتب لأنه كما قال لم يكن على وضوء !

أليس لهذا الريفى الأمى منطق صادق فيما فعل على البداهة ؟ .. إنه تعود أن يقرن صورة الرجل العالم بصورة رجل الدين ، فما باله لا يقرن كتاب العلم بالقداسة الدينية ؟ .. وهل يكون الكتاب لغير علم أو لغير قداسة ؟ ! ..

لقد أكبرت تحية الجهل للعلم في مسلك هذا الريفى الصالح ، وأستغفر الله لأننى أفسدت سمعة الكتب في رأيه على الكره منى ، فأعلنته أنها كأبناء آدم وحواء فيها الصالح والطالع وفيها الطيب والخبيث ، وأنها لا تحرم في جميع الأحوال على اللمس بغير وضوء ، فلم أجرئه على حرمتها ولا أقنعته بلمسها حتى أريته على غلاف بعضها صور التماشيل العارية ، وفي صفحات بعضها صور السادة والسيدات . فتحلل من حرج وأقدم بعد إحجام ..

ولا أحوال هذه «الهيبة» للكتاب بعيدة جداً من هيبة «المكتوب» عند القبائل الفطرية كما أنبأنا عنها رواد المجاهل الأفريقيـة . فإنهم لا يفهمون هناك كيف يقرأ الرجل الورقة ويفهمها ويعمل بما فيها دون أن يكون فيها روح مرصد أو طائف من الجان . وقد روى بعض الرحاليـن أنه أرسل خادمة الأسود إلى زوجته على مسيرة

ساعات ليطلب بعض الأمتعة والأدوات من بيته ، فكتب له ورقة وأمره أن يأتيه بجوابها . فحمل الورقة مطمئنا ولم يلق إليها كبير اكتراث ، ولكنه لما رأى السيدة تقرأها وتراجعها كلما أسلمته أداة من الأدوات المطلوبة فيها خامره الشك وأيقن أنها تستوحى بمراجعة الورقة روها تفقه عنها ما تسأل عنه في صمت ووقار . فلما أسلمته السيدة تلك الأدوات تقبلها وحملها ولم يوجس منها ، ولكنه تردد وأوجس حين أسلمته الورقة بالجواب ! .. وحملها كمن يحمل ثعباناً يخاف أذاه أو شيطاناً يخاف سخطه وغضبه ، وأدى الأمانة بتمامها لأنه في حراسة رقيب ينقل عنه ما يظهره ويختفيه ..

قال صاحبى : ويع الأسود المسكين لو انطلق عليه روح من وراء كل كلمة مخزونة في هذه الرفوف ! .. إن عفاريت الأجام جمیعها لتصبحن عنده من ملائكة الرحمة بالقياس إلى هذه العفاريت ، وإن سحرة أفريقية على بكرة أبيها لا ينقذونه من وبال هذا السحر المخيف ! ..

قلت : أو لم يحصل ? .. بل قد حصل وفرغنا من محصوله ! .. وقد انهزم السحرة المساكين في وجه هذه الأرواح ، وهربت عفاريت الأجام من سطوة هذه العفاريت . وهل المعركة بين القارة السوداء وبين الواجبين عليها إلا المعركة بين الكتاب وتعويذة السحر القديم ? ..

والتفت صاحبى إلى الرفوف يتصفح عناوينها ويسألنى : أولاً يزعجك بعض الأحيان أن تخلي عن الكتب بهذه الصورة ، وأن تراها حاضرة الأرواح جياشة الحركة بحياة مؤلفيها ؟ ..

قلت : بل أنا لا أراها إلا على هذه الصورة كلما أعرضت عن صورتها الممثلة في الجلود والأوراق : أرواح في انتظار الطلسم ، أو مردة في قمامق سليمان . وأين برج بابل من لهجات رف واحد ها هنا لو تحركت له ألسنة وتفتحت له أفواه ؟ .. وأين الجحيم كلها لو انبعثت المردة من أرصادها وتمردت على الطلسم الأعظم الذي يحبسها في قمامتها ؟ ..

قال صاحبى : خير للكتب وأولى .. نعم خير للكتب ألف مرة أن تكون أرصاداً للأرواح أو قمامق للمردة من أن تكون على تلك الصورة التي يصورها لنا أصحاب المائدة وصحاف الطعام ! .. ولست أدرى لم يحضرني خاطر الطعام المخزون في العلم كلما تحدثوا عن الكتب وما فيها من طعام العقول ؟ .. مما القول في رأس فيلسوف مجفف لساعة الحاجة إليه ؟ ..

وما القول في هذه الأغذية المحنطة على الرفوف لطول البقاء واجتناب الفساد؟ .. هي ولا ريب أفضل ما اخترع الإنسان من صناعات الخزن والتجميف وأحسن ما ابتكر من وسائل الصيانة والتعقيم . ليت الشمرات كلها ت-chan وتظفر بالتعقيم والتجميف على هذا المنوال . ولكننا لا نشتته طعام العقول للعقل حين نعرض لها الرؤوس المجففة والشمرات المحنطة ليوم القراءة أو لليوم التغذية المشتهاه .. لا .. لا إننا لا نود أن نشتته الكتب هكذا لأنأكلها برأوسنا وأدمغتنا ، وإنما نؤثرها مردة في قمامق وأرواحا في أرصاد . فعلى بركة الله فلنمض معها في سياحتنا إلى حيث تلقى بنا في آماد المكان والزمان ، ولنطلقها فرادى إن عز علينا أن نطلقها أسراباً وجماعات .. على بركة الله! ..

قلت : نطلق ماذا يرحمك الله؟ .. وإلى أين المنتهي إذا ابتدأنا معها واحداً واحداً أو سريعاً سريعاً إلى حيث تستطيع المسير؟ .. هذا يا صاحبي مارد يحملنا إلى قطب الشمال وبجانبه مارد مثله يحملنا إلى قطب الجنوب! ..وها هنا مارد ثالث يتعدى بنا أقطاب الأرض إلى الشعرى اليمانية وما وراء السديم .. فمع أيها نسير ومتى المعاد إن سرنا مع هذا أو ذاك؟ .. وإنك لتعلم أنها قديرة على السفر في رحاب الزمان قدرتها على السفر في رحاب المكان . فهذا يحملك إلى القرن الأول للهجرة وهذا يحملك إلى القرن الأول للميلاد ، وغير هذا وذاك يحملك إلى ما قبل الهجرة والميلاد من أزمنة يصل فيها التاريخ وقلما يهتدى فيها الخيال ، وخطوة من هنا تلقيك بهوميروس وخطوة من هناك تلقيك بأمرئ القيس ، وخطوة أخرى تجمعك بأدم وأبناءه الأولين . فأين المنتهي بعد هذا ومتى القرار؟ .. لا يا صاحبي يرحمك الله .. لا نهاية لانطلاق هذه المردة في مداها فرادى ولا مجتمعات . فدعها في قمامقها وانظر إليها ومعك أرصادها . فليس هذا أوانها ليست سياحتنا هذه بالسياحة السرمدية التي لا ترقب نهايتها .. فعلينا بالأفق الذي نحن فيه نلزمه ولا نتعده ، وحذار أن تفتح القمامق مجتمعات ولا متفرقات ، ولنكن عندها بعد ذلك ما تشاء ..

فالتفت صاحبي إلى القمامق يتصفح عناوينها ، ونظر هنا ونظر هناك على غير اطراد كأنه يرتجع ولا يملك الانبعاث في طريقه دون أن يرجع إلى حيث كان . ثم هتف بي سائلا : ما هذه المفارقات؟ .. بل ما هذه المقارنات؟ .. شعر وتاريخ وفن ودين وسیر وطبائع حشرات تصاحبها طبائع عظماء ، وخليط من المطالب لا تعرف لها وحدة ولا يطرد لها نظام . فهل هي مكتبة قارئ واحد أو هي مكتبات شتى أعددتها لمن يشاء؟ ..

قلت : بل هي مكتبة واحدة أعددتها لقارئ واحد ، ولا أحسب أن مكتبة القارئ الواحد تتفق على غير هذا النظام ، لأنك تعد الكتب في مطلب واحد لمئات القراء الذين يستغلون به ويرجعون إلى مصادره ، ولكنك لا تحصر القارئ في مكتبة واحدة إلا إذا نوعتها له وأغنيته بها عن غيرها . ولا بد للقارئ الواحد على الأقل من مطلبيين مختلفين : إحداهما للصناعة والعمل ، والأخر للمتعة والتسلية ، فإن كانت صناعته الكتابة فقد تعدد ما يقرأ للعمل والصناعة وتعدد ما يقرأ للمتعة والتسلية وكثيراً ما يكون التعدد مع ذلك في العناوين لا في بواعث القراءة .. فإن القارئ قد ينظر في خمسة موضوعات أو ستة أو سبعة لباعث واحد ونزعه واحدة ، وليس أقرب من بواعث القراءة في بعض الأحيان ، مع تباعد الموضوعات والعناوين .

خذ لذلك مثلا هذين الموضوعين الغربيين : طبائع الحشرات وما وراء الطبيعة؟ أيبتعد عنوانان قط أبعد من هذا الابتعاد؟ .. أيفترق شيئاً في ظاهر الأمر كما يفترق البحث في الكون والسماء والخلود والبحث في جحور النمال ومباءة الجراثيم؟ .. مع ما يتقاربان جد الاقتراب حين يهديك كلاهما إلى بداية الحياة أو نهاية الحياة ، وربما فسرت لك طبائع الحشرات «تصميم» بناء الحياة تفسيراً تعجز عنه عقول الفلاسفة والحكماء ، وربما عرفت من دوافعها وجوازها وأنت ترقب الحشرة الضئيلية في أطوارها المتعاقبة ما لست تعرفه من مقاييس المنطق وتقديرات البديهة ، ودراسة المذاهب والتأويلات .

وخذ مثلا آخر ، هذين الموضوعين الغربيين : الشعر والدين ! .. إنهم ليبدوان في الغرابة كما يبدو لك منظر الناسك في الصومعة وإلى جانبه منظر الشاعر في مجال الأنس والسرور ، ولكنهما يلتقيان أقرب لقاء حين يعبر الشاعر عن نفسه ويريك جمال الخالق في خلقه ، وحين يبرز لك الإنسان من وراء مسوح الزهاد فإذا هو شاعر مستتر أو شاعر موثق بسلام العبادة ، وإذا العبادة لا تخرج به من نطاق الشعور ، ولا تنكر له فتننة الحياة بل تمثلها له قوية مخيفة يتقيها بالمجانية فيشعر بها من يوأقعنها ولا يتقيها . وإذا الفراش الذي يقع في النار والفراش الذي يهرب من النار .. كلاهما فراش ! ..

ولقد سألت نفسي عن هذه البواعث المتواقة وراء هذه النقائض المفترقة فأجابتنى عنها جواباً أرتضيه ولعلك ترتضيه ، ولخصته لى في كلمات معدودة : وهي «الاستزاده من الحياة» .

ولك أن تستزيد من الحياة بتعميقها أو توسيعها ، ولنك أن تتسلل إلى ذلك كله بقصيدة من عيون الشعر أو بنظرة في عجائب حشرة ضئيلة تخالها من أسرار الصناعة مكتومة بل من مسودات الخلق الأولى .. أو باستقصاء آماد الحياة فيما وراء الغيب وفيما بعد الموت وقبل الميلاد ، أو بالمقابلة بين سير العظام على ضروب شتى من العظمة بين سير الصغار على ضروب شتى من الصغار .. فكل أولئك باعث واحد مختلف العناوين ، وكله صحاف تعطيك أولئك شتى من الطعم والمذاق ولكنها لا تعطيك في النهاية غير دم واحد ينبض في العروق .. ومعدنة بعد من هذه اللفتة إلى الطعام وأنت لا تحب ذكر الطعام في هذا المقام ..

قال : لا عليك من المعدنة بعد هذه الفترة . فقد أوشكت الساعة أن أستطيع التشبيه الذي كنت أعاذه منذ برهة ، وأوشكت مع هذا أن أؤمن بأن الثبات على الرأي في البلاغة غير الثبات على الرأي في الأخلاق . فقديماً قيل لنا أن الثبات فضيلة ، وأخشى أن أكون اليوم قد أخللت بهذه الفضيلة .. لولا باب من الرحمة في هذا الخلاف بين شرعة البلاغة وشريعة الأخلاق . ولن泥土 هذه مسألة فكرة تقاس بالرأي بل هي شيء أحشه الساعة ولا أبالى أن أفكر فيه . فما أرتضيه من البلاغة وأنا شبعان مكظوظ لا أرتضيه منها وأنا جائع أتلمس الطعام ، وأنت لا تشهى الكتب إلى .. حين تشبهها بالمائدة وأنا من الكفالة أعااف المائدة وأحاديثها ولكنك تشهيها إلى حين تصفها بهذه الصفة وأنا متفتح المعدة والرأس لكل غذاء ..

قلت : هو ما قالوه قديماً وأصابوا فيه أكثر مما أرادوا . فالبلاغة هي «مراعاة مقتضى الحال» .. ولقد كنت بليغاً في إشارتك هذه .. فلك عندي من المكافأة عليها مائدة غير مائدة أفلاطون وأشباه مائدة أفلاطون !

وعدنا نستطيع القمامق والأرصاد بعد هنيهة ، ولكن على أن تركها بسلام فلا نطلقها فرادى ولا جماعات ، وحسبنا منها العناوين والرفوف .

ثم راح يجول ببصره جولة الطائر فيما يعبره وهو يقول : ما أصغر نصيب القصص من هذه الرفوف ! ..

قلت : نعم .. وإنه لو نقص بعد هذا لما أحسست نقصه . لأننى - ولا أكتمل الحق - لا أقرأ قصة حيث يسعى أن اقرأ كتاباً أو ديوان شعر ، ولست أحبها من خيرة ثمار العقول .

قال : كيف ؟ .. أليس في الرواية والقصاصين عبقريون نابهون كالعبقريين النابهين في الشعر وسائر فنون الآداب ؟ ..

قلت : بلى .. ولكن الشمار العبرية طبقات على كل حال ، وقد يكون الرواية أخصب قريحة وأنفذ بدبيهة من الشاعر ، أو الناشر البليع ، ولكن الرواية تظل بعد هذا في مرتبة دون مرتبة الشعر ودون مرتبة النقد أو البيان المنشور .. والمثل هنا أقرب إلى الإيضاح وسوق القضية بغير تمثيل : إن الحديقة التي تنبت التفاح لا يلزم أن تكون في خصبهما ووفرة ثمارتها أوفى من الحديقة التي تنبت الجميز أو الكراث . ولكن الجميز أو الكراث لا يفضلان التفاح وإن نبتا في أرض أخصب من الأرض التي تنبته وتزكيه .

* * *

ونحن نقرأ القصص التي تجود بها قرائح العباءقة من مثال ديكنر ، وتولستوي ودستيفسكي ، وبورجييه ، وبروست ، وبراندل ، فنؤمن بتلك العبريات التي لا تجاري في هذا المضمار ، ولكن إيماننا بها لا يلزمنا أن نضع القصة في الذروة العليا من أبواب الآداب ، ولا يمنعنا أن نقدم عليها غيرها في التقدير والتمييز ..

قال : وما المقياس الذي نرتب به هذه الرتب يا ترى ؟ ..

قلت : لعله مقاييس شتى لا مقاييس واحد ، ولعل الناس يختلفون فيها كاختلافهم في كل شيء يرجع إلى المشرب والتعبير . غير أنني أعتمد في ترتيب الآداب على مقاييسين يعنييناني عن مقاييس أخرى ، وهما الأداة بالقياس إلى المحصول ، ثم الطبقة التي يشيع بينها كل فن من الفنون .

فكلاً ما قلت الأداة وزاد المحصول ارتفعت طبقة الفن والأدب ، ولكلما زادت الأداة وقل المحصول مال إلى النزول والإسفاف .

وما أكثر الأداة وأقل المحصول في القصص والروايات ؟ .. إن خمسين صفحة من القصة لا تعطيك المحصول الذي يعطيه بيت كهذا البيت :

وَتَلَفَّتْ عَيْنِي فَمُذْبَعْدَتْ عَنِ الْطَّلْوُلِ تَلَفَّتَ الْقَلْبُ
أو هذا البيت :

كَأَنْ فَوَادِي فِي مَخَالِبِ طَائِرٍ إِذَا ذُكِرَتْ لَيْلَى يَشَدُّ بِهِ قَبْضًا
أو هذا البيت :

لَيْسَ يَدْرِي أَصْنَعُ إِنْسِ لِجَنَّ سَكَنُوهُمْ صُنْعُ جِنٌ لِإِنْسِ

أو هذا البيت :

وقد تَعَوَّضْتُ عَنْ كُلِّ بِمَشْبِهِ فَمَا وَجَدْتُ لِأَيَامِ الصَّبَا عِوَضًا
لأن الأداة هنا موجزة سريعة والمحصول مسهب باق ، ولكنك لا تصل في
القصة إلى مثل هذا المحصول إلا بعد مرحلة طويلة في التمهيد والتشعيب .
وكأنها الخرنوب الذي قال التركى عنه - فيما زعم الرواية - أنه قنطار خشب ودرهم
حلاوة ! .. أما مقاييس الطبقة التي يشيع بينها الفن فهو أقرب من هذا المقاييس إلى
أحكام الترتيب والتمييز . ولا خلاف في منزلة الطبقة التي تروج بينها القصة دون
غيرها من فنون الأدب ، سواء نظرنا إلى منزلة الفكر أو منزلة الذوق أو منزلة السن
أو منزلة الأخلاق . فليس أشیع من ذوق القصة ولا أندى من ذوق الشعر والطرائف
البلية ، وليس أسهل من تحصيل ذوق القصة ولا أصعب من تحصيل الذوق
الشعري الرفيع حتى بين النخبة من المثقفين .

* * *

قال صاحبى على أنهم قد أثاروا فى أوائل هذا القرن ضجة حول القصة بالغوا
فيها أيما مبالغة وخيموا إلى الناس أن فنون الأدب كلها عالة عليها ، وأنه لا كتابة
لمن ليست له قصة .

قلت : لقد فعلوها حقا ، وكان ذلك على أثر ضجة أخرى هي ضجة الكلام
الكثير في الدراسات النفسية و«السيكولوجية» بأنواعها ، فبدأ البعضهم أن القصة
هي المعرض الوحيد لتطبيق هذه الدراسات في الكتابة الأدبية ، وأنها هي الوسيلة
القريبة لفهم العلاقات بين النفوس البشرية وتفسير المواقف والمشكلات التي
تنجم عن غرائب الطياع . ولم تخل ضجة القصة من أسباب قوية غير
«السيكولوجية» وكثرة الكلام فيها ، فإن شيوع القراءة بين الدهماء قد أشاع معها
القصة التي تفهمها الدهماء وتؤثرها على غيرها من فنون الأدب ، وجاء شيوع
الصور المتحركة بعد شيوع القراءة فأملأى للدهماء في هذه النزعة أو هذه «الهواية»
حتى غلت عليهم وسرت منهم إلى النقاد الذين يتبعون الجماهير ويسمون نزواتها
بروح العصر وهي نزوات بغير روح ! ..

ونظرت إلى صاحبى فإذا هو يضم ما بين الخنصر والبنصر ويقول : ها نحن أولاء
نقلب صفحة جديدة أو نفتح كتاباً جديداً .. وها نحن أولاء نتكلم بالقول الصريح

وبالقول المستعار في وقت واحد . فما أبعد النقلة ما بين الخنصر والبنصر في عالم الكتب ، ما أبعد النقلة بين الأرض السماء وبين المعاش والمعاد . قلت : كلاهما يتصل لعمل واحد وهو تفسير الكون وترتيب المعاش في هذه الدنيا على هذا التفسير .

* * *

وكان صاحبى قد انتقل كما قال ، فيما بين الخنصر والبنصر إلى عالم السماء : عالم البحث في الله ، وسر الوجود - وأصل الحياة وما قبل الحياة وما بعد الحياة ..

وكان على ديدن الكثيرين يرى أن هذا البحث فيما وراء الطبيعة من الوقت الضائع أو فضول القول . فسألني وهو يتحرج قليلا لأنه يعلم أننى لا أستطيع وقتاً أنفقه في بحث هذه الأمور . ما فائدة هذا كله وهو غموض في غموض ، وفروض من وراء فروض ! ..

ألا يمكن أن يعيش الإنسان على هذه الأرض وهو في غنى عن هذه الفلسفة التي يسمونها سر الوجود ! ..

وأردت ألا أتخلف عنه في جرأة الرأى فقلت : بل هي آخر شيء يستغنى عنه الإنسان . وما أنت مستطيع أن تطل من هذه النافذة أو تبدأ عملك في الصباح ما لم تكن لك «فلسفة» وجود على نحو من الأ纽اء ..

قل لي : «ماذا تستبيح وماذا تحرم وأنت تنظر من هذه النافذة» .. أستبيح ألا تملأ عينيك من شيء غيرك كما قال الأديب الحجازي ؟ .. وإذا استبحته فلماذا تستبيحه ؟ .. وإذا حرمته فلماذا تحرمه ؟ .. وما حدود المتعاب بالنظر فيما تراه ؟ .. أله حدود أم ليست له حدود ؟ ..

وأنت تذهب إلى عملك كل يوم في الصباح ، فلماذا تعمل أو لماذا تهمل عملك ! .. أعليك واجب ؟ .. أمناط هذا الواجب مصلحتك أم مصلحة الأمة ؟ .. ومشيئة الخالق أم مشيئة المخلوق ؟ .. وإن أمنت بهذه المشيئة أو بتلك فلماذا آمنت ؟ وإن لم تؤمن بهذه أو بتلك فلماذا كفرت ؟ .. وإن لم تفكر في شيء من ذلك فهل أنت إذن مثل حسن الآخرين ! ..

مرحلة الحياة يا صاحبى كجميع المراحل التي نقطعها من مكان إلى مكان . لا تركب القطار حتى تحصل على التذكرة ولا تحصل على التذكرة حتى تعرف الغاية

التي تسير إليها . غاية ما هنالك من فرق بين راكبين أن أحدهما يقرأ التذكرة والثاني لا يقرأها أو أن أحدهما يؤدى ثمنها من ماله والثاني يؤدى له الثمن من مال غيره .. وإن أبيت المجازات فأحد الراكبين في مرحلة الحياة يبحث عن غايتها بنفسه والثاني توصف له غايتها بلسان غيره .. لابد يا صاحبى من هذه الفلسفة التي تريد أن تلقى بها فى اليم وأنت على الشاطئ . وثق يا صاحبى أنها آخر شيء يلقيه راكب السفينة حين تلعب به الأعاصير في البحار الـلـجـيـة . بل هو الشيء الذى لا يتركه ولو ترك السفينة أو تركته إلى الأعماق . ألم تسمع قولهم فى الأمثال : «أنهم كالنواتية لا يذكرون الله إلا ساعة الغرق؟» فاعلم يا صاحبى أن هذا الذكر هو فلسفة الحياة التى تبقى مع راكب السفينة بعد كل بضاعة يستغنى عنها ، وبعد السفينة نفسها إذا حان حينها ! ..

قال صاحبى : وهل وصلت قط من فلسفة حياتك إلى شيء؟ ..

قلت : نعم .. إن الله موجود .

قال : باسم الفلسفة تتكلم أو باسم الدين! ..

قلت : باسم الفلسفة أتكلم الآن . والفلسفة تعلمنا أن العدم معدوم فالوجود موجود .. موجود بلا أول ولا آخر لأنك لا تستطيع أن تقول : كان العدم قبله أو يكون العدم بعده ! .. موجود بلا نقص يعترى الوجود من جانب عدم ولا عدم هناك .. موجود بلا بداية ولا نهاية ولا نقص لأن الكامل الأمثل هو الله ..

قال : وكيف توقف بين الوجود الأمثل وبين الشرور والألام في هذه الحياة! ..

قلت : هذا سؤال غير يسير ، لأننا نحن الفنانين لن نرى إلا جانباً واحداً من الصورة الخالدة في فترة واحدة من الزمان . ومن يدرينا أن هذا السواد الذي يصادفنا هنا وهناك هو جزء لازم للصورة كلزوم النقوش الزاهية والخطوط البيضاء؟ .. وماذا تستطيع أن تصنع لو ملكت الأمر وتتأتى لك أن تقذف بالشرور من الحياة؟ .. بغير الألم والخسارة ما الفرق بين الشجاع والجبان وبين الصبور والجزوع! .. وبغير الشر والسوء ما الفرق بين الهدى والضلالة وبين النبل والنذالة؟ .. وبغير الموت كيف تتفاصل النفوس وكيف تتتعاقب الأجيال؟ .. وبغير المخالفة بينك وبين عناصر الطبيعة من حولك كيف يكون لك وجود مستقل عنها منفصل عن مواقفاتها ومخالفاتها! .. وبغير الثمن كيف تغلو النفائس والأعلاق ..

قال صاحبى : أليس عجزاً أن نشقى وفى الوعى لا نشقى ! .. أليس عيباً أن نقصر عن الكمال وفى الوعى أن يكمل الكمال ! ..

قلت : وكيف يكون فى الوعى أن يكمل المتعددون ! .. إنما يكون الكمال للواحد الدائم الذى لا يزول .

قال صاحبى : قل ما شئت ، فليس الألم مما يطاق ، وليس الألم من دلائل الرحمة وأيات الخلود الرحيم .

قلت : على معنى واحد إن هذا لصحيح ! ..

إنه لصحيح إذا كانت حياة الفرد هي نهاية النهايات وهي المقياس لما كان وما يكون . لكن إذا كانت حياة الفرد عرضاً من الأعراض في طويل الأزمان والأباد - فما قولك في بكاء الأطفال ؟ .. إن الأطفال أول من يضحك لبكائهم حين يعبرون الطفولة وإنهم أول من يمزح في أمر ذلك الشقاء ، وليس أسعد الرجال أقلهم بكاء في بواكي الأ أيام ..

يا صاحبى : هذا كون عظيم . هذا كل ما نعرف من العظم ، وبالبصر أو البصيرة لو نظرنا حولنا لا نعرف العظم إلا من هذا الكون . ماذا وراء الكون العظيم مما نقىسه به أو نقىسه عليه ؟ .. فإن لم نسعد به فالعيب في السعادة التي نتشدّها ، ولكل أن تجزم بهذا قبل أن تجزم بأن العيب عيب الكون وعيوب تدبّره وتصريّفه وما يبيده وما يخفيه . ولكل أن تنكر منه ما لا نعرف ، ولكن ليس لك أن تزعم أنه منكر لأنّه مجهول لديك .

* * *

ويسط صاحبى ذراعيه وهو ينظر حوله بالبصر والبصيرة معًا في أجواز الفضاء السرمد ، ويخيل إلى من يراه في تلك الساعة أنه يفتح بصيرته وسعها كما يفتح المشدوه عينيه وسع الأ جفان ، حين يحب أن يملا العينين مما تريان . وكأنه أغمض بعد إعياء من التأمل والاستقصاء فقال : هذه آفاق شاسعة ! .. هذه أغوار لا يسرّ لها قرار . وتساءل : أليس إلى معرفة الحقيقة من طريق غير هذه الطريق ؟ أليس للرياضة الروحانية مسلك إلى هذه الآفاق والأغوار ! .. إن نساك الهند على ما يبدوا لي لأخبر بهذه المسالك وأهدى في هذه الدروب .. إنهم لا يصدعون رؤسهم بالبحوث والفرضيات ولكنهم يعرفون ! ..

قلت : بل أحسب أن الطريقيين مختلفان . إن نساك الهند لا يطلبون المعرفة ولا يجعلونها غاية الغايات ، فإن المعرفة قد تناهى من إقرار الجسد كما تناهى من

إنكاره ، وقد تترجم من الإقبال على الدنيا كما تترجم من الإعراض عنها ، ولكنهم طلبوا الطمأنينة والراحة أو طلبوا الرضوان ، وشنان بين من يطلب الرضوان ومن يطلب المعرفة حيثما وصل إليها أو وصلت إليه ..

* * *

قال : أى رضوان وأى راحة ؟ .. إنهم ليعدبون أبدانهم ويقدعون نفوسهم ويسلون أعضاءهم بمشيئتهم ، فكيف ينشدون الرضوان والراحة بهذا العذاب .. !! . قلت : هل يعدبون أبدانهم إلا لأنهم راضون بهذا العذاب ومطمئنون إلى عقباه ؟ . وهل يشاء الإنسان أمراً لا يشاءه أو يختار أمراً لا يختاره أو يرضى بأمر لا يرضاه ؟ ..

* * *

لعمري لئن لم يفتح الناسك فتحاً عظيماً في جانب المعرفة لقد فتحوا أعظم الفتوح في جانب الأخلاق .. بل أقاموا الأخلاق على أوسع أساس حين علموا الإنسان أن رضوان النفس مطلب يهون في سبيله كل عذاب ، وأنه لا جزاء أوفي من رضوانها ولا عذاب أنكأ من سلب ذلك الرضوان ، وأى فهم لمعنى الشواب والعقاب أكمل وأفضل من هذا الفهم الذي لم يأت من جانب البحث والفرض ..

لا عذاب للنفس أنكأ من شعورها بالنقص ولا نعيم لها أنعم من شعورها بالرضوان . فكفى بهذا الفتح انتصاراً في معركة الأخلاق ، وإن لم تنسك كما ينسكون ولم تتذهب كما يتعذبون ..

قال صاحبى : الحق أننى لم أشق في حياتى بشقاء أمر وأوجع من اتهامى لنفسى وسوء الظن بطبيتى . ولو لم يكن هذا الشقاء أمر الشقاء على الطبيعة البشرية لما تحصنت منه بمحصن الغرور ، وهو أعم الخلاائق في البشر أجمعين .

قلت : والغرور هو الجوهر الزائف الذي تتحلى به كلما أعزتنا الجوهر الصحيح ، وإنه على هذا الحصن مطروق لا يستعصى كل الاستعصام من ذلك الرقيب الحسيب ..

فربما أغتر الإنسان فكبرت قيمته عنده ولم يقنع بما دونها فالمله النقص وفاته نعمة الرضوان .

* * *

ولقد قال اليونان قديماً أعرف نفسك ، فإذا قلنا معهم : نعم وارض عن نفسك أيضاً بلغنا كمال العلم وكمال الأخلاق . ترى هل يطلب الناس أجراً لأنهم يلبسون حلل الحرير ولا يلبسون الكرايس ! .. ترى هل يأكل الناس الطعام المريء اللذيد ويصدفون عن الطعام المسقم الخسيس لأنهم يخشون العذاب ؟ .. فإذا عرفوا الكمال وعرفوا النقص فهل تراهم يطلبون أجراً لأنهم تجنبوا النقص وتعلقا بالكمال ! .. وإذا عرفوا صحة النفس فهل تراهم يتلمسون الأجرا على الصحة كما يتلمس الأطفال أجراً لهم على تناول الدواء ؟ .. إنما الخوف من النقص هو أمر العذاب ، والرضا عن الكمال هو أحسن الجزاء .

وقد يتعدب الإنسان في طلب الكمال وهو راض ، وقد يرفض النعمة فراراً من النقص وهو لا يخشى العقاب . فارض عن نفسك وأنت في غنى بعد هذا عن الوعد والوعيد في نشان الكمال ، لأنك لا تحتاج إلى الوعد والوعيد ل تستطيب ما أنت شاعر بطيبه وتتفر مما تعاف .

قال صاحبى : أكبر الظن أن «الذوق» هنا قد يغنى ما ليست تغنيه المعرفة أو تغنيه التقاليد والموروثات ، وهنا يستوى الفن الجميل في مكانه إلى جانب المعرفة وإلى جانب الدين .

• بِبِينَ كُتُبِنْ •

وكان صاحبى يداعب على القرب رفا أمامه يقرأ عليه عنوانين الكتب فى تماثيل اليونان ومدارس الفن القديم والحديث ، فما هو إلا أن طرأ اسم الفن الجميل على لسانه حتى تناول واحداً منها ثم تناول ثانياً وثالثاً ورابعاً وهو يقلب صفحاتها ويقابل بين صورها ويقرأ سطوراً هنا وسطوراً هناك فى التعقيب على تلك الصورة أو ذلك التمثال ، ولم يفته أن يدرك ما أدركه الأجيال بدهاهة وارتجالاً من ذلك الفضل السبق على جميع الأفضال فى باب التمثال : وهو فضل الإغريق الأقدمين . فراح يقول : صدق الذين أطربوا فى شأن هؤلاء الإغريق ووصفوهم بأنهم تراجمة الطبيعة الصادقون فى كل باب ، ولا سيما بباب التمثال وبباب التمثال ، فما يبصر الإنسان تمثلاً إغريقياً إلا اتصل بصره بالطبيعة على بساطتها بغير حائل وبغير حجاب ، وما يقرأ قصة من قصصهم المسرحية إلا اتصل بصره بالطبيعة كما يعيش فيها وتسيطر عليها العناصر والأقدار .

واختطف كلمة فى هذا الكتاب وكلمة فى ذاك عن فن مريون وفيدياس وليس به ومن تلاميذه من المتخلفين . فإن الفن أيضاً مظهر لبروز الفرد الإنساني من الغمار الشامل إلى مكان التخصيص والتمييز ، فالتمثال القديم نموذج للشكل والقالب والقوام يتساوى فيه كل ذى خلق سوى من الناس ، ولكنه شامل عام لا تتميز فيه الملامح والتعبيرات ولا يتمثل فيه التخصص والانفراد ، ثم تتعاقب صور الإفراد بروزاً وتبانياً حتى ينسى الناظر إليها النماذج الشاملة ويتناولها بالتقسيم والتفصيل ، ويظهر هذا فى تماثيل العصور الإغريقية لأنهم صدقوا وصف الطبيعة وصدقوا الشعور بها على السواء . . . وكأنهم حين يمثلون الأبطال الأقدمين يمثلون عنوانين شتى لكل نموذج البطولة ويصنع على غراره قالب باق ومتعدد منه أنماط متكررات .

ولم ينته صاحبى من تقليب تلك الصور إلا وهو يقول : فن جميل . نعم فن جميل . ولكن ما أغناه الفنون الجميلة فى عصرنا هذا عصر العلوم والصناعات . . ! وأية أمة فى عصرنا هذا تفرغ للفن كما فرغ له الإغريق وعليها ذلك الإلحاح الدائم من حاجتها إلى العلم وحاجتها إلى الصناعة ؟

وتذكرت في تلك اللحظة سؤال سمعه الناس ولا يزالون يسمعون منذ ظهرت بينهم الصناعة الحديثة والعلم الحديث . وقد سئلته مرات ، وأحببت في هذا المقام أن أكون أنا السائل قبل أن أكون المسئول ، فقلت لصاحبى : وأيهما أحق بالعناية والتقديم ؟ .. وأيهما أجر بالآم أن تفخر به وترعاه ؟ ..

قال : وهل في ذلك جدال ؟ .. أحقها بالعناية والتقديم هو الذي تحتاج إليه ولا تستغني عنه ! ..

قلت : ولكن هذا المقياس يا صاحبى أخطأ مقياس للتفضيل بين شيئين يتعلقان بالإنسان ، لأن الذي لا تستغني عنه دائما هو الضرورات الحيوانية التي تقارب بيننا وبين من دوننا من الأحياء .. والذي نحسبه من الكماليات هو الكمال الذي تتفاضل به منازل الناس . فدع الحاجة ومقاييسها يا صاحبى فليست هو بمقاييس صحيح ، وكيف يكون مقياسا للاختيار ما يسلبك الاختيار وينزلك على حكم الضرورة والإكراه ! ..

قال : فماذا ترى أنت ؟ ..

قلت : إذا لم يكن في الأمر اضطرارا فنحن إذن قادرون على أن نختار بين أمة جاهلة ناقصة الأداة ، وأمة مريضة توشك أن تموت ..

فالآمة بغير علم آمة جاهلة ولكنها قد تكون على جهلها وافية الخلق والشعور ، والأمة بغير صناعة آمة تعوزها أداة العمل ، ولكنها على هذا قد تكون صحيحة الحس صحيحة التفكير ، والأمة بغير تعبير آمة مهزولة أو مشرفة على الموت ، وكذلك تكون الأمم التي خلت من الفنون ، لأن الفنون هي تعبير الأمم عن الحياة .

ولا أكتفى يا صاح أن الاختيار بين هذه المقاصد الثلاثة خليق أن يعتن المختار ، لأن الفن والعلم والصناعة ليست بديلا من بديل وليس قريناً يقاس إلى قرين . وما أعطى الإنسان التعبير ليتبادل بينه وبين العلوم أو بينه وبين الصناعات . فإنما التعبير جزء من حياة الإنسان .. والعلم حالة من حالاته ، والصناعة أداة من أدواته .. ولا محل للمفاضلة بين جزء لا ينفصل من النفس الإنسانية وحالة من حالتها التي قد تنفصل عنها ، ولا محل للمفاضلة بين هاتين وبين عصا يحملها المرء في يده أو فأس يضرب بها الأرض أو مطية يركبها ، أو شيء من هذه الأشياء المصنوعة على الإجمال ..

وما ظنك برجل يقول لك : تعال يا فلان ! .. إنك حتى تعبّر عن سرورك وألمك وتقول إنني أحب وإنني أبغض ، وإنني أرجو وإنني أخاف ، وإنني أبتغي لتلك الروضة وأنقبس لتلك المتأهة ، وأعجب بهذا البطل الجسور وأهيم بذلك الوجه الصبور .. تعال يا فلان ! .. إنك تستطيع أن تقول هذا فلا تقله وخذ في مكانه العلم أو خذ في مكانه عشر سيارات وبضع طيارات ومصنعاً للحديد ومنسجاً للحرير .. ما قولك في هذا الرجل يا صاح ! .. هل تراه قد عرض عليك الخيار في أمر يصلح للختار ؟ .. وهل ترك قادراً على أن تجيئه ولو طاب لك أن تأخذ البديل المعروض وتعطيه التعبير المزهود فيه ؟ ..

ذلك هو شأن الذين يفاضلون بين الفنون والعلوم والصناعات يخرون الناس في غير موضع للختار ، ويسألونهم عن الأسعار في غير موضع للبيع والشراء . أما إن كان المقصود من هذه التسعيّة تقويم القيم والعلم بأقدارها فليعلموا إذن ما شاءوا أن يعلموه : ليعلموا أن للأصبع قيمة ، وأن للمصابح قيمة ، وأن للسيف قيمة ، وأن للرغيف قيمة ، ولكن المبادلة بينها لا تقبل في سوق الاختيار . . . وليس في سوق البيوع الجبرية مجال للإيجاب والقبول !! ..

ووّقعت يد صاحبى على مجلدات الصور التي تسمى بصور المدارس الحديثة وهي أشكال وألوان من المستقبليين إلى فرق الواقعيين إلى الإحساسيين الغلاة ، إلى أشباه ذلك من البقع والخطوط والأصياغ التي تحمل عنوان التصوير وليس هي من التصوير في شيء ، لأنها في استطاعة كل من يتناول الريشة ويعمسها في الألوان ، وليس بالفن الذي تعرف له أصول وتدرس له مبادئ ويمتاز به الفنان بين سائر الناس .

نظر صاحبى إلى تلك الصور فاشتهدت عليه النقلة من فنون الأقدمين ونظائرهم المحدثين إلى هذا الهراء الذي يشبه هذيان المجانيين . فقال : إن كان الفن تصويراً فليس هذا بتصوير ، وإن كان هذا الفن الذي يسمونه بالحديث تصويراً فلنبحث عن اسم آخر لذلك الفن القديم . لن يجمع الفنانين اسم واحد بأية حال .

قلت : لا حاجة للبحث عن اسم آخر للفن القديم فهو التصوير الذي يصنعه المصوروون . أما هذا فهو ألغاز وأحاجي كتلك الألغاز والأحاجي التي تنشر في صحف التسلية عن الحروف المتقطعة والأرقام المثلثة أو المربعة أو عن العيون التي ليس لها أناف ، والأناف التي ليس لها عيون ، وكلها من عمل الملغزين والمفسرين فلا اختصاص بها للمصوروين والناحاتين دون غيرهم من العاملين .

قال صاحبى : ونستغفر للألغاز والأحاجى قبل هذا التشبيه بين الفنين . فإن الألغاز والأحاجى ترجع إلى تفسير يتفق عليه كل من يفهمها بلا استثناء . أما هذه البقع والخطوط والأصباغ فهي شيء لا يفهمه غير صاحبه ، ولا يستطيع أن يعلم فهمها بين طائفة من الناس ، فكل صورة هنا كلمة من لغة لا يعلمها إلا إنسان واحد ، إن صح أنها شيء معلوم ، وقد كانت الفنون لغة عامة يفهمها على البداهة من لا يتفاهمون باللغات ، فأصبحت على أيدي هؤلاء المجان خرافية سرية في ذهن رجل واحد لا يمثلها مرتين على نمط معروف .

ثم أومأ صاحبى إلى صحائف الإحساسيين فقال : هؤلاء هم الذين فتحوا الباب
جزاهم الله ! ..

قلت : أصبت ، إنهم هم فتحوا باب التصرف في الأصول الموروثة ولكنهم
أصابوا في فتحه ، وهؤلاء دخلوا فيه ولكنهم دخلوا وأغلقين ..
لقد كان الأساتذة الأقدمون يصورون ما يعلمون ويحسون ، فجاء من بعدهم
أساتذة المدرسة «الإحساسية» ليصوروا ما يحسون وما يشاهدون ..

كان الأستاذ القديم يعلم وهو يصور الشجرة أن لها غصوناً وأوراقاً فيصورها ذات
غضون وأوراق مفروزة كما يعلمها ، وإن كان يراها من حيث يجلس لتصويرها لوناً
أخضر لا تنفصل ورقة فيه عن سائر الأوراق .

وكان الأستاذ القديم يحسب الظل سواداً لأن نقيض البياض وإن كان ليضرب
أحياناً إلى لون البنفسج أو الرماد .

فجاء الإحساسيون فأصلحوا هذا وذاك وكان لهم الفضل والتفوق في هذا
الابتداء .

وكأنما حسب الذين خلفوهم أن التصرف مقصود لغير غرض مقصود ، فوصلوا
إلى ما هم فيه من هذيان المجانين .

كان الأقدمون يصورون ما يعلمون ويحسون ، وكان الإحساسيون الصادقون
يصورون ما يحسون ويشهدون ، فجاء من بعدهم من يصورون ما يتوهمن ، وجاء
من بعد هؤلاء من يصورون ما يزعمون أنهم توهموه ، وهم كاذبون .

توهم مزعوم .. فماذا يكون وراء الوهم الملفق والزعم المكذوب ? ..

لن يكون إلا هذه البقع والخطوط والأصباغ ، ولن تكون فنا يتولاه فنان لأنها في
مقدور كل يد تصبغ الألوان .

انظر إلى هذا الكلب الذي صوره رجل من المستقبليين ! .. أرأيت كلباً قط له اثنتا عشرة قدمًا وذيلان أو ثلاثة ذيول ؟ .. إن هذا «المستقبلي» يصوره كذلك لأنه يزعم أن الكلب وهو يجري قد يرى لهذه العدد من الأقدام والذيول ! .. فمن الذي أنبأه أن فن التصوير قد يخلق لتصوير الكلاب وهي واقفة لا تنقل قدمًا في قصاري شوطها فلم يجهل أحد رأها أنها تعدو غاية العدو وأن الحركة شيء داخل في صناعة المصورين . ولو جرى المصورون على هذا المذهب لما جاز أن يرسم إنسان بعينين اثنتين .. لأنه يقلب عينيه ذات اليمين ذات الشمال ويرفعهما إلى أعلى ويصوبهما إلى أسفل فلا تستقران في لمحتين ! ..

وانظر إلى هذا المنكود من غلاة الواقعيين كيف يصور الفتاة ؟ .. أفهمه فتاة أم جثة غريقة وارمة ؟ .. أم جلد آدمي محسو كما تحسى جلود الحيوان ؟ ..

ولكنه يقول لك إنه يصور ما يراه الوعى الباطن ولا يصور ما تراه العينان . فمن قال له أن الوعى الباطن مخلوق في هذه السنوات التي سميناه فيها باسمه .. ! ومن قال له إن الأساتذة الأقدمين كانوا يعيشون في هذه الدنيا على صورة لم تكن لها في الزمن القديم .. ثم جاء المتجررون بالغرائب فسخروا وشجعواه ، ووقع في الفخ من يدعون غير ما يعلمون ، ومن يخافون أن يقال عنهم إنهم قوم متخلفون ، ولا يفهون الجديد ولا يجرؤون مع العصر الذي يعيشون فيه .

قال صاحبى : ترى لو تمثل صاحبنا في وعيه الباطن صورة السيارة كأنها الفتاة الحسناء اللعوب - أيؤمن بوعيه الباطن هذا فيلقى بنفسه تحت قدميها ، أو يقف في طريقها ليغازلها ويسعد بقربها .. !؟ ..

قلت : ليتهم يصدقون الوعى الباطن هذا التصديق ، فيلحقوا بالوعى الباطن في عالم الخفاء وتسلم القرائح والأذواق .. لكنهم عند الجد قوم عقلاً . ينظرون بالعين التي ينظر بها الناس ولا يرون السيارة إلا سيارة ، ولا الرجل إلا رجلاً ولا الفتاة إلا فتاة !

وألقى من يده تلك المجاميع ليتناول مجموعة من صور التماضيل التي صنعها الأقدمون والمحدثون وحفظت أصولها في دور الفنون والآثار ، بعضها في متحفنا المصري وبعضها في العواصم الأوربية .. فبدرت منه هتفة إعجاب بنخبة من تماثيل الملوك والملكات والكهان في عصور الفراعنة ، وأدهشه ما يمثله الحجر - ثم تمثله الصورة المأخوذة عن الحجر - من قوة الخلق ودقة الملامح وبروز السمات على خلاف ما توسم في تماثيل الإغريق .

قال : ما كنت أحسب أن المصريين برعوا الإغريق في هذه الفنون ، ولا سيما في النحت والتصوير .

قلت : كما ينبغي أن تحسب ذلك بداعه قبل أن تلمحه بالعيان ، فالمصري القديم كان يعنيه التخليد قبل أن يعى بالنقل عن نماذج الطبيعة ، ومن عنى بنقل النماذج العامة أغناه الوصف المشترك بينها عن السمات الخاصة والملامح الشخصية ولكن المصري الذى كان يصنع التمثال كما يحيط المومياء للتخليد صاحبها ودوام جسده ومقومات شخصه لم يكن له معدى عن تمييز معارفه والتدقيق في تمثيل صفاتة . فمن ثم كان المصريون الأقدمون أربع من الإغريق الأقدمين في نقل الملامح والسمات ، ولو لا أن الإغريق أطلقوا الدنيا وأن المصريين قيدوا دنياهم بأخرتهم ل جاء فن الإغريق بعد فن الفراعنة الأقدمين بأشواط فساح .

قال : ولعلهم من أجل هذا قربوا الصلة بين قيود الفن وقيود الأخلاق . فندر في صورهم العرى وعرض المفاتن المثيرة ، وتعتمدوا أن يستروا من الأجسام ما تقضى الأخلاق بستره ، خلافاً للسنة الشائعة في رسم الصور ووضع التمايل .

قلت : إنهم في الواقع أقرب إلى ستر الأعضاء من غيرهم ، فلم يكشفوا من عورات الأجسام إلا ما صنعواه لأنفة التناسل في المحاريب المزوية ، ولكنى لا أحوال المسألة هنا حياء اتصف به قدماء المصريين وتجرد عنه الآخرون ، وإنما كانت تماثيل المصريين الأقدمين تماثيل أشخاص معروفيين لا تماثيل أجسام يتخذونها نموذجاً للجسم القوى والجسم الجميل ، ولا حاجة إلى عرض خفايا الجسم في تماثيل الأعلام المعروفة : أما نماذج القوة ونماذج الجمال فيختلف الحكم عليها بعض الاختلاف - فإن إظهار العضلات والألواح وإظهار الزوايا والمدارات ، قد يتمم النموذج ويلزم المثال في أداء عمله أشد من لزوم الوجه والرؤوس ..

ثم قلت : وعلى هذا ربما أدهشك كما أدهشتني حين قرأت لأول مرة أن الأصل في ستر الأعضاء إنما يرجع إلى الأنفة من وظائفها لا إلى الحياء من شهواتها ، وأنهم كانوا يعاونها فيسترونها ولم يستروها لأنهم يخشون فتنتها ، فما أعجب أصول الأخلاق ، وما أعجب منبت الحياة .

قال صاحبى : وكان من الذين يتحرجون ولا يمنعهم تحرجهم أن يسمعوا وجهات النظر : من أى منبت نبت فهو اليوم فضيلة من كبريات الفضائل ، أو

لعله اليوم أصل الفضائل جميـعاً .. فلماذا يكتشفون ما ينبغي أن يستر ؟ ولماذا يلزمون تماثيل الناس قلة الحياة وهم يطلبون الأصل الأصيل ! ..

قلت : أولى لهم أن يستروا ما يعاب كشفه ولا حاجة إلى إبدائه . على أن المثالين قد خدموا الأخلاق من حيث لا يريدون حين عودوا الناس أن ينظروا إلى الجسد الواحد نظرات متعددات ، لأن النظر للشهوة وحدها معيب كعيوب الخلاعة والابتذال ، ومازال العزل بين أنواع الشعور ثروة لنفس الإنسان تخرجها من فاقة الطبع إلى غناه . فالطبيب ينظر إلى جسد المرأة الحسنة فينسى الجمال والشهوة ويذكر الطب والرحمة ، والرجل ينظر إلى أخته أو ابنته فينسى أنها امرأة من جنس النساء ويذكر الحنان والمودة ، والممثل يقبل الممثلة وينسى لذة التقبيل ليذكر براعة التجويد والإتقان . والعينان اللتان تبصران ألف جسد على شاطئ البحر في كساء الحمام لا تفتنان كما تفتنان بجسد واحد في مثل هذا الكساء بين الجدران ، فإذاً تعود الناس أن ينظروا إلى التمثال فيذكروا جماله واتساق أعضائه وتناسق أوصاله وينسيهم ذلك أنهن من ذوى الشهوات بعض لحظات ، فهم كاسبون في الأخلاق فضلا عن الأذواق ، وليسوا بخاسرين ..

* * *

وعاد صاحبى إلى ترتيب المكتبة الذى بدا لأول وهلة أنه لا يعجبه ولا يريحه ولا يتتيح له أن يجد طريقه فيه ، لأنه أعرض عن كتب الصور والتماثيل ومد يده إلى بعض الكتب التى تجاورها على رفها فإذا هي فى المنطق وما إليه . قال : ما هذا ! .. أمن بيـكاسو وأروزوكـو وبراك وتماثيل الفراعنة والجرمان إلى أسطو وكانت «هـيـوم» ؟ .. لم أر موضوعاً أبعد عن المنطق من موضعه فى هذا المكان .

وكانت هذه الملاحظة وأشباهها ما تفتأً تعاد من كل زائر طرق هذه الحجرة ونظر فى كتبها ورفوفها ، ولم تكن بي حاجة إلى بيان عنها لأن البيان الوحيد أنتى أجددها كل حين ولا أملك أن أرتبها كل حين ، وإننى مع هذا لا أصل فيها عن طريق كتاب أريده منها فما حاجتى إلى ترتيب لها غير هذا الترتيب؟ ..

ولكننى رجعت بصاحبى إلى المنطق الذى أحـتكـمـ إـلـيـهـ فـقـلتـ :ـ وهـلـ يـقـضـىـ المنطقـ بـغـيـرـ ماـ تـرـاهـ؟ـ ..ـ ماـ الـحـاجـةـ إـلـىـ عـنـاءـ التـرـتـيبـ وـالـتـبـوـبـ إـنـ كـنـتـ بـغـيـرـ تـرـتـيبـ وـلـاـ تـبـوـبـ تـدـرـكـ ماـ تـرـيدـ؟ـ ..ـ وـأـىـ تـرـتـيبـ يـنـتـظـمـ فـيـ هـذـهـ الـحـجـرـةـ مـنـ نـاحـيـةـ أـخـرىـ؟ـ ..ـ أـتـرـتـيبـ الـحـجـمـ أـمـ الـمـوـضـوـعـ أـمـ تـارـيـخـ الـاقـتـنـاءـ أـمـ الـمـؤـلـفـينـ؟ـ ..ـ وـلـمـ عـنـاءـ؟ـ ..ـ إـنـ الـمـنـطـقـ الـذـىـ تـحـكـمـ إـلـيـهـ أـسـبـابـ وـعـلـلـ ..ـ فـهـلـ مـنـ سـبـبـ وـهـلـ مـنـ عـلـةـ؟ـ ..ـ

قال : لست على المنطق بغيره فاصنع به ما تشاء ووضعه حيث تشاء . وما جدوى المنطق في المكتبة وما في الحياة من منطق يعقله العقلاء .

قلت : أما هذا يا صاحبى فلا ، وإننا على شرطنا الأول أن ندع المردة في قمامتها ولا نطلقها ، ولكننا قادرون - وهى حبيسة - أن نقول في أمان : إن المنطق والحياة لا يفترقان ! .. وإن الآفة فيمن لا يفهمون المنطق أنهم لا يحسونه ، وفيمن لا يحسون الحياة أنهم لا يفهمونها ، فما من شيء في هذه الحياة يناقض المنطق بحال ، فإن فهمناه فهو مفسر بأسبابه ومقدماته ، وإن لم نفهمه فليس لنا أن نناقض بينه وبين المنطق أو القياس .

قال : عجبا ! .. أو كذلك ؟ .. إننا لنرى كل يوم أمورا لا نفهمها ولا يراها الناقدون تجرى إلا على خلاف وجهها ونقض استقامتها ، هذا الغنى بخييل وذلك الفقير كريم . هذا الفتى المقرب على الحياة يقدم على الموت في شجاعة وخجلاء ، وذلك الشيخ الذي شبع من الحياة يجبن ويختاف . هذا الذكي محروم وهذا الغبي مجدد .. فأى منطق في هذا وأى قياس ؟ ..

قلت : كل المنطق وكل القياس .. أن الذكي لا يصنع مقاديره فيصيب فيها بذكائه وأن الغبي لا يصنع مقاديره فيخطئ فيها بغيائه ، وإننا لنضع المنطق في غير موضعه حين نجعله حسبة أرقام وأعوام ، فإن الفتى الذي يقدم على الموت لا يفعل ذلك لأنه يحسب الأعوام التي عاشها والأعوام التي ينبغي أن يعيشها ، ولا يقدم على الموت لأنه يريد أن يقدم عليه ، ولكن الوضع الصحيح أن نضع دافع الحياة التي تحفذه إلى المجد والغلبة والثناء وتحجله من العار والمهانة والعذاب ثم نضع أمامها دواعي الحرص والحدر والإشراق ، فإذا كانت تلك الدوافع أقوى من هذه الدواعي فالمنطق الصحيح إذن أن يقدم على الموت ولا يستسلم للحدر والمخافة ، وإذا كان الشيخ على نقض ذلك قد تغلبت فيه المخاوف على دافع الشباب فالمنطق الصحيح أن يتثبت بالحياة التي يرفضها ذلك الشاب وهو في مقتبل صباح .. وما من غرابة إلا وهي مفهومة معقولة منطقية قياسية حين نضعها في وضعها الصحيح ، وإنما نخطئ المنطق لأننا نخطئ الإحساس ، فلا تصدق خصيانت العقول والآنفوس حين يزعمون أنهم من ذوى الإحساس لأنهم لا يفكرون ولا يقيسون . فإنما الإحساس القويم هو الفارق الوحيد بين المنطق القوى والمنطق الضعيف ، وإنما الخطأ في المنطق خطأ في الإحساس بالأمور على حقائقها النفسية .. أتعرف أولئك النظماء الذين يحفظون التفاعيل ليحسنوا وزن الشعر ،

فلا تستقيم لهم التفاعيل ولا تستقيم لهم الأوزان ! .. لو أحسوا بأذانهم لصححوا الأوزان معها ، وكذلك الذين صغرت نفوسهم فلا يشعرون بالحياة على حقائقها يتهمون المنطق وهو براء ، وهم الذين لا ينطقون ولا يحسون .

ترى هل يخطئ المخطئون فيحسبون الغنى أولى بالسخاء والفقير أولى بالضياء لأنهم يحسون ولا يفكرون ، أو لأنهم لا يحسون ولا يضعون شعوراً أمام شعور بل أرقاماً أمام أرقام ! .. ترى لو أحسوا ماذا يختل في نفس الغنى فيدخل وماذا يختل في نفس الفقر فيجود ؟ .. أكانوا يخطئون في المنطق ويضللون عن سواء السبيل ؟ ..

إتنا نتكلم في الغنى والفقير ، فلنمض في القافية ولا ندع الكلمتين قبل أن نقول : إن فقر العقول لم يكن قط شهادة بمعنى النقوس ، وإن ثروة النفس لا تحرم صاحبها ثروة العقل بل تعينه عليها وتزيده منها . وهذا فيما أحسب فصل الخطاب في قضية الفقراء المنطقين الذين يثبتون غناهم في الحس والشعور بشهادة فقر في باب المنطق والتفكير .

* * *

وقبل أن يتقدم صاحبى إلى ركن الشعر والشعراء وهو ربع المكتبة بادرته بالشرط المعهود : لا نفتح القمامق ولا نتجاوز العنواين ! ..

قال : نعم الشرط فيما أرى . فما نحن بخارجين من هذه الحجرة لو أطلقنا مارداً واحداً هنا وانطلق وراء إخوانه المتخفزون . ولا أخفى عليك أنني لست على مذهبك في الحفاوة بالشعر لأنه فضول شبعنا منه نحن الشرقيين وطال اشتياقنا إلى تعويذ أبنائنا ملكة العمل بعد ملكة الكلام ! ..

قلت : لك رأيك في الحفاوة بالشعر والشعراء . أما الحقيقة فهي أننا كنا عاملين عندما كنا قائلين ، وأنه لم توجد قط أمة عرفت كيف تعمل إلا عرفت كذلك كيف تقول . فلا تناقض بين القدرة على العمل والقدرة على القول . وما يستطيع إنسان أن يعمل حسناً أو يقول حسناً إلا بوعي صحيح . والوعي الصحيح قسط مشترك بين ملكرة العمل وملكرة الشعر . ولو لا أن الشعراء يحتاجون إلى صناعة التعبير ويفرغون لإتقانها لما منعهم الشعر أن يكونوا أقدر العاملين .

أتحسب العرب كانوا متخلفين في ميادين الأعمال أنهم كانوا سباقين في ميادين القصيدة زمناً من الأزمان ؟ .. أرأيت اليونان قد نبع فيهم القادة والساسة

والmdbرون إلا حين نبغ فيهم الشعراء والمنشدون ؟ .. أتعلم أمة من أمم الأرض في العصور الحديثة كانت أطبع على مراس الواقع والعنابة بالفکر العملى والخلائق العملية من أمة الإنجليز ؟ .. فهل رأيت أمة من جيرانهم ومنافسيهم سبقتهم في مضمار الشعر وأنجحت نصف من أنجبوه من عباقرة الشعراء ؟ ..

زعموا - أو زعمنا لأنفسنا نحن الشرقيين - أننا خياليون ، وأننا لو أصبحنا واقعيين لنفضنا عنا غبار الخمول . والحق الذي لا مرية فيه عندي أننا واقعيون فاشلون في الواقعيات ، فليست قصور ألف ليلة ولا حسانها وجواهرها وموائد طعامها وشرابها خيالا يحتاج إلى ملكرة من ملكات التصور والإدراك ، ولكنها كلها واقع ناقص أو واقع موقوف التنفيذ . فإذا حصل التنفيذ حصل الواقع الذي يلمس ويرى ويشم ويذاق .. واليوم الذي نتخيل فيه ، فنحس التخييل هو اليوم الذي تنفض فيه غبار الخمول .. لأننا نحسن الوعي بهذا التخييل ، ونطبع الصورة الصادقة في بدائئنا من صورة الوجود ، ولن تنطبع في النفس صورة صادقة لما حولها وهي راكدة قاعدة أو عازفة عن الحركة والسعى والاستجابة لتحول الأحوال . فكن على رأيي أو رأي غيري في الحفاوة بالشعر والشعراء ولكن لا تجعل الشعراء مقاييسك الذي تقيس به قدرة العمل ، لأنهم يتفرغون للتعبير فيفوتم التفرغ لما عداه من الشئون ، واتخذ مقاييسك من الأمم العاملة القائلة تجد أن الشعر الأصيل والعمل الأصيل يرجعان معا إلى فرد مقاييس ، وهو الوعي الأصيل . وهممنا أن نترك الحجرة التي قضينا فيها معظم هذه السياحة فأنصفناها أعدل الإنفاق لأننا في الواقع نقضى فيها معظم الحياة .

وعدل صاحبى عن الرفوف إلى الجدران فقال : إننا دخلنا هذه الحجرة ونحن نقول : إن النور أخفى الأشياء ، لأنه أظهر الأشياء بل مظهر الأشياء ، وهذا نحن أولاء نغضى عن الجدران الظاهرة ونبحث عن الرفوف والصفوف . فمن هذا وما ذاك وما هنالك على هذه الجدران التي رأيناها أول ما رأينا ؟ .. ألم تكن أحق منا بالسؤال عنها أول ما سألنا ؟ ..

وكانت على الجدران صورة فنية واحدة لا ثانية لها من نوعها وهي صورة الفتاة الحزينة على قبر حبيبها الدفين ، وقد كتبت عنها في ساعة من الساعات بين الكتب فلم يكن السؤال بحاجة إلى جواب ، أما سائر الصور فقد كان أوضح من أن

تحتاج إلى توضيح ، جمال الدين ومحمد عبده وسعد زغلول وكارليل وبيتهوفن ، وصورتان من صنع الفنان النابغ صلاح الدين طاهر إحداهما صورتي بعد الأربعين والأخرى بعد الخمسين ! ..

ولقد تجمعت هذه الصور في أماكنها بمحض الاتفاق ، في نيف وعشرين سنة ، فلم أعرف لها وحدة تجمعها إلا بعد أن تجمعت وحدتها وسائلت نفسى عن تلك «الوحدة» كما كان يسألني الناظرون إليها .

قال صاحبى وهو يومئ إلى الصور واحدة بعد واحدة : هذا موسيقى ألمانى ، وهذا حكيم إنجليزى ، وهذا مصلح أفغاني ، وهذا وزير ، وهذا مفت ، وهما مصريان ! .. فما الذى جمعهم فى صعيد واحد وهم بهذا التفرق فى المواطن والشواغل والأهداف ? ..

قلت : الجد والكافح ونبيل السليقة وقلة الاستخفاف .

فهؤلاء الثلاثة شرقيون من رجال العمل والحركة ، وأعمالهم فيها النهضة الاجتماعية والثقافة الدينية والثروة الوطنية ، ولكنهم كلهم مجدون مكافحون نبلاء ، لا يستخفون بما يعملون ولا يدينون بشريعة الاستخفاف التى يتراءى بها بعض الساخرين من الحكماء .

قال : لكأنى بك لا تحب الساخرين .

قلت : كلا .. بل أحبهم ساخرين وجادين مكافحين . ومن أعجبه كارليل وبيتهوفن لا يكره السخر بل لا يكره السخط أحياناً على الحياة . ولكن شتان سخط وسخط وشتان رضوان ورضوان .

أتعلم يا صاحبى ماذا أحب وماذا أبغض من مذاهب السخرية بل من مذاهب السخط والتباوم ? ..

إن النظرة إلى المرأة هنا هي مقاييس النظرة إلى الحياة . فإنك لا تسخط عليها إلا لأنك تكبرها ، ولا ترك السخط عليها والسخرية منها إلا لأنها هينة عليك حقيرة في عينيك .

الزوجة تغضبك وتقيمك وتقعدك ولكن البغي المستباحة لا تثير منك غضبة ولا تكلفك حساباً ولا عناء . فإن اقتربت السخط بالجد والاهتمام ، فالحياة شريفة مرعية تلقاك منها المغضبات بغير ما تتوقعه وما تتمناه ، وإذا بطل السخط وبالجد والاهتمام فالحياة شريفة مرعية تلقاك منها المغضبات بغير ما تتوقعه وما تتمناه ،

وإذا بطل السخط وبطل معه السخر اللاذع فالحياة جثة مستباحة بلا عرض ولا كرامة ، وهذا الذى أوثر عليه سخط الساخطين وسخط الساخرين ..

وانى لأسمع من هذه النافذة بين حين وحين صوت امرأة لا تنى تنذر وليدها بالخيبة وسوء المال : أأنت تفلح فى شيء قط ؟ . والله ما أنت بمفلح ولا بمقلع عما أنت فيه ! .. خيبنى الله إن لم أرك خائباً هكذا بين أبناء الأمهات ..

وهذا سخط كسرخطة فريق من الفلاسفة المتشائمين على الدنيا ومن فيها ، ولكنه سخط من يريد الخبر ومن يسوءه صدق ما يقول ، ومن هو أول الفرحين المستبشرين لو جرى الأمر على غير النبوة التى يقسم عليها جاهداً ، ويغتال إليك أنه قد جزم بها كل الجزم وفرغ منها غاية الفراغ .

هذا سخط من يعنيه أن يسخط ويعنيه أن يرضى ، هذا سخط من يسخط على نفسه وهو ساخط ، أو من يسخط لأنه يحاول أن يرضى بما استطاع ..

أما أولئك الفلاسفة الراضون بالدنيا لأنهم يتذدون عيوب الإنسان ويبحثون عنها بحث المحبور بالنقص المحزون بالكمال - فبيneathم وبين أولئك الساخطين بون بعيد ، بين هؤلاء وهؤلاء ما بين الأم التى تتعى خيبة وليدها العدو الذى ينبعى خيبة عدوه ، فتلك تتعى وهى كارهة أسنة ، وهذا ينبعى وهو راض قرير ، وتلك تحفز إلى العمل والصلاح ، وهذا يصد عن العمل والصلاح .

أولئك المتشائمون أصدقاء الحياة والإنسان ، وهؤلاء المتشائمون أعداء الحياة والإنسان .

وليس العبرة في مذاهب الحكمة بالأسماء والعناوين ، ولكنما العبرة حق العبرة بالبواعث والنيات ، وربما نظرت إلى البواعث والنيات فرأيت بعض المتشائمين أقرب إلى حب الحياة والإشادة بفضائل الأحياء من بعض المازحين والضاحكين .

قال صاحبى : إن كثيراً من الناس ليفهمون قولنا حين نقول لهم : إن كارليل فيلسوف متشائم ، ولكن كم منهم يفهموننا حين نقول : إن بيتهوفن موسيقى متشائم أو مناضل ? .. وكم من الناس في الشرق خاصة يرى في صناعة الألحان متسعًا لآراء المتفائلين وأراء المتشائمين وأراء المناضلين ! .. إنما يحسبون ذلك وفقاً على التعبير بالكلام دون التعبير بالألحان ، فإن وصفوا الحنا بالتشاؤم فأول ما يسبق إلى أخلاقدهم أنه لحن جنازة أو لحن شجن وأنين .. وإنما يسوغ التعبير

الموسيقى في معانٍ المذاهب الفلسفية عند طبائع الغربيين ولا يسوع عند طبائعاً نحن الشرقيين ، أو ليس هذا هو الفارق بين موسيقى الغرب وموسيقى الشرق التي ورثناها عن الآباء منذ عهد بعيد ! ..

قلت : لا أحب أن أظلم الطبائع الشرقية ولا أود أن أفرد الطبائع الغربية دون سواها بتلك الفضيلة ، فإن الموسيقى الغربية لم تكن من قديم الزمان على هذا الطراز الذي نسمعه من بيتهوفن وأمثاله ، وإنما اتخذت منهجهما الحديث حين نشأت في ظل القداسة الدينية ثم عبرت عن مسائل الروح وأسرار الوجود التي تشتمل عليها الأديان ، ثم استولت عليها المذاهب الكونية حين استولت في الغرب في تراث الدين كله وعلى مسائل الروح بما رحبت ، فلم ينعزل الموسيقيون عن الفلاسفة والشعراء وباعثي التخوه في صدور الأمم يوم تعاقبت بينهم نهضات الإصلاح والحرية ، وقد يمّا كان في اليونان وفي بلاد الجermany منشدون وملحنو فلم ينهجوا على هذا المنهج الحديث ولم يرتفعوا بالموسيقى كثيراً عن منزلة الطرب وتمثيل الحواس وتمثيل الشعور المحدود .

لعلنا نقترب إلى الإنصاف وندنو من التحقيق حين نقسم الموسيقى إلى نهجين يختلفان باختلاف الذوق والبديهة ولا نقسمها إلى إقليمين «جغرافيين» بين أناس في الشرق وأناس في الغرب ، أو أناس في الشمال وأناس في الجنوب ..

فهناك موسيقى حس محدود وهي التي تؤدي لنا وظيفة الجارية والنديم ، وتسلينا بأنغام نفرح حين نفرح وأنغام الشجن حين ننوح .

وهناك موسيقى الروح وهي التي تخاطبنا من منبر الإلهام وشرفات الغيب وتجلس لنا مجلس المفسرين والهداة ، وتقول لنا ما يعجز عنه الكلام ، لأن الألحان لا تقصّر عن وصف الأسرار حين تقصّر عنها المعانى والحرّوف ..

ولدينا من جهة أخرى موسيقى الحس الحى التي تطربنا وتشجونا كما يختلج الطرب والشجو بالجسم القوى الصحيح .

ولدينا من جهة أخرى موسيقى الحس المريض التي تطرب من تطرب وتشجّو من تشجّو لأنها السم المخدر أو الشهوة السقيمة التي تترهل بها الأجسام من مخادع اللذات .

وقد تقترن الموسيقى بالسعة والصيف وبالسموم والهبوط ، على حسب السامع المصغى إليها والمتعقب لأنغامها .

فمن الأذان الشعرية مثلاً ما ليس يتسع لغير القافية الواحدة في القصيدة الطويل . ومنها ما يسمع القصيدة الواحدة وفيها عشرة قوافٍ تتكرر في أماكنها فتحسن انتظارها حين تعود وتجرى مع كل قافية منها في مدار .

وكذلك الأوزان الموسيقية في أذان السامعين ، ربما أتبعت أناساً بتكرارها وأراحت أناساً بهذا التكرار ، وإنما المعول في الحالتين على الأذن التي تتعقب وتحسن التعقب والتعليق .

أتري اليدين اللتين تلعبان بخمس كرات وسكتينتين وبضع بيضات مع الكرات والسكنينتين لا تزال تقذفها اليمين وتتلقاها الشمال أو تقذفها الشمال وتتلقاها اليمين ؟ .. إنهمما يدان من لحم ودم كتينك اليدين اللتين تكسران البيضة الواحدة إذا تناولتها على غشم وجفاء ، فإذا مررت البديهة الصاغية فقد تداول بين عشرين وزناً تتلقاها في مواقيتها ولا تحار بين واحدة منها وواحدة كلما رجعت إليها ، وإذا أخطأتها هذه المرانة - أو هذه القدرة - فقد يعنته الوزن الواحد في غير ميقاته المحدود ولا خطأ في الموسيقى هنا وهناك ، وإنما هو الخطأ في التناول والاتباع ..

* * *

قال صاحبى مبتسمًا : وأحالها لعبة عسراً على أذان المستمعين عندنا .. خمس كرات وبضع بيضات وسكنينتان في يدين اثنتين .. هذا كثير على سامعي العود والقانون في هذا الشرق «اللطيف» .. إن ليائس من اليوم الذي يتجمع فيه لسماع الموسيقى العالية جمهور يعد بالمئات والألوف ، كذلك الجمهور الذي يتجمع لها في أندية الأوريين .

قلت : إن أجلى اليأس فلا ضير في تأجيله ، فإن الأغانى الشعبية عندنا لا تزال سليمة من مرض الترهل والغواية ، وهى لا تحتاج إلى مرانة كبيرة في المنشدين ولا في المستمعين .. فاما الموسيقى التي لا غنى فيها عن مرانة الأذان والأذواق فهى تلك الموسيقى العالية التي نتمنى لها نصيباً منها كنصيب الأوريين أو أوفى من ذلك النصيب . وليس لنا أن ن Yas من عقباها بينما حتى نؤدى واجب المرانة المطلوبة في الجيل الناشيء تمهدًا لما بعده من الأجيال ، فإذا حستت هذه المرانة جيلاً واحداً لم تشر في الشرق ثمراتها المنشودة فهناك مجال لل Yas أو للشرع فيه .

ويحيل إلينا أتنا لم نبدأ هذه المرانة بعد على وجهه المفید لأننا خلقاء لا نترقب فنا موسيقياً عالياً قبل أن نفصل بين الذوق الفنى وبين المتعة الجنسية أو المتعة الجسدية ، ونحن لا نزال نقبل على مجلس السماع جنسين جسديين ، يتغىض الذكور منا للمغنيات الإناث ويتعىض الإناث منا للمغنين الذكور .

قال : وما آية هذا الفصل بين ذوق الفن وبين الغريزة الجنسية ؟ ..

قلت : آيتها أن ترى السامعين يحيون السماع بغير ما ألفناه من التصدية والتصفيق ، وبغير ذلك الأسلوب الناشر من الخبط والصرير ، فإن الصفة الأولى التي لا تنفصل من الموسيقى والغناء هي صفة الإنسجام والتناسب بين الأصوات ولن تسيغ الأذن الموسيقية زعيقاً ولا اقتضاها وهي تصفع إلى تناسب وانسجام . إنما السامع المصفع إلى الغناء الذي يصبح تلك الصيحات المزعجة حيواناً لذعاته الغريزة فجمع في غير أناة ، وليس هو بإنسان يملكه جمال النسق وتستهويه متابعة النغم في مسالك الألفة والنظام ، وليس في وسع الأذن أن تكون أذناً موسيقية ثم تنتقل من الفوضى إلى النسق ، ومن النسق إلى الفوضى في لمحات عين ، وليس في وسعها أن تسيغ الفن ، وتسيغ نقايضه في آوانه واحدة ، وهل الفن إلا أوزان؟ .. وهل نقايضه إلا الأصداء والأخلاط التي تتطلق بغير عنان ! ..

فالصاحب الذي تلذعه الغريزة فيصبح ويقتضي الغناء معقول ومفهوم ..

أما الذي لا يفهم ولا يعقل فهو ذو نظام ذو فوضى ينطلقان في لحظة واحدة ، ولا يزال كذلك متقلبين متربدين في شخص واحد ساعة أو بضع ساعات ..

قال : كأنما الذنب ذنب المستمعين .

قلت : ليس في فنون الجماهير ذنب واحد ، بل ذنوب تشمل المستمعين ومن يستمعون إليهم ، ومن لا يسمعون ولا يستمعون .

وكانت صورة بتلهوفن تتحدى إلينا كأنها تصفع إلى حديثنا ، فقال صاحبى : ما كان أعظم فجيعة المسكين بسمعه وهو السفير بيته وبين عالم الأصداء والأصوات . لو كان هو الذي أمامنا ولم تكن صورته لما سمع من حديثنا أكثر مما سمعت هذه الصورة الصماء . فماذا كان على الدنيا لو أسمعت هذا الذي أسمعها من أقصاها إلى أقصاها ولا يزال يسمعها إلى اليوم ! ..

قلت : هي محنـة تمثلت فيها نزاهـة الفـن وخلوـصـه من ظـاهـرة الحـسـ القـرـيبـ . فقد سمعـناـ منـ نـقـادـ الـغـرـبـ مـنـ نـيـقـولـ : إنـ روـفـائـيلـ لوـ ولـدـ مـقـطـوعـ الـيـدـيـنـ لـكانـ هوـ

في ملحة التصوير روائياً الذي علمناه ، فإن كان هؤلاء النقاد قد بالغوا بعض المبالغة فقد شاء القدر أن نرى أعظم الموسقيين مغلق الأذنين لا يسمع ما يوحده لأنه يتلقاه من عالم النسب المحسض التي لم تترجمها الأصوات .. وما يتفق هذا لأصحابنا وأصحاب العود والقانون وريع المقام . لأنهم كالمرأة التي تنظر إلى مراتها ولا تفارقها . فإن فاتهم أن يسمعوا أنفسهم فقرة بعد فقرة لم يحسنوا إسماع الآخرين ..

* * *

وتهيأ صاحبى لسؤال يتردد فقال وهو ينقل بصره بين الصور المجاورات : إنك لم تجمعها عمداً على هذا التفاوت البعيد فيما بينها . فأما وقد اجتمعت على غير قصد منك فهل خطر لك قط أن توازن بين أصحابها وأن تسأل نفسك أيهم أعظم وأيهما أحق بالإكبار والإعجاب ؟

قلت : لا يخطر لك على أية حال أنتى أنزل بقدر الموسيقى العظيم عن قدر المصلح العظيم أو الزعيم العظيم . إن الأئمة الموسقيين أندر في العالم من أئمة الاجتماع وأئمة السياسة ، فلا تحسبه حتماً لزاماً أن يكون زعماء الاجتماع أو السياسة أعظم من زعماء الفنون ، لأن المعول على الكفاءة الالزمة للعبقرية لا على أثرها في مواطن العجاه والسلطان ، وليس حاجة الناس إلى شيء هي مقياس العظمة فيه ، لأن الناس يحتاجون إلى سنابل القمح ويستغنون عن اللؤلؤ ، وليس القمح بأجمل ولا أبدع في التكوين ولا أغلى في الشمن من الجوهر الذي لا تحتاج تلك الحاجة إليه ..

* * *

قال : وهؤلاء الثلاثة العاملون .. من أعظمهم في موازين الرجال ؟
 وأشار إلى جمال الدين ، ومحمد عبده ، وسعد زغلول ..

قلت أعظمهم أثراً في قطر واحد هو سعد زغلول ، وأعظمهم أثراً في جميع الأقطار هو جمال الدين ، وأعظمهم نفساً فيما أرى هو محمد عبده ، أو سط الاثنين .

قال : وبم كان أعظمهم في موازين النفوس ؟ ..

قلت : إن عظام البطولة الإنسانية لا يوزنون بغير الصفة العليا التي تتجلّى في البطولة ، وهي الإثار .

إذا تعادلت كفاءات العقل واللسان وكفاءات العزم والعمل ، فليس في الميزان الإنساني صدق من وزنه الإيثار للمفاضلة بين المتقاربين في الأعمال والأقدار ..

قال صاحبى متعجباً : ومحمد عبده الذى تسنم المناصب ولم يحرم نفسه متعة الأبوة والزواج أعظم إيثاراً من جمال الدين ؟ ..

قلت : قد تكون العزوبة مزيداً من الاعتداد «بالشخصية» وقد تكون الأبوة مزيداً من الإيثار .

قال : عليهم سلام الله أجمعين ، سابقين ولاحقين ، وراجحين ومرجوحين وليس بالمرجوح من له الرجحان على الآلوف وألوف الآلوف ، وإن سبقه بالرجحان أستاذ أو مرید وتحول صاحبى إلى صورتى فقال وهو يردد النظر بينى وبينها : لقد سألك عن صور غيرك فما لى لا أسألك عن صورتك ؟ .. كيف ترى صديقك الفنان قد مثلك فى هذه الأصباغ والألوان ! ..

قلت : على شرطى فى كل تمثيل ..

وشروطى فى الممثل القدير - على المسرح - أنه هو الممثل الذى يمثل لك مالا يقال ، أو هو الممثل الذى يشغل فراغ القول بين عبارة وعبارة من كلمات المؤلفين ، لأن مصاحبة الكلمة الضاحكة بالمنظر الضاحك أو مصاحبة الكلمة الباكية بالمنظر المحزن فن لا يعسر على الكثيرين ، وإنما يعسر عليهم أن يمثلوا لك مالا يقال بين الكلمتين أو بين المنظرين : يصعب عليهم أن يمثلوا لك ما تدركه أنت ولا يقوله المؤلف بلسانه ولا تسمعه أنت بأذنيك .

وكذلك أرى صورتها صورها صديقنا الأستاذ صلاح ، لأنه يمثل القابليات ، قبل تمثيل الملامح والمحسوسات فليس في الصورة حالة محسوسة عنى بها دون غيرها . ولكن ما من حاله قد تطرأ على النفس إلا نظرت إلى الصورة فرأيتها قابلة لها موافقة للتعبير عنها ، وهذه هي ملكرة الإيحاء التى تشترط في جميع الفنون ، فما تحبسه الكلمات والأصباغ من المعانى أو الملامح أقل في العمل الفنى مما ينطق به الخيال أو يسترسل فيه تداعى الخواطر والأفكار .

وكان آخر ما ودعه صاحبى من المكتبة نخبة من الكتب في فن الغذاء وأقوال المحدثين عن وحدات الحرارة والفيتامينات . وأول ما استقبله وهو منصرف عنها باب المطبخ على اليمين . فنظر فيه ضاحكاً ، وبادرته سائلاً :

- إنك الآن تضحك لأنك في حل من المقارنة بين طعام العقول وطعام الجسم ! ..

قال : غير هذا قد خطر ببالي حين ضحكت ، وإنما ذكرت قوله لصديق لى كان يستعيدها فى مناسباتها كما تستعاد الحكم المحفوظة . ولست أدرى كيف أطبقها فى هذا البيت ، فإنها غير قابلة فيه للتطبيق .

قلت : طبقها ولا حرج عليك ..

قال : لا ... إنها لا تتطبق هنا بحال من الأحوال ، لأن صاحبى كان يقول ويزهى بالعلم الذى أوحى إليه حين يقول : إن خطبت فتاة فلا تسأل عن أبيها ولا أمها ولا تسأل عن مالها ولا أدبها ، وإنما تحتمل حتى تلقى نظرة فاحصة على مطبخ بيتها ثم تخطبها إذا أعجبك نظام المطبخ وأنت مغمض العينين ..

قلت : لم يعد صاحبك الصواب ، ولو شاء لعمم هذا الحكم المصيب على الأمم فقال : إن أردت أن تخبر أمة من الأمم فلا تسأل عن نسبها ولا حسبها ولا تسأل عن مالها ولا أدبها ، وإنما تسأل عن «مطبخها» فيعنيك العلم به عن كل سؤال .

قال : وكأنى بهذا الرأى - لو صحي - يتبع لنا أن نقول إننا نحن الشرقيين سادة العالم وقادة الشعوب ، لأننا أساتذة الشعوب فى المطبخ والمخدع باتفاق الآراء ، وما يناظرنا القوم فى الأستاذية إلا حين يذكرون المعمل والمدرسة ، أو حين يذكرون العلوم والصناعات .

قلت : وهنا أراك قد أخطأت التطبيق يا صاحبى فى حكمك صاحبك الأديب . فإن المطبخ «المثالى» هو المطبخ الذى يستخدم للغذاء وليس بالمطبخ الذى يستخدم للذلة الطعام أو لذلة النوم . وقد يكون الطعام اللذيد سما فى باب الغذاء ويكون الطعام وافر التغذية وهو قليل اللذة ، أو لذلة فيه .

ولا ينكر علينا أحد أننا برعنا فى مطبخ اللذة ، وورثنا فى هذا الفن تركات روما وبيزنطة ومنف وبغداد وفارس والهند والصين .. وعرفنا كيف نطبخ الطبخة التى تتمتع ، والطبخة التى تكظم البطون ، والطبخة التى تهيج الأكباد ، والطبخة التى تعين على الشراب ، وجرب ذلك الغربيون فشهدوا لنا بالسبق فى المجال من نساء ورجال .

٠٠٠ فِي بَيْتِي

كتبت «إيزادورا دنكان» أجمل الرقصات في العصر الحديث تاريخاً لرحلاتها في الغرب والشرق فذكرت أكلة لها في قطر من قطر أوروبا الشرقية فلم تنس أن تقول : إنها أكلتها ونامت فاستيقظت وهي تعلم يومئذ كيف يستيقظ الرجال من النوم ويخرجون من البيوت ! ..

وهذه البراعة في المطبخ الشرقي الفاخر لا نزاع عليها ولا تخلي من الدلالة مع هذا على نصيب الأمة من شواغل العيش ومطالب الحياة . ولكنها تقف بنا دون البغية المرمودة إذا طمحنا بها إلى مقام الأستاذية بين الشعوب ، وإنما كتب «سوء التغذية» على أغنيائنا وفقرائنا على السواء بهذا المطبخ اللذيد ، وربما كان داء الغنى المستمتع بهذا المطبخ أولى من داء الفقر المحروم .

وأعرف من فتياننا الموسرين فتى تزوج فأراد أن يستعين على المخدع بالمطبخ فأصيّب بداء السكر في أقل من شهرين ، وكان مصابه بالمطبخ المعين قبل مصابه بالمخدع المستعان عليه ، لأنّه أقبل على الدسم والتوابل والمشهيات فأرهق الكبد وأجحف بالبدن كله من حيث أراد له الصحة والمتاع . فبئس المطبخ مطبخ اللذة ، ونعم المطبخ مطبخ الغذاء ، وأعنى مطبخ الفرد والأمة على السواء .

قال صاحبى وهو يصطمع المزاح ولعله أقرب إلى الجد منه إلى المزاح : إنك تخيفنى الساعة بهذا التمهيد ، أترانا مقبلين على مائدة لا تلذ الأكلين ؟ أتحسبنى أطيق أن نقلب صفحة من صفحات هذه الكتب الملعونة كلما أقبلنا على صفحة من الصحف ? ..

قلت : هونا هونا أيها الصديق ، فمهما يكن من حكم هذه الكتب الملعونة فلن على يقين أننا في هذه الحجرات المعدودات لا نعرف كتاباً يطاع كل الطاعة ولا إماماً يتبع كل الاتباع ، ولك أن تطمئن فيها بعض الاطمئنان إلى غاندى ، وإن عز عليك أن تطمئن كل الاطمئنان إلى أبيقور .

زَاهَدَ الْهَنْدَ نَعَى الدِّينَا وَصَامَ أَنَا أَنْعَاهَا وَلَكِنْ لَا أَصُوم
طَامَعَ الْفَرَّبِ بِرَعَى الدِّينَا وَهَامَ أَنَا أَرْعَاهَا .. وَلَكِنْ لَا أَهِيم
بَيْنَ هَذِينَ لَنَا حَدَّ قَوَامَ وَلَيْلَمُ مِنْ كُلِّ حِزْبٍ مِنْ يَلُومَ

إن هذه الكتب الملعونة - كتب الغذاء والفيتامين - حقيقة أن تراجع و تستشار ، ولنست بحقيقة أن تسيطر على العقول والأجساد ، لأنها تعطى الجسم ما يحتاج إليه بمقدار ما يحتاج إليه .. فتسليبه بذلك ألم خصائص الجسم الحى وهى طبيعة التعويض والتتمثيل والتصحيح . وخير من هذا أن نعطي أجسامنا شيئاً ناقصاً فى هذه الوجبة و شيئاً زائداً فى تلك فتبقى للجسم قدرته على تعويض النقص وتوجيه الزيادة إلى وجهتها ، ونعامله معاملة الراشد الذى يعمل لنفسه ولا يكلفنا أن نعمل له فى كل لقمة وكل جرعة وكل طبخة ، ولست ممن يرتضى القصور للعقل ولا للأجسام ، فكلاهما فى القصور معيب ، وكلاهما فى الرشد جميل ..

قال صاحبى : وان جسمى لمن أرشد الأجسام فى ساعة الطعام .

قلت : إنك الساعة تخيفنى أشد مما أخفتك يا صاح بذلك التمهيد .

واستقبلنا فى ركن من أركان ردهة المائدة الصغيرة صندوقاً مربعاً يوحى إلى الناظر باسمه المتفق عليه ، وهو التابوت ! ..

سماه باسم التابوت المقدس كل من رأه لأنه يشبه فى منظره وموقعه توابيت القديسين فى أركان المزارات . ولم أنكر التسمية لأن التابوت فيه تقدير و فيه تحليل ، وماذا على الموسيقى التى استعمل عليها التابوت أن تتصف بالتقدير والتحليل ؟ ..

كان هذا التابوت مشتملاً على حاك قديم وبضع مثاث من القوالب الموسيقية أو الغنائية المختارة من مسموعات الشرق والغرب ، ومنها توقيعات على بعض الآلات السمعانية العجيبة التى تختلف بسلمها الموسيقى عن السلم الشائع فى معظم البلدان ، كتوقيعات أهل الصين .

ومنزح صاحبى مزحة ليست بالأولى من نوعها لأنها كذلك من وحي المقام .

فقال : إن هؤلاء العازفين فى موضعهم هنا لأنهم يعزفون لك على الطعام ، فلا يفوتك حظ الخواقين والشاهات فى قصور البذخ والسلطان !

وأجبته كما كنت أجبت هذه المزحة فى كل حين : إن الإنسان يا أخانا لا يأكل أكلتين فى لحظة واحدة : أكلة روح وأكلة معدة ، وما من كرامة الموسيقى الرفيعة أن تشتعل بشيء آخر وأنت تستمع إليها ، فإنها شاغل كاف لمن يستوعبها ويقصاصها ويتأمل فى معانيها وشاراتها ، ولنست تلك الموسيقى التى تتحدث

وتأكل وتت翔غل عنها وأنت تسمعها إلا بمنزلة الجارية المستعبدة من السيدة المطاعة ، لأنها تسليك وتلهيك ولا تخاطب روحك وخيالك ووجودك فتستدعيك إلى الإصغاء والمبالة .

لا يا أخانا وكرامة ! .. إننى اختار لهذا التابوت أحياناً ساعات ك ساعات التهجد فى جنح الظلام ، فإن كان الوقت شتاء فأكثر ما أرجع إلى هذا التابوت فى ساعات اليقظة الباكرة بعد هدأة النوم الأولى . ويطول الليل وتشغل المطالعة فى الهزيع الثانى أو الهزيع الثالث من ليل الشتاء المديد . إن قبلت هذا التقسيم والترتيب للهزع الليلية . فإذا بي أعرض عن رفوف الكتب وأتوجه إلى هذا التابوت ، لا عالة من الأرق ولا بديلاً من الورق ، ولكن تلبية لنجوى العبرقيات فى وقت لا يسمع فيه غيرها ولا يوحى فيه السكون السابع على الكون بغير وصبة الإصغاء ، وكأى من مدخلج فى الطريق تتسرب إليه تلك الأصداء غير مفسرة ولا متصلة في الحالها من همسات الأرواح والأشباح فى غفلة الإنس وناشئة الصباح ..

وتعتمدت العبث والدعاية فقلت لصاحبى : إننا لا نسمعها فى أيام إذا سمعنا أناشيدها أنشودة أنشودة ، فليتنا نسمعها دفعة واحدة فى وقت واحد ! .. ترى كيف تتلقاها المسامع التى تطرب لها متفرقة ؟ .. أليس من حقها أن تسر بالكثير أضعاف سرورها بالقليل ! ..

قال صاحبى : ما أحسب أن أحسن الأنعام إذا قيلت معًا تفضل أسوأ الأصوات وأنكرها فى الآذان ..

قلت : ألا نستخلص من ذلك عبرة من عبر الحياة العظمى ! .. أليس الذين يتجلون النعم فيخيل إليهم أن ازدحامها خير من تفرقها وأجمع لمحاسنها - يخطئون كما يخطئ الذين يتجلون النعم فيحسبون أن مائة لحن فى وقت واحد خير من اللحن الفرد وأوفى ! ..

شيء واحد فى وقت واحد ، وجميع الأشياء فى جميع الأوقات .. وهذا هو نظام العيش وقوام الجمال فى كل نفع وكل سرور .

قال صاحبى : وهل تسمعها فى الصيف كما تسمعها فى الشتاء ؟ ..

قلت : الحق أقول لك يا صاحبى إننى أود أن أسمعها صيفاً وشتاء كلما انتبهت فى هذا الموعد ، وقلما تمضى ليلة لا أنتبه فيها . ولكن الشتاء مقفل مستور والصيف مفتح مكشوف . ومنظر رجل يستمع إلى الحاكى فى الساعة الثالثة بعد

منتصف الليل منظر يرشنى لسمعة لجنون المطبق ليلتين أو ثلاث ، ولمن تؤمنى من هذه السمعة اللازية ألف شركة من شركات التأمين ، لو عنيت الشركات بالتأمين على العقول .

كلا .. إننى لا أسمعها فى ذلك الموعد من الصيف ، ولكننى أستعيض منها بجلسة فى الشرفة ونظرة إلى الطريق ، وقد يبلغنى الإصغاء إلى السكون أحياناً ما يبلغنيه الإصغاء إلى أنبياء النشيد ..

إننا نكبر بالليل جداً يا صاح ..

إن الليل هو عالم النفس ، وأما النهار فهو عالم العيون والأسماع والأبدان .. إننا بالنهار جزء صغير من العالم الواسع الكبير ، ولكن العالم الواسع الكبير كله جزء من مدركاتنا حين ننظر إليه بالليل ، وهو في غمرة السبات أو في غمرة انضالام . وذلك النجم البعيد الذى تلمحه بالليل هو منظور من منظوراتك ووجود سفرد بك أمام وجودك .

ذلك الصمت السابع على الكون هو شيء لك أنت وحدك رهين بما تملؤه به من خيالك وفكرك ، ومن ضميرك وشعورك .

تلك المدينة الصاخبة التى نضيع فيها إذا أضاءتها الشمس هي شبح مسحور يلقيه رصد الليل تحت عينيك ، وهى ضائعة كلها إذا لم تأخذها فى حوزة نفسك ومجال بصرك ، وكأنما هي من تلك المدن التى تسحرها لنا الأساطير ... فكلها مفقود فى غيبة الأرصاد ، إلا السائح الذى ساقه إليها القدر وهو ساهر الظلام !

أنت عالم النفس بالليل ، كأنما توازن وحدك عالم الأنوار والأبدان .

وأنت تشمل الدنيا بالليل وهى تشملك بالنهار .

وأنت فى حضرة أعظم من حضرة الحس حين لا حس يشغلك عن عالم السريرة ..

أنت فى حضرة الخالق حين لا تكون فى حضرة المخلوقات .

ومن سعد بهذه النشوة فى ساعة من ساعات الهزيع الأخير ، فلا ضير عليه أن تفوته نشوة السمعاء .

وكنا قد فرغنا من الطعام وقضينا سوية فى أشباه هذا الكلام ، فإذا بصاحبى ينهض من المائدة وهو يقول :

- هذه المائدة ، وهذا التابوت ! ..

قلت : وهذه المزامير ! ..

وسمعنا بعض أدوار المطربين وشيئاً من أغاني الصعيد ولبنان .. ثم نقلت صاحبى نقلة بعيدة فأسمعته بعض الألحان التى لا تعذب فى جميع الآذان ..

وسأله : أفهمت شيئاً مما سمعت ؟ ..

قال : لا والله ..

قلت : وأنا مثلك .. هذا موسيقار الغرب الأشهر ولهم فاجنر ، وأنا لا أفهم منه إلا أقل من القليل ، ولكنه عند تقادهم موسيقار جليل وعقرى نادر المثيل ..

قال : وهل يفهمه الغربيون كلهم وهو مغلق على أناس منا كل هذا الإغلاق ؟ ..

قلت : بل يسخر بعض الغربيين بهذه الموسيقى وأمثالها كما نسخر نحن منها ، ولهم فى التندر عليها قفشات تذكرنا بقفشات أولاد البلد ، لأنها تجرى على أسلوبها . هذا يزعم أن القرن النحاسى اعتدل من النفح فيه بأمثال هذه الأنغام ، وذاك يزعم أن طبيباً أخذ مريضه الأصم إلى فرقة من هذه الفرق ليشفيه بضميجها فسمع المريض وصم الطبيب ! ..

فليست كل موسيقى مفهومة عند كل سامع ولو كان الموسيقيون والسامعون من بلد واحد ، وليس من اللازم أن يستطيب محب الغناء كل غناء ، ولا أن يستطيب محب الشعر كل قصيدة ، ولو كان من أجود الشعراء ..

قال : ولماذا لا نلغيه من عداد الموسيقيين كما ألغينا أولئك المبدعين المحدثين من عداد المصورين ؟ ..

قلت : أولئك فهمنا أنهم سخفاء . أما هذا فنحن لا نفهمه ولا ندينه بما لا نفهم . ولو كنا نحيط بكل سر من أسرار الموسيقى ونتلبس بكل مزاج من أمزجتها لصح أن نقضى عليه وعلى المعجبين به وبفنه ، فقصاراتنا إذن تقضى فيه بأنه عندنا نحن «غير مفهوم !» .

وامتدت السياحة خطوة فإذا نحن فى حجرة النوم ..

وحجرة المائدة وحجرة المكتب .. ليس عليهما حجاب ..

غير أنتى قلت لصاحبى : إن هذه الحجرة تعنى ولا تعنى أحداً غيري من الناس ، اللهم إلا بعض الصور الفنية التى فيها . وكلها منسوبة من أصولها

المحفوظة في متحفها ، فليس فيها من صورة أصلية أو تحفة غالبة ، ما عدا واحدة بمفردها هي بينها آية الاستثناء في كل قاعدة من قواعد التعميم .

هذه شالومه أو سلامه ، صاحبة هيرود ، من تصوير الفرنسي بروسيير : كان ثمن رقصتها في زمانها رأس نبي من أنبياءبني إسرائيل . ولا تزال رقصات الفاتنات من خليفاتها تكلف الناس كثيراً من الرءوس ، وإن لم تكن رءوس أنبياء : فإن هذا الصنف قد انقطع عن الدنيا منذ زمن بعيد !

وهذه صورة الزهرة من تصوير الإسباني فيلاسكية . جسد بديع وقوام ساحر ومعاطف منسقة .. لولا أمانة فيلاسكية المشهورة لحسبناها من تنسيق الخيال .. شغل بها المصور فمثلاً على تمامها ولم يمثل لنا الوجه إلا في مرآة رفعها رب الحب أمام ربة الجمال .

* * *

وهذه صورة تاييس وهي تهدم إيمان الناسك المسكين ، وقف أمامها وقد تبادلا الفتنة فأخذها بوعظه وأخذته بعوایة جسدها ، ولبس هو طيلسان الأثرياء وخلعت هي كل طيلسان ، وكأنها شاء المصور أن يعقد المقارنة بين الفاكهة الشهية وبين ثمرات البساتين . فجود ما شاء في العنب والموز والبرتقال ، ولكن تركها إلى جانب هذا البستان العاجف كأنها الماء الذي لا طعم له ولا لون ، ولا يروي الظمآن إلا شراب ذلك البستان ..

قوتان متناجزان لم تشغلهن الميدان قوتان أكبر منهما منذ تصارعت في هذه الأرض قوتان :

عقيدة وشهوة ، نسك وفتنة ، جسد تمد من فرط الحرمان وروح تمردت من خرط المتع بالشهوات .

ولقد رزقت المرأة فتنة قوية ولم ترزق عظمة قوية ، فلم يزل عزيزاً عليها أن تخذل بالفتنة أمام العظمة ، ولم يزل من دأبها أن تجرب هذا السلاح أمام كل سلاح ، فجربته في كفاح الوفاء وكفاح البطولة وكفاح النسك والزهد ، وشاءت في هذه الجولة أن تضرب أقوى ضرباتها لأنها آخر ضرباتها . فلما ضربتها سقطت من الإعياء ساجدة . فكانت سجدة العمر إلى الممات ، وخرجت الراقصة عابدة من ميدان صراع .

وانتصر الخصمان وهم من هزمان أكبر انهزام : راقصة تفتن ناسكاً وناسك يصلح
راقصة وذلك أقصى مدى الهزيمة والانتصار .

فلما انجلى الغبار كانت الراقصة راهبة في الدير وكان الارهاب مفتوناً بهم في
وادي الغواية ، كلاهما صارع مصروع ، ومفلح محقق ، وصادم هارب من الميدان .
وهذه صورة لسوق الرقيق في عاصمة من عواصمها الشرقية : تعجبني منها
عصبية الفنان لوطنه وإن لم تعجبني منها حياده عن الحقيقة في هذه العصبية ..
فهذه السمراء الشرقية تراها مزهوة بعرض محاسنها لأنها ترحب بنظرات سيدها
الذى أوشك أن يشتريها ، ولا يعنيها الخجل كما يعنيها أن تظفر في هذا الموقف
المخجل بنظرة استحسان ..

وهذه البيضاء الغربية تداري وجهها بيديها وتطرق برأسها وتدع الأنوار ترتع في
محاسنها لأنها تتلقاها على الرغم منها .

وفي الشرق خفر كثير لأنه وطن الحجاب ، وفي الغرب جرأة كثيرة لأنه وطن
السفور .. فإذا وجدت شرقية واحدة وغربية واحدة في سوق واحدة فهل من
المحتم أن تكون لشرقية مثلاً للتهتك الواقع ، والغربية مثلاً للخفر الخجول ؟
قال صاحبى : أو لا يجوز للفنان أن يتغضب لوطنه ؟ ..

قلت : بل يجوز بل يجب في كثير من الأحيان ، ولكن على أن يصدق البيان
ولا يتکفل بتشويه الحقيقة ، لأن الفن جمال ، والجمال عدو لكل تشويه ..

وتلى صورة الجواري في سوق الرقيق صورة اليتبوع العذب الصافي البرود .
وبرودته تتراءى من صفاتي في مجراه ، وقد جعله «إنجرز» صبية كاعباً تنضح
بالصباحة والطهارة وبراءة المحيا ونقاؤة القسمات ، وأعطاه عمرًا وحياة لأنه لم
يبلغ بعد سن اليابع الكبار ، وكأنه بين موارد الماء الفياضة تلك الصبية الكاعب
بين أمهااتها وجداتها من النساء .

وأصبحنا أمام الصورة الأصلية التي انفردت بين هذه النسخ المنقوله ..

قال صاحبى : إننى أفهمها وإن لم أعلم بخبرها .

قلت : إنها لا تحتمل غير معنى واحد : فطيرة حلوى يشهيها الجائع والشبعان ،
بل يشهيها المتخوم والمكظوظ ... وعليها صرصور ذو باب يحوم ، وفي القدح
الذى يفرغ عليها الحلاوة عسل يضطرب فيه بعض الذباب ويموت .. فلا يأكل

من الفطيرة الحلوة على هذه الصورة شبعان ولا جوعان . بل تعرف النفس حين تراها عن كل طعام .

وقيمة الصورة أن تاريخ الفن كله - بل تاريخ العبادة من أوائله - مرتبط بالباعث على تمثيلها في هذه الرموز .

فقد وجد الفن في الدنيا لأن النفوس تمتلىء بالشعور وتشتغل به كل الاشتغال ، فلا تقنع به شعوراً بل تطلبـه حساً منظوراً . ولا تشاء أن تظل فيها حاسة من حواسها فارغة منه غير مملوءة بمثالـه . ومن هنا نشأ التصوير ونشأ التجسيـم . ومن هنا نشأت هذه الصورة اليوم كأنـها أول اختراع لفن التصوير .

* * *

وكانت جولة الوداع في حجرة الاستقبال .

قال صاحبـي وهو يستقرـ فيـها : لقد سمعـت عن حديـقة الحـيـوان وقرأتـ فيـ وحـيـ الأـربعـين عنـها أنها «لا تجـمـع إـلاـ الفـنـانـ أوـ المـحـبـ لـلـفـنـونـ ،ـ سـمـىـ كلـ زـمـيلـ منـ زـمـلـائـهاـ باـسـمـ حـيـوانـ يـلـاحـظـ فـيـ اـخـتـيـارـهـ اـتـفـاقـ الشـبـهـ فـيـ الـمـلـامـحـ وـالـعـادـاتـ ،ـ وـقـدـ جـمـعـهـاـ الفـنـ كـمـاـ كـانـ أـورـفـيوـسـ الـمـعـرـوـفـ فـيـ أـسـاطـيرـ الـيـونـانـ يـجـمـعـ الـأـحـيـاءـ حـيـنـ يـغـنـىـ وـيـعـزـفـ فـتـقـبـلـ عـلـيـهـ كـلـ فـصـيـلـةـ وـهـىـ لـاـ تـشـعـرـ بـخـوفـ أـوـ تـهـمـ بـعـدـوـانـ» .. فـهـلـ لـىـ مـكـانـ فـيـ جـوـارـ أـورـفـيوـسـ ؟ـ .ـ

قلـتـ :ـ إـنـ طـالـ اـسـتـقـرارـكـ ظـفـرتـ بـمـكـانـ ،ـ بـعـدـ الـمـوـافـقـةـ وـالـمـتـحـانـ ..ـ وـلاـ تـحـسـبـنـ الطـمـوحـ إـلـىـ هـذـهـ الـمـنـزـلـةـ مـنـ يـسـيرـ الـأـمـورـ التـىـ تـبـلـغـ بـغـيـرـ عـنـاءـ .ـ فـأـولـىـ لـكـ أـنـ تـحـسـبـهـ مـنـ الـادـعـاءـ الـذـىـ يـتـطـلـبـ التـزـكـيـةـ وـالـشـهـادـةـ وـلـاـ تـحـسـبـهـ مـنـ التـواـضـعـ الـذـىـ يـقـبـلـ بـغـيـرـ تـزـكـيـةـ وـلـاـ شـهـادـةـ ..ـ فـهـلـ تـدـرـىـ مـنـ هـمـ أـكـثـرـ النـاسـ حـرـصـاـ عـلـىـ مـظـاهـرـ الـوـجـاهـةـ وـشـارـاتـ الـشـرـوـةـ وـعـنـاوـينـ الـفـخـارـ؟ـ ..ـ إـنـهـمـ أـحـدـثـ النـاسـ نـعـمـةـ وـأـقـرـبـهـمـ إـلـىـ الـضـيـاعـ فـيـ غـمـارـ الـوـضـعـاءـ وـالـأـذـلـاءـ إـنـ لـمـ يـتـمـيـزـواـ أـبـدـاـ بـتـلـكـ الـمـظـاهـرـ وـتـلـكـ الشـارـاتـ وـتـلـكـ الـعـنـاوـينـ .ـ وـكـذـلـكـ مـقـيـاسـ الـإـنـسـانـيـةـ عـنـدـنـاـ فـيـ هـذـهـ الـحـدـيـقةـ :ـ أـصـحـابـ الـإـنـسـانـيـةـ الـمـحـدـثـةـ هـمـ أـحـرـصـ عـلـىـ مـظـاهـرـهـاـ وـشـارـاتـهـاـ وـعـنـاوـينـهـاـ ،ـ وـأـشـبـهـ النـاسـ بـالـأـحـيـاءـ الـدـنـيـاـ مـنـ يـنـخلـعـ عـنـهـ شـعـارـ الـإـنـسـانـيـةـ باـسـمـ وـعـنـوانـ ،ـ وـإـنـماـ يـقـاسـ نـصـيبـ الـمـرـءـ مـنـ الـإـنـسـانـيـةـ بـمـقـدـارـ عـطـفـهـ عـلـىـ الـحـيـوانـ وـاقـتـرـابـهـ مـنـ فـهـمـهـ وـفـهـمـ شـعـورـهـ ،ـ فـمـنـ قـامـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ مـعـاطـفـةـ الـحـيـوانـ حـجـازـ حـاجـبـ فـذـلـكـ حـجـازـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ الـفـهـمـ وـالـعـطـفـ وـالـشـعـوـ ،ـ وـهـىـ أـكـرـمـ مـزاـياـ الـإـنـسانـ ..ـ

قال صاحبى : أنا لا أنكر شيئاً في الحديقة وترشيحاتها ولكننى أود أن أعرف كيف جمعتموها وكيف جاءت هذه التسمية أو كيف اخترتموها ؟ ..

قلت : أحسبها تسمية ترجع إلى مرجع واحد ، أحدهما قريب ظاهر والآخر بعيد باطن . فأقرب هذين المرجعين هو فن المحاماة عند صديق من أصدقائنا الأعزاء . فما تقع عينه على أحد يلفت النظر إلا أسرع إلى تشبيه محاكاته ، فإذا هو شبه محكم ومحاكاة تطابق الشبع من جميع وجوه المطابقة ، ولا يعفى من هذه العادة ألسق الناس به وأقربهم إليه ، بل هؤلاء هم في الغالب هدف الأول وأصابته المسددة .. وخلقته هو على هذا القياس هي أول ما يستهدف وأول ما يصيب .

فإذا تأدب عليه الصحاب تندراً وسخرية ومزاجاً شهر عليهم هذا السلاح وأسكنتهم عنه بالباء بنفسه والعدل في توزيع نقمته . ومن دلائل عدله أنه لا يطلق على أحد شبيهاً من الأشباء إلا وافقه الحاضرون جمیعاً ما عدا صاحب الشبه ... فإنه قد يمانع هنيهة ثم يلقى يد السلم ويعترف « بالخلعة السنوية » التي خلعت عليه ..

أما المرجع الآخر فأحسبنى أنا المسئول عنه من حيث أريد أو لا أريد . فإن عادة عندي - بل أقوى من عادة - أنأشعر بوحدة الخلق كله وأن أنظر إلى جميع الأحياء كأنها تجربة واحدة تنجلب عن مقصد واحد ، وإننا ربما فهمنا مقصد التجربة من مسوداتها الأولى قبل أن نفهمه من النسخة المنقحة المصقوله ... وإن كانت النسخة المنقحة المصقوله أجود في التعبير وأفضل في الأداء .

* * *

وما قرأت قط خرافات الأقدمين عن وسائل الأحياء إلا خيّل إلى أنها تنطوى على أكثر من خرافة أو لعبة خيال ، وتساءلت قبل نيف وثلاثين سنة عن مغزى تلك الأساطير التي تحكى عن أناس لهم أجسام أدميين ووجوه كلاب ، أو مغزى تلك التماثيل التي تجمع بين أجسام الوحوش ورؤوس الأدميين ، فقلت من كتاب الفصول : « ما مغزى هذا الإجماع والتواتر ؟ .. وماذا في طى هذا الاعتقاد بأن الإنسان يتتحول أحياناً من هيئته إلى هيئه حيوان أدناً منه ، أو أن في عالم الحياة مخلوقاً بعضه إنسان وبعضه حيوان ؟ .. هذا شعور لم يرد إلينا من ناحية الحواس ولكننا لا نجله ، وصحيح أن الخيال مفظور على مزاج أشكال الحس والباس الموجودات لباس الإنسانية ، ولكن لماذا فطر الخيال على ذلك ؟ أكان يستحيل

أن يفطر على غير هذه الفطرة! .. وهل لو خلق الإنسان من غير عنصره المعروف كان يتخيّل هذا الخيال بعينه؟ .. ألا يجوز أن يكون مغزى هذا الإجماع والتواتر أن في جلبة الإنسان شعوراً راسخاً بوحدة الخلق وتلامح سلسلة المخلوقات ... شعوراً أعمق من الفكر لا بل أعمق من الخيال نفسه ، يتكلّم باللسان فيكتنّ ويتفق ويتكلّم بالبديهة فيصرّح ويصدق؟ .. ولماذا تنفي وجود شعور كهذا يصلّي الإنسان على وجه ما بشيء من أسرار الحياة مع علمنا أن الإنسان قد اتصل بالحياة قبل أن يصله بها عقله وحواسه؟ .. أليس ترجيح وجود هذا الشعور أولى وأحرى بقدم العلاقة بين الأحياء والطبيعة؟ .. فلا يبلغن من قصور العقل إلا يصدق إلا العقل وحده ، ولا يبلغن من ضيق النظر أن نكسر حواس النفس كلها على أن تنمو نمو الحواس الخمس .. كأنّ الإنسان لا يتصل بالدنيا إلا بها ، وكأنّها الخيال ليس جزءاً من الإنسان كما هي جزء منه .. .

وهذا الشعور الكمين لا أحبه غائباً عنّي يوم نشرت خلاصـة اليومية وكتبت في تصديرها «إن الإنسان حيوان راق ولكنه لا يزال حيواناً» .. ويوم كتبت مجمع الأحياء وعقدت فيه مؤتمر الحياة بين الحمامـة والأسد والنمر والقرد والشعلـب والإنسان والمرأة وسائر الأحياء ، ثم يوم رثيـت كلبي بيـجو وجعلـته شاهـدـي على بعض المذاهـب في التـربية .. والدراسـات النفـسـية .. فإذا كانت «حدـيـقةـ الحـيـوانـ» فـكـاهـةـ من فـكـاهـاتـ المـجـالـسـ فـليـسـ هـيـ منـ الفـكـاهـاتـ العـابـرـةـ ولاـ منـ الفـكـاهـاتـ الرـخـيـصـةـ لأنـ لهاـ أـصـلـاـ أـصـيـلاـ منـ الجـدـ بـعـيدـ القرـارـ .

* * *

ونظر صاحبـي إلى يـمـينـهـ وأـوـشكـ أنـ يـجـفـلـ جـفـةـ الـخـوفـ ، لأنـهـ رـأـيـ هـنـالـكـ تمـثـالـ بـوـمـتـيـنـ دـقـيـقـتـيـنـ ، يـحـفـانـ بـالـسـاعـةـ الصـغـيرـةـ عنـ الـيمـينـ وـعـنـ الشـمـالـ .ـ وـقـالـ :ـ ربـ هـذـاـ مـنـ ذـاكـ! .. ثـمـ قـالـ تـرـىـ لـوـ دـخـلـ صـاحـبـكـ اـبـنـ الـرـومـىـ هـذـهـ الـحـجـرـةـ وـنـظـرـ إـلـىـ هـذـيـنـ التـمـثـالـيـنـ الـمـخـيـفـيـنـ -ـ مـاـذـاـ كـانـ يـصـنـعـ يـاـ تـرـىـ؟ ..

قلـتـ :ـ لـاـ شـكـ أـنـ كـانـ نـاكـصـاـ عـلـىـ عـقـبـيـهـ عـلـىـ الـأـثـرـ ،ـ وـإـنـ كـنـتـ قـدـ وـضـعـتـ هـذـيـنـ التـمـثـالـيـنـ فـيـ مـوـضـعـهـماـ وـتـحـدـيـثـ الشـؤـمـ كـلـهـ لـأـجـلـهـ هـوـ جـزـاءـ اللـهـ ..

لـاحـقـهـ الشـؤـمـ فـيـ حـيـاتـهـ وـقـلـ منـصـفوـهـ بـعـدـ مـمـاتـهـ ،ـ وـضـلـ مـعـظـمـ النـقـادـ فـيـ أـمـرـهـ لأنـهـ مـنـ طـراـزـ غـيرـ الطـراـزـ الذـيـ يـقـيـسـونـ عـلـيـهـ ،ـ فـهـوـ عـنـدـيـ -ـ بـغـيرـ خـلـجـةـ مـنـ الشـكـ -ـ وـحـيـدـ شـعـراءـ الـعـالـمـ مـنـ مـشـرقـهـ إـلـىـ مـغـربـهـ وـمـنـ قـدـيمـهـ إـلـىـ حـدـيـثـهـ فـيـ مـلـكـةـ «ـالـوعـىـ»ـ وـالـتـصـوـيرـ ..ـ وـهـىـ أـنـفـسـ الـمـلـكـاتـ الـىـ يـرـزـقـهـ رـجـالـ الـفـنـونـ ،ـ فـلـاـ يـضـارـعـهـ

في هذه الملكة شاعر عربي ولا شاعر أعمى ، ولا يناظره فيها فحل من فحول التشبيه والتوصير في أدب اليونان والرومان ولا في أدب الغربيين المحدثين ، ولم أعرف بين أدباء الأمم الأخرى التي اشتهرت بدقة التشبيه - كأدباء الصين واليابان - من يجري في غباره أو ينسج على غراره . ومثل واحد يغنى عن مئات الأمثال ، وهو وصفه لحقل الكتان حيث يقول في بيتهن اثنين :

وجلس من الكتان أخضر ناعم توشه دانى الرياب مطير
إذا اطُردت فيه الشمال تتابعت ذوابه حتى يقال غدير

فالواعية الفنية وحدها هي التي تغريه بوصف حقل من حقول الكتان التي مرت بألف شاعر منذ الخليقة ولم يلتقطوا إليها ، لأن حقل الكتان لا يحسب من موضوعات الوصف التقليدية بين شعراء التقليد ، فليس هو بروضة من رياض الورد والياسمين وليس هو بستانًا من بساتين الفاكهة والشمرات ، ولا هو بمنزه من منازة الحسان أو موعد من مواعيد الغرام .. فانظر كيف علق هذا المنظر بوعيه اللاقط المستوعب وكيف أحصى عليه كل ما يخصه التوصير في شرط النقد الحديث ، بعد طول المشاهدة والمراجعة لآيات الأساتذة من نوابغ التوصير .. واذكر كيف صنع ذلك بدهاهة وابتداعًا غير عاًمد ولا متتبه ، وهم يتعمدون ما يسجلون من ملاحظات النقد ويتبهون إليه .

فالنقد الحديث يشترط على المصور النافذ البصر وال بصيرة أن يستوعب المنظر فلا يفوته اللون ولا الملمس ولا الزمان ولا جو المكان ولا الحركة التي تشيع فيه إن كانت فيه حركة ، أو السكون الذي يشمله إن كان به سكون ..

وكل أولئك تجده في البيتين اثنين مطبوعًا منقولا إليك نقل الدهاهة عن تلك الواعية المستوعبة التي لا تفوتها مدركة من مدركات الحس والخيال : لمح أخضرار اللون ، ونعومة الملمس ، وأحاط بوقت الصورة كما مثلت أمامه فهو وقت الوسن ، وأحاط بجو المكان فهو المكان الذي يظل عليه رباب مسف فوق الأرض يؤذن بالمطر القريب ، وأحاط بالحركة وبمصدرها من ريح الشمال فإذا رؤوس الشجر تموح بالحركة الذهابة الآيبة فكأنها صفحة غدير . لا موضع لنقص في الصورة ولا محل فيها لزيادة ، وليس أصدق من الوعى الذي حسن اللقط وأحسن التمثيل في لمحه عين وفي بيتهن اثنين .

* * *

مثل هذا المقياس الذى تقادس به الواقعية الفنية لم يكن مقياس أولئك النقاد الذين جعلوا فضل ابن الرومى وأشادوا بفضل سواه ، ولو أنهما تتبعوا مئات الأبيات من شعره - بل ألوفها - على هذا المنوال لعلموا أنه مغبون - جد مغبون - حين يقرن بشاعر من شعراء العالم كائناً ما كان فى هذه المملكة الفريدة .. فكيف بالغبن الذى يصيبه إذا قدموهم وأخرجوه وأشادوا بفضلهم وأنكروه !

أثارنى هذا الظلم فأكليت لأدفع عنه ، فإذا بصاحبى يشنونى عن إنصافه وهم وجلون ، ولئن كانوا غير جادين لقد كانوا كذلك غير مازحين . فما لقينى أحدهم مشتغلًا به إلا صاح بي : حذار حذار ، إنه مركب غير مأمون العثار ! .. والرجل موصوف ببأسه فى شؤمه فلا شأن لك بإنصافه وظلمه ، ودعه لقضائه ، واقنع بأنك من قرائه ، فقد يتحداك شقاوه إذا تهجمت على حرمة شقائه ! ..

وكانت ثورة فأصبحت ثورتين : لقد ذل من يخاف ذلك الشؤم المعتز بجبروته ، ولقد طفى ذلك الشؤم الذى يسطو على فريسته فى حياتها وبعد مماتها ثم ينذر بالنعمة من يتصدى لغوثها ، فإذا أنصفنا الشاعر المغبون وغضب الشؤم والواقف له بالمرصاد فليصنع الشؤم إذن ما يشاء .

وسكتت هذا البيت ورقمه ثلاثة عشر ، ووضعت فيه التليفون ورقمه يومئذ مبدوء بثلاثة عشر ، وجعلت أسأل الشؤم فى كل دعوى من دعاوته وأولها دعواه الكبرى على البومة المسكينة ما لهذه الطريدة المظلومة وهى قد تركت الدنيا والنهر للإنسان ولاذت منه بالليل والخلاء ? .. وما عيبه عليها وهى أوفى الطيور فى عشرة الأليف منها للأليف ؟ أليست هى إحدى الأحياء النادرة التى يسكن الزوج منها إلى زوجه مدى الحياة ? .. أليست هى التى تغنى لنور القمر ولعزلة الليل ولا تقدم صوتها على من يأبه ! .. ألم تكن عند الأثنيين - وهم عباد الجمال - رمزاً للمدينة ينقشونه على الدراهم مع أغصان الزيتون ? .. فإذا جنى الظلم على سمعتها ولاحقها الظلم فى خلوتها فليصنع ما بدا له فإننا نتقاه منها باثنين لا بواحدة ، لأنها لا تحب الفراق ، وإن زعموها نذير الفراق ..

* * *

قال صاحبى : وكيف رأيت العاقبة ؟ ..

قلت : خير بعد شر ، وفلاح بعد كفاح ، فلا أخفى عليك يا صاحبى أن أمر ابن الرومى فى سمعته تلك أمر عجيب مفرط فى العجب ، وأننى لو صدقـت

خرافة من الخرافات لصدق خرافة الشؤم والتشاؤم ، وصدقها في ابن الرومي هذا قبل غيره . فما حدث منه قد شهدته بنفسه وخبرته في صحبى ، ولم أعتمد فيه على رواية الأقدمين ولا على مبالغات المتندرين ، لأننى تعاقدت على طبع كتابى عنه مع مدير المطبعة فمات هو وسجنت أنا قبل الفراج من ملازم الكتاب الأولى ، وكان وزير المعارف «أحمد حشمت» قد أوصى بطبع ديوانه وأقام على تصحيحه مفتش اللغة العربية في الوزارة ، فعزل الوزير والمفتش وما تات قبل الفراج من جزئه الثانى ، وكتب المازنى فصولاً عنه فكسرت رجله ونشر صاحب الشمرات قصائد من ديوانه فكسرت رجله ، وهم صاحب البيان بنشر مطولاً له والعنایة بأخباره فتعطلت مجلة البيان ، فلو كانت هذه المصادفات أسباباً يؤخذ بها وترتبط بنتائجها لكان الشؤم المزعوم حقيقة من الحقائق العلمية التي لا شك فيها ، ولكنها مصادفات سيئة تقرن بها مصادفات حسنة ، ولا يجوز لنا أن نركن إلى هذه ولا إلى تلك على انفراد ، فقد أنجزت كتابى عن ابن الرومى فكانت السنة التي ظهر فيها من أسعد السنوات في حياتي الخاصة وأبرزها في حياتي العامة ، وسلك الكتاب سبيله بين مراجع الأدب المعدودة في هذا الجيل ، فإن كان الشؤم على صولته التي يتخيّلواها فقد تحديناه ، ونجحنا في تحديه بحمد الله .

ولم يكن في الحجرة شيء سبقته إلى سكن هذا البيت منذ سكته قبل زهاء عشرين سنة ، فكل ما فيها قد دخل البيت يوم دخلته وبقي هناك كما بقيت .. إلا بعض الصور ، والمذياع !

ففيها صورة للقصر المعروف باسم «أنس الوجود» من صنع الفنان التركي القدير الأستاذ هدایت . تلمع من نظرة واحدة إليها غرابة الجو المصري والألوان المصرية الوضاءة على آثارنا الخالدة كما تبدو في عيني الفنان الغريب عن الديار .

* * *

وفيها صورة لى من صنع الأستاذ «أحمد صبرى» وهو من أساطين فن التصوير في هذا البلد ، وله ريشة ثابتة وألوان صحيحة وطريقة متأثرة عن عباقرة المدرسين الأقدمين ، لا تستهويه البدع المستحدثة ولا يروقه من ملامح الوجه إلا ما ينم على جد واهتمام .

وفيها صورة لشاطئ الزمالك من صنع المصور الموهوب الأستاذ شعبان زكي ، وهو فنان ينظر ويحلم ويسبغ من أحلامه كثيراً على المناظر الطبيعية أوالحوادث

التاريخية التي يسجلها . ومن آثاره التي تتجلّى فيها أحلام التصوير والأدب صورة امرئ القيس والعذاري وهو مرابط لهن على حافة الغدير .

وهناك تمثال نصفى أهداه إلى بعض الهواة ممن يشتغلون بغير النحت ولا يظهرن آثارهم الفنية .

أما المذيع فلم يكن قد ذاع يوم سكنت هذه الدار ، ولم أكن أرى منه في مصر الجديدة إلا أدوات عاجلة يركبها بعض الكهربائيين على أيديهم ، وتسمع أو لا تسمع كالمركب الشراعى الذى يسير أو لا يسير «على حسب التسهيل» .

قال صاحبى : إن نقل الصوت من المكان البعيد معجزة كافية . فكيف إذا أضيقت إلى هذه المعجزة المعجزة النقل من زمان بعيد ؟ .. إنهم يزعمون ذلك فى الإمكان ، ويقولون إن استخلاص أصوات الأقدمين كما نطقوا بها فى حياتهم ليس بالمستحيل . لأنها محفوظة فى بعض طبقات الجو البعيد ، لا يؤثر عليها الاختلاط إلا كما يؤثر الاختلاط على أصوات المحدثين ..

قلت : لو كان لى لسانا لقال أحدهما : مرحى ! .. وقال الآخر فى الوقت نفسه : أعود بالله ! ..

* * *

إننا نحب أن نسمع الأنبياء وهم يخبطون ، ولا بطل وهم يناضلون ، والشعراء وهم ينشدون وأصحاب الأغانى وهم يتربّدون .. ولكن منْ هؤلاء الأبطال يرضى أن تسمعه وهو فى خاصة وقته بين أهله أو ندائه ! .. ومن من الناس فى عصرنا يحب أن تنقل عنه كل كلمة قالها وكل سر همس به وكل آفة من آفات الضعف فارقت شفتيه ? .. إن الاستعاذه بالله هنا تحتاج إلى مائة لسان إذا كان الترحيب يكفيه لسان واحد . فليكن «وعيد» العلماء إذن من المستحيل ، ولا أصحابهم منه ما يصيبون به الآمنين فى القبور ..

* * *

الفهرس

صفحة

٣	الكتاب والكاتب
١٥	الفصل الأول : أنا
١٥	أبي
٢٥	أمى
٣٠	بلدتي
٣٤	طفولتى
٣٦	ذكريات العيد
٤٢	الفصل الثاني : أساتذتى
٤٧	٣ أشياء جعلتني كاتباً
٥٧	هجرت وظائف الحكومة
٦١	الفصل الثالث : قلمى
٦٥	لماذا هويت القراءة
٦٨	الكتب المفضلة عندي
٧١	منهجى فى كتابة المقالات
٧٣	منهجى فى تأليف الكتب
٧٧	مالم أكتب وما أريد أن أكتب
٨٢	الفصل الرابع : عرفت نفسي
٨٥	عرفت طريقي للنجاح
٨٨	تعلمت من أوقات الفراغ
٩١	أخرج ساعة في حياتي
٩٥	كنت شيخاً في شبابي
٩٧	

صفحة

١٠١	الفصل الخامس :
١٠١	أصدقائي وأعدائي
١٠٦	أصدقائي الأطفال
١١٠	أنا في السجن
١١٧	خواطر في الصحة والمرض
١٢٢	الفصل السادس :
١٢٢	إيماني
١٢٦	لو عدت طالباً
١٣٠	فلسفتي في الحب
١٣٥	فلسفتي في الحياة
١٣٨	الحياة .. هل هي جديرة بأن نحياها؟
١٤١	الفصل السابع :
١٤١	طفت العالم من مكانى؟
١٤٤	أجمل أيامى
١٤٧	أكره الصيف
١٥١	الفصل الثامن :
١٥١	بعد الأربعين
١٥٥	وحي الخمسين
١٥٩	وحي الستين
١٦٣	وحي السبعين
١٦٧	اعترافاتى
١٧١	الفصل التاسع :
١٧١	في مكتبتي
١٨٩	بين كتبى
٢٠٧	في بيتي